حسن حسني عبد الوهاب

خلاصة تاريخ تونس

طبعة جديدة مزيدة ومنقّحة

تقديم وتحقيق

حمّادي السّاحلي

دار الجنوب للنشر تونس

شبكة كتب الشيعة
shiabooks.net
mktba.net رابط بديل

حسن حسني عبد الوهاب

خلاصة تاريخ تونس

© - 2001 جميع الحقوق محفوظة لدار الجنوب للنشر.
ISBN 9973-844-00-9

يمنع حسب القانون استنساخ أي جزء من الكتاب والاتّجار به.
يحتفظ الناشر بحقه في القيام لدى القضاء
(قانون عدد 36-94 بتاريخ 94/2/24)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة الطبعة الجديدة

لقد كانت الناشئة التونسيّة، طوال عهد الحماية، محرومة من تعلّم تاريخ بلادها بوجه خاصّ، والتاريخ الإسلامي بوجه عامّ، إذ كانت السلطة الاستعماريّة تسعى إلى فصل التونسيّين عن وطنهم وأمّتهم، من خلال محاولة طمس هويّتهم العربيّة الإسلاميّة، وإدماجهم في البوتقة الفرنسيّة. ذلك أنّ المعاهد المدرسيّة الحكوميّة لم يكن يُدْرَس فيها سوى تاريخ فرنسا وجغرافيّتها. أمّا تاريخ تونس فلم يكن له أيّ أثر في برامج التعليم المعمول بها في تلك المعاهد، بما في ذلك المدرسة الصادقيّة التي حرص الجنرال خير الدين، منذ تأسيسها في سنة 1875، على إدخال التاريخ التونسي في برامجها، والحثّ على تدريسه لتلامذتها.

فبادر رجال الإصلاح منذ أواخر القرن التاسع عشر إلى تلافي هذا النقص بإدراج تاريخ تونس في برامج الجمعيّة الخلدونيّة التي أسّسوها سنة 1896 وتدريسه باللّغة العربيّة. وعهدوا بهذه المهمّة إلى أبي النهضة التونسية الحديثة البشير صفر الذي اضطلع بها بلا انقطاع من سنة 1897 إلى سنة 1908. فوجدت دروسه في التاريخ والجغرافيا الصدى البعيد، لا في تونس فحسب، بل في أقطار المغرب العربي قاطبة. وبعد وفاته جُمِعَت دروس التاريخ التي ألقاها في الخلدونيّة في كتاب مستقلّ بذاته أصدره ابنه مصطفى صفر سنة 1928 بعنوان «مفتاح التاريخ».

وقد عوّض البشير صفر في تدريس تاريخ تونس بالخلدونيّة إثر تعيينه سنة 1908 عاملا بسوسة، زميلُه محمّد بن الخوجة، ثمّ واصل تلك المهمة فيما بعد حسن حسني عبد الوهّاب والصادق الزمرلي وعثمان الكعّاك.

وفي سنة 1918 أصدر حسن حسني عبد الوهّاب كتابا بعنوان «خلاصة تاريخ تونس» يشمل - على حدّ تعبيره - «ذكر حوادث القطر التونسي من أقدم العصور إلى الزمان الحاضر» وقد أشار في المقدّمة إلى الغرض من إصدار

هذا التأليف قائلاً: «كان الباعث القويّ على وضع "هذه الخلاصة": حبّ الوطن والشغف بأخباره، واحتياج ناشئتنا إلى مختصر في حوادث قطرهم».

ثمّ أضاف قوله:

«وقد توخّينا طريقة الاختصار والإفادة، إذ كان مقصدنا إيقاف ناشئة مدارسنا التونسيّة على تاريخ بلادهم وترغيبهم في مطالعته».

وقد أحرز الكتاب منذ ظهوره نجاحاً باهراً، فطُبع في تونس أربع مرّات متتالية خلال السنوات: 1918 و1930 و1953 و1968، إلى أن نفذ منذ زمن بعيد وأصبح في عداد الكتب النادرة، إن لم نقل المفقودة. ورغم مرور هذه السنين الطويلة على صدور «خلاصة تاريخ تونس»، فإنّه لم يفقد قيمته العلميّة، وإنّ الحاجة إليه لا تزال ماسّة.

وبناءً على ذلك فقد رأت مؤسّسة "دار الجنوب للنشر" من الفائدة إعادة طبع هذا الكتاب في نشرة جديدة منقّحة، قصد مزيد الضبط والتوضيح، دون المسّ بجوهر التأليف وبأسلوبه. وعهدت إلينا بمهمّة مراجعة هذه النشرة وتقديمها وتحقيقها. فقمنا بطيبة خاطر، بهذا العمل المتمثّل بالخصوص فيما يلي:

1- تصحيح النصّ وإصلاح الأخطاء التي تسرّبت إليه في الطبعات السابقة.

2- المقابلة بين التاريخ الهجري الذي اقتصر عليه المؤلّف عند سرد الأحداث، وبين التاريخ الميلادي لتسهيل المراجعة.

3- إضافة بعض الهوامش والتعاليق لمزيد التدقيق والتوضيح، والإحالة على المصادر والمراجع المتعلقة بالموضوع، لتمكين القارئ من الرجوع إليها عند الاقتضاء. وقد أشرنا إلى تلك الإضافات بحرف (م) للتمييز بينها وبين تعاليق المؤلّف، الواردة في الطبعات السابقة، والتي أثبتناها في الطبعة الجديدة.

4- تقسيم الكتاب إلى أبواب وفصول لم تكن موجودة في الأصل تيسيراً للمطالعة، مع المحافظة في أغلب الأحيان على العناوين والعناوين الفرعيّة التي صاغها المؤلّف.

5- تحويل النصوص التوضيحيّة التي أقحمها المؤلّف في صلب الموضوع، إلى آخر كلّ فصل، لمزيد الوضوح.

ومن ناحية أخرى لاحظنا أنّ الكتاب ينتهي باعتلاء آخر الملوك الحسينيّين، محمد الأمين باي، العرش في 15 ماي 1943. فحرصنا على تلافي هذا النقص حتى لا يبقى التأليف مبتوراً، وذلك بإضافة ملحق من إعدادنا

يتضمّن عرضا موجزا للأحداث السياسية التي لم يذكرها المؤلّف أو أشار إليها إشارة خاطفة، من تاريخ الاحتلال في سنة 1881، إلى تاريخ الاستقلال في سنة 1956.

وفي الختام لا يسعنا إلاّ شكر مؤسّسة "دار الجنوب للنشر" لإقدامها على إعادة طبع هذا الأثر الجليل الذي جعله صاحبه في متناول الدارسين والمهتمّين بتاريخ تونس القديم والحديث، من غير أهل الاختصاص.

واللّه المُوَفّق والهادي إلى سواء السبيل

حمّادي الساحلي

مقدّمة الطبعة الأولى

الفاتحة

لكلّ شعب حياة تشخّصها الحوادث يقضيها في أدوار كما يمرّ الحيّ بأدوار العمر. وهي حياته الذاتية التي تميّزه عن غيره من الشعوب حسب السنن العمرانية والنواميس الكونيّة التي أودعها الباري جلّ ثناؤه لنظام العالم.

ولكلّ أمّة تاريخ تختلف أهمّيته باعتبار حظّ تلك الأمّة ومشاركتها في حوادث المجتمع العام، والمشاركة تكون على نسبة استعداد الأمّة ومواهبها وموقعها الجغرافي.

فحوادث العالم القديم أجمع كان يدور محورها على ضفاف البحر المتوسط، منبع الأديان وأصل التاريخ. وقد أنبتت سواحل هذا البحر مصريّين وفنيقيّين، وعبريّين، ويونان، وروم، وعرب، غرسوا بتربتها بذرة التمدّن البشري، فأينعت غصونها واقتطفت من ثمارها كافة الأمم وتوارثها الأجيال سابقا عن لاحق، «سنّة اللّه قد خلت مِن قبل».

وإذا سرّح الإنسان بصره في الخريطة يرى بين الأقاليم المحيطة بالبحر المتوسط بلادا صغيرة تقسم ذلك البحر إلى نصفين وتشقّ حافاته ما بين الشرق والغرب على السويّة، «تبارك اللّه أحسن الخالقين»!

وتلك البلاد الصغيرة هي «إفريقية» قديما أو «القطر التونسي» اليوم. فهذه المنزلة الطبيعيّة جعلت «تونس» من أوّل الدنيا مسلك الذاهبين، ومورد الوافدين، ونصبتها مطمحا لآمال الفاتحين.

لهذا السبب كان لتاريخ تونس أهميّة عظمى تتجلّى في أبهى منظر للبحث عن أخبارها، والتنقيب عن آثارها، فتلك الحقيقة الكبرى هي التي بحثنا - ومازلنا نبحث - عن كنهها، وربّما توفّقنا إلى بيانها بوجه عام ضمن هذه «الخلاصة» التي نقدّمها اليوم إلى النابتة التونسيّة خدمة للعلم ونشراً للتاريخ.

❊ ❊ ❊

لا جرم أن الإنسان مجبول بفطرته الغريزيّة على حبّ بلاده، والشغف بأخبارها، لاسيما إذا كان لوطنه مكانة في التاريخ ومجد مشاهد بين الأمم. فهذه العاطفة الطبيعيّة واحتياج ناشئتنا إلى مختصر في حوادث قطرهم، كانا الباعث القويّ على وضع هذه «الخلاصة» التي لم نقتصر فيها على سرد الوقائع وذكر السنين، بل بسطنا من القول ما أمكن في سير العلم والرقيّ ومظاهر الحضارة في كلّ عصر من العصور. كما عقدنا فصلا لتراجم النابغين في كلّ دور، سواء كانوا من المشتهرين في العلم والأدب، أو في السياسة والحرب، ممّا تكون الفائدة به أعمّ، والمنفعة أعظم. على أنّنا توخّينا طريقة الاختصار والإفادة، إذ كان مقصدنا إيقاف ناشئة مدارسنا التونسيّة على تاريخ بلادهم وترغيبهم في مطالعته.

وغاية المأمول أن تصادف خلاصتنا هذه المرمى الذي قصدناه، والنفع الذي أردناه، واللّه وليّنا عليه نتوكّل وإليه ننيب.

عبد الوهاب

تونس – ربيع الأنور 1336/ جانفي 1918

التعريف بتونس

البلاد التونسية واقعة في الشمال الغربي من القارّة الإفريقيّة، يحدّها شمالا وشرقا البحر المتوسّط وجنوبا ولاية طرابلس والصحراء الكبرى، وبلاد الجزائر، مساحتها تبلغ حوالي مائة وأربعة وستّين ألف كيلو متر مربّع[1].

وتنقسم البلاد التونسية إلى ثلاثة أقسام طبيعية:

أوّلا: جهة شماليّة، تتركّب من مزارع خصبة يمرّ على جانب كبير منها وادي مجردة.

ثانيا: الساحل، وهو يمتدّ من الناحية الشرقية على طول البحر، وهذا القسم يتألّف من أرض خصبة، غزيرة العمران، وافرة السكّان.

ثالثا: قسم جنوبي، يشتمل على سهول عظيمة ومراعٍ شاسعة وواحات نخيل تبتدئ منها الصحراء الكبرى.

وتربة البلاد التونسية مخصبة صالحة للفلاحة من زراعة وغراسة أشهر نتائجها: من الحبوب، القمح والشعير والذرة، ومن الأشجار المثمرة، الزيتون والنخيل والكروم وغالبة الفواكه التي تنبتها البلاد الواقعة على شواطئ البحر المتوسّط.

السكّان:

يبلغ عدد سكّان القطر التونسي حوالي تسعة ملايين ونصف نسمة[2]، يرجع أصلهم إلى عدّة عناصر أهمّها: البربر، وهم السكّان الأصليون، ثمّ فنيقيون فيونان فروم فعرب. وفي هذه العصور الأخيرة امتزج الشعب التونسي بمهاجري الأندلس والأتراك. ويوجد من الأوروبّيين فرنسيون وإيطاليون ومالطيون وأجناس أخرى مختلفة.

---

(1) في الأصل : 120.000 كم مربّع تقريباً (م).

(2) في الأصل : ثلاثة ملايين ونصف من النفوس تقريباً (م)

تقسيم تاريخ تونس:

ينقسم تاريخ تونس إلى أربعة أدوار وهي: 1) القرطاجني 2) الروماني 3) البيزنطي 4) الإسلامي. ويمكن تجزئة الدور الإسلامي إلى أربعة أدوار أيضا وهي: 1) العربي 2) العربي البربري 3) التركي 4) الحسيني.

الباب الأوّل

العصور القديمة

(من القرن الثامن قبل الميلاد إلى القرن السابع بعد الميلاد)

الفصل الأوّل
العهد القرطاجني [أو البوني]
(من سنة 814 ق.م إلى سنة 146 ق.م)

سكّان بلاد إفريقية الأصليّون : البربر

لم يخلّد التاريخ أثرا عظيما لأمم البربر التي كانت تقطن بلاد إفريقية قبل قدوم الفينيقيّين، سوى أنّنا نعلم أنّهم كانوا قبائل منتشرة في البلاد لا حضارة لهم، حياتهم على غاية من السذاجة. فمساكنهم الأكواخ والدواميس، واشتغالهم الصيد أو شيء من فلح الأرض وتربية المواشي.

وأوّل من عَرَف البربر هم قدماء المصريين في زمان الفراعنة. وكانوا يعرفونهم باسم «اللّبو» المشتقّ من نعت بلادهم «ليبيا» وذلك أنّ البربر كانوا في سنين الجدب يشنّون الغارة على ساحات وادي النيل الخصبة. وبهذه الوسيلة احتكّوا بالمدنيّة المصريّة واقتبسوا منها بعض أسباب الحضارة وشيئا من العقائد والتقاليد التي انتشرت من هنالك في الشمال الافريقي بأسره.

والبربر أو [الأمازيغ] عنصر قويّ البنية، موصوف بالجلد والصبر على مضاضة العيش. وقد قسّمهم العرب إلى فرعَيْن اثنَيْن عظيمَيْن هما: **البُتْر** و**البَرَانس**. وكلّ منهما يتجزّأ إلى قبائل وعشائر شتّى، مثل: **لواتة** القاطنين بأرض برقة ما يوالي مصر. و**هوّارة** المخيّمين بغرب طرابلس وبالقطر التونسي و**صنهاجة** و**زناتة** في بلاد الجزائر، وكذلك **كتامة** في جبال زواوة [القبائل] و**مكناسة** و**مصمودة** و**يفرن** و**هنتاتة** في المغرب الأقصى.

وللبربر لغة خاصّة تعرف بالبربريّة أو «الشلحة» لم يزل يتكلّم بها جانب كبير منهم لاسيما في جبال [القبائل] بالجزائر وفي بلاد السوس والصحراء وفي الريف من المغرب الأقصى.

أمّا في القطر التونسي فلم يبق لها أثر إلاّ في بعض الجهات الجنوبيّة مثل جزيرة جربة أو نواحي مطماطة [والدويرات في منطقة تطاوين]. وهي لغة تخاطب ولا تكتب إذ ليس لها حروف مستعملة الآن.

قـدوم الفنيقيّيـن وتأسـيس قرطاجنـة

قبل الميلاد بألف سنة تقريباً قدم بعض البحّـارة الفنيقيّين[1] مـن الشـام، وأسّسوا مراكز تجاريّة منها: أوتيكـة[2] وبـنزرت وسوسـة، وكـانت تسـمّى في القديم «حضرموت»[3].

أمّا مدينة قرطاجنة، فلا يُعلَم على وجه التحقيق متى وكيـف تأسّسـت. إنّما قيل إنّ أميرة فنيقية تُدْعَـى علّيسـه، هـاجرت مـن مدينـة صـور[4] ونزلـت بساحل إفريقية بمن كان معها، فاشترت من البربر ساحة عظيمـة اختطّـت بهـا قرية سمّاها الفنيقيون «قرت حدشت» (القرية الحديثة) أو قرطاجنة، وذلك سنة 880 ق.م[5] ولم تلبث قرطاجنة إلاّ قليلا حتى قويـت شـوكتها وسـادت علـى بقيّة المدن الفنيقية في إفريقية، وأخذ تجّارها وبحّارتها يمتـدّون وينشـئون المراكـز الجديدة مثل بجاية وشرشال بالجزائر وطنجة وسلا بالمغرب الأقصى.

حكومـة قرطاجنـة

كانت الهيئة الحاكمـة بقرطاجنـة أشـبه شـيء بجمهوريّـة يديـر شـؤونها مجلس متركّب من مائة عضو من أعيان التجّار برئاسة شيخَيْن يُجدَّد انتخابهمـا كلّ عام. وكان جلُّ اهتمام هذه الحكومة مُوَجَّهًـا نحـو توسـيع نطـاق التجـارة وإنفاذ البضائع وتنمية ثروة القرطـاجنّيين ليـس إلاّ. وبسـياسـتها هـذه ارتكبـت قرطاجنّة هفوتَيْن عظيمتيْن جدّا:

أوّلا : استخدامها جندا مأجوراً لا غيرة له في الدفاع عن الوطن [المرتزقة].
ثانيا: ظلمها لمن كان خاضعاً لها من البربر وتحميلها إيّاهم ضرائب فادحة.

فهذان السّببان كانا من أعظم الوسـائل لانقـراض ملكهـا، حيـث كـان رعاياهـا ينتهـزون الفـرص للخـروج عـن سـلطانها ومسـاعدة أعدائهـا علـى مقاومتها.

---

(1) **الفنيقيون**: أمّة سامية الأصل واللغة كـانت تقطـن سـواحل الشـام مـا بـين جبـل لبنـان والبحـر. وأشهر مدن المملكة الفنيقية صيدا وصور وطرابلس الشام وبيروت.

(2) **أوتيكة**: ويسمّيها ابن خلدون «وطاقة»، مدينة فنيقية كانت تقع في هنشير (الآن) ما بين بـنزرت وقلعـة الأندلـس، ولعـلّ اسمهـا الحقيقـي (باللغـة الفنيقيـة) «عتيقـة» بالنسـبة إلى «قرطاجنـة» (المدينـة الحديثة).

(3) دخل الفنيقيّون غربي البحر الأبيض المتوسّط في نهاية الألفية الثانية قبل الميلاد وأسّسوا هناك عدّة مراكز ومصارف لتساعدهم على تعاطي التجارة. وفي نهاية القرن التاسع قبل المسيح أسّس الفنيقيـون قرطاجنة (أو قرطاج) التي توسّعت وتحوّلت فيما بعد إلى مدينة هامّة سرعان مـا أصبحـت مـن أعظـم القوى في الحوض الغربي من البحر المتوسّط (م).

(4) **صور**: مدينة في لبنان من أكبر عواصم فنيقيا اشتهرت بالتجارة والصناعة.

(5) من المتعارف عليه أن قرطاجنة قد تأسّست سنة 814 ق.م (م).

الحضـــارة القرطاجنيّـــة

الفنيقيّون على الإطـلاق أمّـة بحريّـة تجاريّـة، ولهـذا لم يشـتهروا بحضـارة شامخة ولا بمدنيّة فنيّة كبيرة، بـل كـانت عنـايتهم كلّهـا منصرفـة إلى مـا ينمّـي الثروة مثل التجارة والصناعـة، إلاّ مـا يقـال عـن اهتمـامهم بالفلاحـة وغراسـة الأشجار وحفر الآبار. ولا يُسْتَبْعَد أن يكونـوا هـم الذيـن جلبـوا الزيتـون مـن الشام. وعنهم اشتهرت غراسته بالشمال الإفريقي وفي إسبانيا، وقد تـرك أحَـدُ علمائهم وهو ماجون، تأليفا كبيرَ الفائدة في علم الزراعة، ترجمه الرومـان فيمـا بعد إلى لغتهم وانتفعوا به كثيراً.

وفي أواسط القرن الثـالث قبـل الميـلاد وصلـت مدنيّـة قرطاجنـة أقصـى درجة في العمران والغنى وقد ساعدها على ذلـك موقعهـا الطبيعـي ومرسـاها المنيـع، فكـانت تتدفّـق بأصحـاب المتـاجر المختلفـة وأربـاب الحـرف والبحّـارة الماهرين، وكانت أسواقها مشحونة بأنواع البضائع التي تصنع فيها أو الـتي تـرد عليهـا مـن العـالم القديـم أجمـع، إذ كـانت قرطاجنـة محـطّ رحـال الاتّجـار والاحتكار، ولم يقتصر القرطاجنيّون علـى عـاصمتهم هـذه، بـل إنّهـم أنشـأوا مسـتودعات معتـبرة للمبادلـة بسـواحل البحـر المتوسّـط في إسـبانيا وصقليـة وغالية[1]. ومن جهة أخرى كانت قوافلهم تخطّـط الصحـراء الكـبرى وتقصـد بلاد السودان لجلب الرقيق والعاج والتبر وغير ذلك من ثمين الموادّ، حتى لُقِّبَتْ قرطاجنة بملكة إفريقيا.

الديانـــة

كـان القرطـاجنيّون يعتقـدون كبقيّـة الأمـم القديمـة في أربـاب متعـدّدة يمثّلونها بأوثان يقيمون لعبادتها الهياكل العظيمة، فمن أشهر الآلهة الفنيقيّة **بعـل** وهو كبيرهم و**أشمون** و**تانيت** و**ملك أرت**[2]، وكانوا ينـذرون لآلهتهـم النـذور ويستخيرونها في المهمّات وربما كانوا يتقرّبون إليها بالضحايا البشريّة، فيعـدّون لذلك احتفالات ضخمة في أوقات مُعَيَّنَة.

---

(1) غالية (la Gaule) هو اسم فرنسا في القديم، نسبة إلى سكّانها الأوائل: (les Gaulois).

(2) كان القرطاجنيّون يعبدون مجموعة من الآلهة من أشهرها **بعل حمّون** كبير الآلهة وقرينته **تانيت**، رمز الخصوبة والازدهار و**عشتريت** رمز البحر.

وإلى جانب هذه الآلهة الثلاثة الكبار كان البونيّون يعبدون آلهة أخرى مثل: **أشمون** إله العافية و**ملقرت**، حامي المشاريع البحرية، و**ديمترة** إلهة الزراعة (م).

٦٥١٦١٧
نص

التعريف بالبربر

«البربر جيل من الآدميّين، سُكّان المغرب على القدم، ملأوا البسائط والجبال من تُلوله وأريافه وضواحيه وأمصاره، يتّخذون البيوت من الحجارة والطين، ومن الخصاص والشجر، ومن الأشعار والأوبار، ويَضْعَنُ أهلُ العزّ منهم والغلب لانتجاع المراعي فيما قرب من الرحلة، لا يتجاوزون فيها الريف إلى الصحراء والقفر الأملس، ومكاسبهم الشاه والبقر، والخيل في الغالب للركوب والنتاج، وربما كانت الإبل من مكاسب أهل النجعة منهم، شأن العرب.

ومعاش المستضعفين منهم في الفلح ودواجن السائمة، ومعاشر المحتزّين من أهل الانتجاع والإضعان في نتاج الإبل، وظلال الرماح وقطع السابلة. وأكثر أثاثهم من الصوف، ويشتملون الصماء بالأكسية المعلمة، ويفرغون عليها البرانس الكحل. ورؤوسهم في الغالب حاسرة، وربّما يتعاهدونها بالحلق، ولغتهم «الشلحة» من الرطانة الأعجميّة متميّزة بنوعها وهي التي اختصّوا لأجلها بهذا الاسم.

والبربر قبائل كثيرة وشعوب جمّة وهي: هوّارة وزناتة وضريسه ونفزة وكتامة ولواتة وغُمَارة ومصمودة وصنهاجة.

وما كان للبربر من الآثار ما يشهد أخباره كلّها بأنّه جيل عزيز على الأيّام، وأنّهم قوم مرهوب جانبهم، شديد بأسهم، كثير جمعهم، مضاهون لأمم العالم وأجياله من العرب والفرس والروم».

من تاريخ ابن خلدون

الفصل الثاني
الصراع بين رومة وقرطاجنة
الحروب الفنيقيّة [أو البونيّة]

ما هي الحروب البونيّة

أطلق المؤرّخون هذا الاسم على ثلاث حروب كبيرة دارت بين القرطاجنيّين والرومان ودامت ما يزيد على القرن، من سنة 264 إلى سنة 146 ق.م. وآلت إلى سقوط قرطاجنة واستيلاء رومة على إفريقية. أمّا سبب هذه العداوة فهو انتشار نفوذ قرطاجنة في البحر المتوسط وظهور السلطة الرومانية في جنوب إيطاليا.

فالوقائع الحربيّة الأولى كانت تدور في صقلية حيث التقى الجيشان في مليس سنة 260 ق.م ثمّ في بايكنوم سنة 256 ق.م. وكان النصر فيها للرومان، فتشجّعوا بهذه الانتصارات وبعثوا بجيش إلى إفريقيّة حيث لم يتمّ لهم الأمر، إذ وقع قائدهم روغلوس وجنده بين أيدي القرطاجنيّين وقُتِلوا تقتيلاً سنة 255 ق.م. ثمّ تجدّدت الحرب بينهما ثانياً بصقليّة، وهي مثار النزاع ورغماً عمّا أبداه القائد الشجاع عملقار[1] من البسالة والمهارة، لم يسع قرطاجنة إلاّ الرّكون إلى الصلح والتسليم في صقلية لعدوّها سنة 241 ق.م[2].

ثورة الجند

لم تكد تضع الحرب البونية الأولى أوزارها حتى تهدّد قرطاجنة خطر آخر، وهو ثوران جندها المأجور لسوء معاملتها إيّاه. فإنّه تمكّن من حصارها وكادت الأمور تنفصم لوما تقدّم عملقار لكبح جماح الثائرين، فألجأهم بعد مصادمات عنيفة إلى مضيق عظيم قرب تونس يعرف في الوقت الحاضر باسم «خنقة الحجاج» وهناك حاصرهم وقطع مواصلاتهم حتى هلكوا عن آخرهم جوعاً وعطشاً وضرباً بالسيف، وكانوا أربعين ألفا أو يزيدون.

---

(1) ويسمّى في اللغة البونيّة «عبد ملقرط» (م).

(2) تضمّنت معاهدة السلم شروطا مجحفة منها بالخصوص:
- الانسحاب التام عن صقلية.
- تسديد غرامة مالية باهظة لمدة عشر سنوات.
- الالتزام بعدم محاربة ملك سرقوسة (بصقلية) وحلفائه (م).

الحرب البونيّة الثانية (من سنة 218 إلى سنة 201 ق.م)

عقب هذا الانتصار على الثائرين حاول عملقار إدخال بعض الإصلاحات على نظام الحكم في قرطاجنة، منها تخفيف الوطأة على البربر. لكن لم تساعده الأُسر المهيمنة، وذوو الحيثيّات، خشية أن تنقلب سمعته إلى سلطة فعليّة مستبدّة وفكّروا في إبعاده عن العاصمة فعيّنوه لفتح إسبانيا.

كانت العادة في قرطاجنة أن تقدّم الضحايا للآلهة قبل مبارحة الجيش للبلاد، فقيل إنّ عملقار، بعد تقديم الضحايا للأرباب، استخلف ابنه حنّبعل على أن يكون عدوّا ألدّا للرومان، ثمّ توجّه إلى إسبانيا وهناك ألّف جيشا عتيدا لمصارعة رومة. وقضى عملقار نحبه قبل أن يحارب الرومان ثانيا، فخلفه في قيادة الجند ابنه حنّبعل.

انتصار حنّبعل

أعلن حنّبعل الحرب على الرومان باستيلائه على مدينة صغولت[1] التي كانت خاضعة لهم، دون أن يستشير قرطاجنة. ثمّ تقدّم فاجتاز جبال البرينات[2] ودخل غالية، وقد انضمّ إليه كثير من أهلها وقطع جبال الألب[3] بعد مشاقّ وصعوبات لا تحصى، هلك بسببها قسم عظيم من جيشه وفِيَلَتِه.

التقى حنّبعل بالرّومان في عدّة وقائع شهيرة أهمّها معركة كانا في الجنوب الشرقي من إيطاليا كانت الدائرة فيها على الرومان، إذ قُتِل منهم ما يربو على 70.000 مقاتل سنة 216 ق.م. واستمرّ النصر حليفا لحنّبعل حتى كاد يقضي على رومة بالاستيلاء عليها، لولا تناقص رجاله وتقاعس دولته عن إمداده بالمال والعساكر. وأقام حنّبعل في جنوب إيطاليا مدّة يمرّ ويغدو إلى أن نزل جيش روماني في إفريقية تحت قيادة شبيون الأكبر، وأخذ يهدّد قرطاجنة ذاتها. فاضطرّ حينئذ حنّبعل إلى ملاحقة عدوّه وركب البحر متوجّهاً إلى إفريقيّة حيث قاتل الرومان الذين انضمّ إليهم فرسان البربر في جامة[4]. فانهزمت عساكر قرطاجنة شرّ هزيمة سنة 202 ق.م.

---

(1) هاجم حنّبعل سنة 219 ق.م مدينة صَاغنتوم الواقعة شمال الأراضي التابعة لقرطاجنة في شبه الجزيرة الإيبيرية (م).

(2) فضّل حنبعل الهجوم على رومة عن طريق البرّ، انطلاقا من شبه الجزيرة الإيبيرية، اعتقاداً منه أنّ ميزان القوى في البحر لم يكن في صالح قرطاجنة (م). أمّا «البرينات» فهي سلسلة جبال فاصلة بين إسبانيا وفرنسا.

(3) **الألب** سلسلة جبال مرتفعة جدا تفصل بين فرنسا وإيطاليا.

(4) **جامة** : قرية قرب مدينة الكاف ويسمّيها الرومان «زاما».

وانتهت الحرب البونيّة الثانية بتنازل قرطاجنة عن كلّ ما تملكه خارج إفريقيّة، وبتسليم سفنها وفِيَلتها ودفع غرامة حربيّة تبلغ ما يساوي 50 مليونا فرنكا ذهباً، والتزمت بأن لا تشهر حرباً على البربر إلاّ بعد الاستئذان من رومة.

أمّا حنّبعل فإنّه رجع إلى قرطاجنّة وحاول إصلاح الجند، فلم ينجح واضطرّ إلى مفارقة بلاده باقتراح من الرومان، وتوفّي مسموماً في مدينة أنطاكيا ببلاد الشام سنة 183 ق.م.

ويُعَدّ هذا القائد من أشهر رجال الحرب وأعظمهم شأناً، بما أظهره من الغيرة الوطنيّة والمهارة الحربيّة طوال مقاومته لأعداء بلاده، حتى كانت هذه الحرب في الحقيقة مصارعة بين حنّبعل والمملكة الرومانيّة التي كانت إذ ذاك أقوى الممالك وأقدرها، مع أنّ الحكومة القرطاجنيّة مُعْرِضَة عنه.

الحرب البونية الثالثة (من 149 إلى 146 ق.م)

على إثر واقعة جامة الشنعاء، انتهز البربر فرصة ضعف قرطاجنة لإظهار ما تكنّه صدورهم من البغضاء لهذه الحكومة التي لم تحسن معاملة رعاياها حتى سئموا من استيلائها عليهم، فأخذوا يهدّدون سلطتها ويشنّون عليها الغارات المتتالية. وكان في مقدمة هؤلاء البربر زعماء أشدّهم بأساً ماسنيسا أمير نوميديا[1]. ولم يفد قرطاجنة شكاويها العديدة للجمهوريّة الرومانيّة حامية البربر، بل كانت تساعدهم خفية على إيقاع الثورة وإحداث الهرج ضدّ عدوّتها. وفي آخر الأمر أرسلت رومة أحد ساستها وهو قاطون للبحث عن أحوال إفريقية. فلمّا رجع أخذ يعدّد للمجلس الروماني ثروة قرطاجنة واستعدادها الحربي، وختم خطابه بالكلمة التي ذهبت مثلا: «لابدّ من تخريب قرطاجنة»[2].

تخريب قرطاجنة

وبالفعل أشهرت رومة الحرب على قرطاجنة سنة 149 ق.م. ووجّهت جيشا جرّارا بقيادة شيبيون الأصغر المعروف بالإفريقي.

---

(1) **نوميديا** : اسم أطلقه الرومان على جميع القسم الشرقي من بلاد الجزائر الآن، والقسم الشرقي من البلاد التونسية واسم ماسنيسا هو تحريف لإسم ماكسن البربري (م).

(2) ومن ذلك الحين صارت هذه الجملة مثلاً عند الرومان. وعبارتها باللغة اللاتينية «Dalenda Cartago». (م)

فركن القرطاجنيّون أوّلا إلى الصلح وقبلوا جميع الشروط مع كونها قاسية عليهم، فسلّموا أسلحتهم وسفائن أسطولهم، لكن لما رأوا عزم الرومان على إتلافهم تحزّبوا لتدارك ما فات، فحصّنوا مدينتهم من جديد وبذلوا كلّ غال ونفيس في الدفاع عنها حتى قيل إنّ النّساء قطعن شعورهن وجعلناها حبالًا للمراكب ومراسن للسفن. وتقدّم الرومان وحاصروا قرطاجنة وقطعوا مواصلاتها من كلّ الجهات، ولم يُغْنِ عنها جيشها الملتفّ حول قائده صدربعل. واستمرّ هذا الحصار نحو السنة قاسى فيها القرطاجنيّون آلام الجوع والوباء بأنواعها حتّى إذا كانت سنة 146 ق.م. حمل الرومان على المدينة وأخذوها عنوةً بعد قتال ذريع هلك فيه سكّانها ثمّ خرّبوا معالمها ودمّروا ساحتها وتركوها أثراً بعد عَيْن.

أسباب سقوط قرطاجنة

لقد سقطت دولة قرطاجنّة بعد أن دامت أكثر من ستمائة عام. وسبب ذلك، كما بيّناه، هو سوء معاملتها للعنصر الأهلي، وانقسام رجال حكومتها إلى أحزاب متنافرة، مع عدم اتّخاذها جيشا وطنيّا يذبّ عن حوزة البلاد بغيرة وحميّة.

حنّبعل

وُلِدَ حنّبعل بقرطاجنة سنة 247 ق.م. وانخرط منذ نعومة أظفاره في الجند تحت راية أبيه عملقار، ورافقه في المعارك والغزوات. فاكتسب منه صفاته الحربيّة، أي البسالة والإقدام والتجلّد، حتى ترشّح لقيادة جيش قرطاجنة وهو لم يتجاوز سنّ السادسة والعشرين، فأظهر من الحماس والغيرة والوفاء بوعده من مقاومة الرومان ما استوجب له وقار أعدائه واعتبار أصدقائه. وقد فاز حنّبعل بخصلتَيْن عظيمتَيْن لم تجتمعا في فؤاد غيره وهما: الطاعة والإمرة.

فكان مع إقدامه العجيب ومكابدته الأخطار محافظا على الثبات والتجلّد بحيث لا يشقّ عليه عمل أو يُثنِي عزمه خوف ولا يعييه حرّ ولا قرّ، بل هما لديه سيان، ولا يأكل من الطعام إلاّ بعض ما يسدّ الرمق، ولا يتقيّد في نومه بليل أو بنهار، فهو ينام ويستيقظ حسب الضرورة. على أنّه لم يعرف قطّ فرشا لَيّنا للاضطجاع، فكم مرّة انطرح بدروعه الحربيّة بين صفوف مقدّمة جيشه، و لم يكنْ له لباس فاخر يميّزه على بقيّة جنده، بل جلّ عنايته كان بفرسه وسلاحه.

أمّا في ساحة القتال، فكان حنّبعل أشجع رجاله وأقواهم غلى مداومة الكفاح، فإنّه أوّل من يتقدّم للطعن وآخر من يبقى بميدان الوغى.

فبهذه الصفات العالية والخصال الحميدة استولى حنّبعل على قلوب الجيش التي استبذل بها أعداء وطنه زمنا طويلا وعُدَّ أكبر قائد في العصور القديمة.

الفصل الثالث

الاستيلاء الروماني

(من سنة 146 ق.م إلى سنة 439 م)

إعادة بناء قرطاجنة

أسّس الرومان على أطلال قرطاجنة البونيّة مدينة عظيمة عرفت باسمها الأوّل وصارت قاعدة المستعمرة الجديدة.

وقد قسّم الرومان هذه المستعمرة إلى قسمَيْن كبيرَيْن: الأوّل هي **أفريكا** وتشتمل على الناحية الشماليّة من البلاد التونسيّة الآن، ثمّ **نوميديا**، وهي الجهات الوسطى والجنوبية من القطر التونسي وعمالة قسنطينة. فالقسم الأوّل **أفريكا** كان تحت السلطة الرومانيّة مباشرة، والولاية الثانية **نوميديا** وزّعتها بين أمراء من البربر وضعتهم تحت حمايتها.

يُوغُرطة

وأشهر هؤلاء الأمراء زعيم بربري يُسمّى يوغرطة. فإنه بعد أن تغلّب على الرؤساء أجواره شقّ عصا الطاعة في وجه الرومان وحارب جيوشهم وانتصر عليهم. ثمّ عادت الكرّة فالتجأ يوغرطة أخيراً إلى بعض أقاربه بالمغرب، فخشي هذا من بطش الرومان وسلّم الزعيم إلى جمهوريّة رومة فسجنته إلى أن مات جوعا سنة 106 ق.م.

وقد كان يوغرطة شجاعا، عاقلا، صرف سعيه مدّة استيلائه على نوميديا في إنهاض قومه عن طريق العمل بترقية الفلاحة وتعمير بلاده الممتدّة من بجاية إلى قابس.

إلحاق بقيّة أفريكا

وبوفاة هذا الأمير ألحق الرومان كامل البلاد التونسية بمستعمرتهم أفريكا، وتركوا نوميديا بأيدي رؤساء من البربر خاضعين لحمايتهم.

وأعقبت ذلك قلاقل وفتن في أفريكا نشأت بسبب الانقلابات السياسية التي شهدتها رومة حيث سقطت الجمهوريّة وانتصبت دولة القياصرة مكانها (في سنة 31 ق.م) و لم تعد الراحة إلى قرارها إلاّ باستيلاء القيصر أوغسطوس على الحكم [27 ق.م – 14 م]، فاجتهد حينئذ في إصلاح حالة إفريقية وجلب إليها عددا وافرا من المعمّرين الرومانيين، ومن أصالة رأيه أن عيّن على رأس نوميديا أميرا أهليّا يُدعى يوبا الثاني.

يوبـا الثـاني

هذا الأمير من أبناء البربر الأهليّين، تلقّى في صغره العلوم بمدينة رومة وزاولها حتى صار عالما بآداب الرومان، وتخلّق بأخلاقهم. وكان يوبا عاقلا بصيرا بشؤون الإمارة، وألّف كتبا قيّمة في مواضيع مختلفة، منها كتاب في تاريخ الرومان، وجغرافية إفريقية وجزيرة العرب، وكتاب في فنّ التمثيل والموسيقى وغير ذلك من الفنون المستظرفة الشائعة عند اليونان والرومان. وتوفّي يوبا الثاني سنة 22 ب.م. وضريحه يُعرَف اليوم بقبر الروميّة قرب شرشال بعمالة قسنطينة.

نظـام الحمايـة الرومانيّـة

عيّن الرومان حاكما على إفريقية بصفة مقيم عام يدعى «بروقنصل» مقرّه قرطاجنة ولهذا الوالي النظر الأعلى في شؤون إدارة البلاد وجندها. وكان الجيش الروماني بأفريكا لا يتجاوز 30,000 من العساكر منهم 6,000 من الرومان والبقيّة من البربر وغيرهم موزّعين على مراكز حربيّة منتظمة.

أمّا الإدارة المدنية للبلاد فكانت بأيدي عُمّال ومشائخ من الأهالي، تحت مراقبة مأمورين من الرّومان يرجِع نظرهم إلى الوالي. وكان في كلّ مدينة كبيرة مجلس بلدي يدير شؤونها، يُنتخَب أعضاؤه من أعيان الرومان وأغنياء التجّار الأجانب.

فما أشبه حكومة الرومان عهدئذ في أفريكا، بحكومة الحماية الفرنسيّة في البلاد التونسية [1881 – 1956]، والتاريخ يعيد نفسه.

الاسـتعمار الرومـاني

قدّمنا أنّ الإمبراطور أوغسطوس كان أوّل من سعى في توطيد الاستعمار الروماني، فإنّه أوفد إلى إفريقية 3000 شخص من قدماء العساكر الرومانيّين، أقطعهم أراضي غالبها مغتصب من الأهالي، بقصد استعمارها واستثمارها. ومن ذلك العهد أخذ مهاجرو الرومان يتوافدون على البلاد زرافاتٍ ووحداناً حتى عمرت بهم. وكان المحرّض لهم في الحقيقة على الاستيطان هو اعتناء الحكومة بشأنهم، ومدّهم بالمساعدات الكبيرة، مثل إقطاعهم الأراضي الشاسعة وجلب المياه إليها من العيون البعيدة. وكان جلّ هؤلاء المستعمرين يستثمرون أطيانهم بأيدي الأرقّاء والأهالي، مقابل منحهم ما يستخرجونه من نتائجها. وربّما منح الرومان قسما من الأراضي للبربر على خراج يؤدّونه للحكومة.

والحقيقة أنّ الرومان اعتنوا كثيراً في القرنين الأوّلين بعد الميلاد بتحسين وسائل الفلاحة. فإنّهم أنشأوا القنوات وأقاموا عدّة حنايا، أهمّها حنايا قرطاجنّة[1]. كما إنهم اهتمّوا بالريّ فحفروا الآبار العميقة، وادّخروا مياه المطر والسيول في المواجل والصهاريج للانتفاع بها في الصيف، إلى غير ذلك من الأشغال الهامّة المفيدة لبلاد فلاحية خالصة.

الطرقـــات

بما أنّ عمارات فلاحيّة معتبرة ومُدُن آهلة متجاورة كانت في حاجة إلى مواصلات لتسهيل نقل ما تنتجه من المواد الزراعية، فقد أنشأت الحماية الرومانية طرقات عموميّة خطّطت الولاية طولا وعرضا. ومن بين هذه الطرقات، كانت توجد جادّة فسيحة تنطلق من قرطاجنة وتنتهي إلى تبسّة. وتنطلق جادّة أخرى من بُونة (عنابة) وتنتهي إلى طرابلس الغرب، بعد أن تمرّ على غالب الساحل التونسي. ومازالت لهذه الطرقات آثار ماثلة للعيان إلى الآن.

العمـــران الرومـــاني

وعلاوة على اعتناء الرومان بوسائل الزراعة والريّ والمواصلات فقد أنشأوا عددا كبيرا من المدن الكبيرة، أقاموا فيها من المعالم الجليلة والهياكل الجميلة ما يندهش كلّ واقف على آثارها المنتشرة بأنحاء القطر من الشمال إلى حدود الصحراء. كيف لا وقد بلغ عدد سكّان إفريقية في العهد الروماني فيما يُرْوى إلى أربعة ملايين نسمة. وارتفع عدد سكّان قرطاجنّة التي خُرِّبت، كما أسلفنا، إلى 500.000 نسمة. أمّا المدن الثانويّة مثل: أوذنة[2] ودقّة[3] والجمّ[4] ومكثر وغيرها، فكان عدد سكّانها يتراوح بين ثلاثين وأربعين ألف نسمة. وقد شيّد الرومان بكلّ مدينة من هذه المدن مسارح وملاعب لتمثيل الروايات

---

(1) المعروفة عندنا اليوم باسم «حنايا أقرش» قرب منّوبة. وكانت تمتدّ على مسافة 90 كم حيث تأتي بمياه عين زغوان إلى قرطاجنة.

(2) **أوذنة** : قرية على مسافة 26 كم من تونس على الطريق الرابطة بين تونس وسوسة.

(3) **ڈقة** : قرية قرب تبرسق تقع على الطريق الرابطة بين تونس والكاف، ولكنّ الرومان يسمّونها : توقة.

(4) **الجمّ** : واسمها الروماني «توسدروس» مدينة صغيرة بناحية المهدية واقعة في نصف الطريق بين سوسة وصفاقس، أشهر ما فيها من المعالم ملعب لمصارعة الحيوان قيل إن القيصر هدريانوس أمر ببناء القصر عند زيارته لإفريقية سنة 25م، وطول هذا الملعب 150 م وعرضه 125م وارتفاعه 36 مترا، وهو من أكبر المراسح الرومانية الموجودة في العالم، ومازال هذا البناء المشمخر قائم الذات يقصده السوّاح من جميع الآفاق.

وأخرى لمصارعة الحيوان، ومعابد نصِبَت فيها تماثيل آلهتهم وقصور وحمّامات عموميّة، وهلمّ جرّا، من المعالم الشامخة الدالّة على عمران راسخ وتمدّن باهر.

تشبّه البربر بالرومان

لمّا تمكّن الرومان من امتلاك البلاد وإدخال وسائل العمران بها، سارع كثير من السكّان البربر إلى التمسّك بعادات الغالب وتقليده في ديانته وأخلاقه وتعلّم لغته. فاندمجوا رويداً رويداً في العنصر المتغلّب وصاروا كالقطعة منه. وقد وصل بعضهم إلى أسمى المراتب وتقلّب في أعلى الوظائف الدوليّة، فإن أحدهم وهو سبتميوس سيفاروس[1] اعتلى عرش الإمبراطورية الرومانية بانتخاب الجند[2]، [193 - 211 م].

إلاّ أنّ الرومان غفلوا مدّة انتصابهم عن أمر مهمّ جدّا وهو إخضاع بعض القبائل البربريّة التي انحازت إلى الجبال المنيعة وحافظت على شعائرها القوميّة ولغتها وعاداتها. فلم يكن للمتغلّب تأثير عليها. ومن هذه القبائل انبعثت الثورات العديدة في وجه الرومان، فكانت إحدى العوامل العظمى في سقوط سلطنتهم، إذ بتعاقب الأيام وظهور الضعف في الدولة الحامية تسنّى للعنصر البربري مقاومتها ونكث عهدها كلّما سنحت لهم الفرص بذلك[3].

انتشار الديانة المسيحية

ظهرت الديانة المسيحيّة بمملكة الرومان في أوّل عهد القياصرة[4]، وكان الرومان، كبقيّة الأمم القديمة يعبدون عدّة آلهة وأرباب يمثلونها بأصنام في صور

---

(1) وُلِد هذا الإمبراطور البربري الأصل في مدينة لمطة على الساحل الإفريقي، وتولّى الامبراطورية الرومانية اعتبارا من سنة 193 م ومات محاربا بانجلترا سنة 211 م فخلفه ابنه. وقد كان عالما بعدّة فنون، واجتهد كثيرا في مدّته برفع شأن بلاده إفريقية.

(2) كما تألّق عدد كبير من المثقفين الإفريقيين في ميدان الفكر والأدب والقانون، بفضل تراثهم الحضاري وتفتحهم على الثقافة الرومانية. فقد سطع نجم الحقوقي الضليع والمشرّع الكبير **سالويوس** الذي دوّن «المرسوم الأزلي»، بطلب من الإمبراطور هدريانوس. وذاع صيت الأديب **أبوليوس**. ولما ظهرت المسيحيّة، بدع **ترتوليانوس** وغيره من الأدباء الإفريقيين في تأليف كتب للدفاع عن الدين المسيحي. وفي مستهل القرن الخامس من الميلاد، ظهر نبوغ المفكر الإفريقي الكبير **أوغستينوس** الذي مازال الفكر المسيحي يدين له بتألّقه (م).

(3) ونظير هذا في تاريخ الإسلام، تلك الزلّة السياسيّة التي ارتكبها الفاتحون المسلمون في الأندلس، حين تهاونوا بأمر الملتجئين زمن الفتح إلى أعلى جبال أشتورية وقد أسّس الإفرنج هنالك مُلْكًا حصينا انحدروا منه إلى السهول التي كانت بأيدي المسلمين، فافتكوها شيئا فشيئا إلى أن زحزحوهم من مكانهم، وفي الآخر أطردوهم من عموم الجزيرة. وبذلك زال ملك المسلمين من الأندلس، ﴿ سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾.

(4) وُلِد عيسى عليه السلام في بيت المقدس في عهد الإمبراطور أوغسطونوس. وقد اتّخذ الإفرنج سنة ولادته مبتدأً لتدوين التاريخ، فيقال قبل الميلاد بكذا، وبعد الميلاد بكذا.

الآدميّين، ويشيّدون لها الهياكل العظيمة والمعابد المزخرفة. فلمّا جاءت النصرانيّة وانتشرت بسرعة بين طبقات الأمّة خصوصا السفلى منها، لاحتوائها على مبادئ المساواة والعدالة بين البشر، تخوّف رجال الحكومة الرومانيّة من تأثيرها في النفوس واعتبروها خطرا يهدّد سلطتهم، فقاوموها بكلّ شدّة وصرامة، وضايقوا على الداخلين فيها وشدّدوا عليهم العقاب، حتّى كانوا يصلبونهم ويلقونهم إلى الحيوانات الضارية. ولم يَزِدْ هذا الضغط إلاّ قوّة تمسّك من المسيحيّين وشدّة اضطهاد من القياصرة، فنشأت عن ذلك فتن داخلية وقلاقل متتابعة بأنحاء البلاد الرومانيّة ومستعمراتها. ولم تتأيّد الديانة المسيحيّة إلاّ في سنة 330 ب.م بمساعي الإمبراطور قسطنطين الأكبر.

اضطراب الأحوال

غير أنّ المسيحيّين أنفسهم كانوا منقسمين إلى فرق ومذاهب متنافرة متباغضة. فنشأ عن تنازعهم اضطراب تكدّر به صفو الدولة الرومانية. وكان لهذا الاضطراب رنّة شديدة بإفريقية، لأنّ كثيرين من البربر اعتنقوا الديانة الجديدة بدعوة من الرهبان المبشّرين. ثمّ ارتدّوا وعادوا ثانية وتكرّر منهم ذلك مراراً. ويلوح أن تنصّر البربر كان عن قصد، لأنّهم رأوا في ذلك وسيلة للتخلّص من سلطة الرومان. وبالفعل فإنهم ساعدوا بجهودهم تلك الخلافات المذهبية التي آلت في النهاية إلى ارتباك أمور إفريقية وانقلبت المسألة من دينيّة إلى سياسيّة، إذ انتهز البربر الفرصة للمطالبة باستقلالهم.

سقوط السلطة الرومانية في إفريقية

كانت نتيجة هذه القلاقل اختلال أمور الرومان بمستعمراتهم وضعف نفوذ حكامهم، حتّى أن أحد ولاتهم على إفريقية الكونت بونيفاس أنف من البقاء على الطاعة لوحشة جرت بينه وبين بعض رجال رومة، فشقّ عصا الطاعة في وجه الحكومة سنة 427 ب.م واستنجد بالوندال المتخلّين عهدئذ على إسبانيا، فكان قدومهم الضربة القاضية على ملك الرومان في إفريقية وسقوط السلطة الرومانية سنة 439.

الفصل الرابع

استيلاء الوندال

(من سنة 439 إلى سنة 534 م)

الوندال

الوندال (أو الفندال) أمّة جرمانية الأصل زحفت في القرن الرابع بعد ميلاد المسيح على إسبانيا واستقرّت بها وأنشأت لها هناك ملكا وطيدا[1].

فحينما استنجد الكونت بونيفاس بالوندال، اجتاز مَلِكُهُم جنسريق من إسبانيا إلى المغرب الأقصى في جيش كثيف من قومه وثب به على إفريقية وحاصر مدنها الشهيرة الواحدة بعد الأخرى إلى أن دخلت تحت طاعته جميعاً. وكان امتلاكه لقرطاجنة قاعدة البلاد سنة 439 م. وقد ندم بونيفاس على خيانته و لم يسعه إلاّ الفرار أمام الوندال المغيرين. وبذلك تمّ الأمر لجنسريق ولعقبه من بعده حيث أسّسوا بإفريقية مملكة مستقلّة دامت نحو المائة عام.

فتوحات الوندال

و لم يقف الوندال على حدّ إفريقية بل جهّزوا جيوشا جرّارة غالبها من البربر، وأنشأوا بقرطاجنة أسطولا ضخما هاجموا به جُزُر البحر المتوسّط وسواحله، فاستولوا على معظمها، ثمّ التفتوا إلى رومة فدخلوها عنوة سنة 455 م وأطلقوا أيدي جيوشهم في ذخائرها النفيسة، ودام النهب نصف شهر ورجع جنسريق عقب ذلك غانمًا مُكلّلا بالنصر. وتوفّي سنة 477 م في قرطاجنة فتداول على الحكم من بعده أبناؤه، كما سنوضّحه.

سلوك الوندال مع البربر

سلك جنسريق مع البربر سياسة اللّطف والمجاملة، فاستمال قلوب الأهالي وحشد منهم جانبا عظيما في عساكره، فكانوا أكبر مساعد له على الفتك بالرومان والنزول ببلادهم. وقد عبث الوندال في مدّتهم بالأنظمة الرومانية الباقية في إفريقية، وبذلك قضوا على استعمار الرومان.

---

(1) وقد سُمّيت من حينئذ هذه المملكة «أندلوسيا» (Andalousie) وهي جزيرة الأندلس التي امتلكها المسلمون مدة ثمانية قرون.

واقتفى هنريق ابن جنسريق أثر والده في هذا السلوك. فقد قبض على 5000 من رهبان الكاثوليك وشرّدهم في الصحراء بعد أن اغتصب أموالهم وكنائسهم سنة 483 م. وكانت أمّة الوندال متمسّكة بمذهب مسيحي مغاير لمذهب الكاثوليك الذي تتبعه كنيسة رومة.

وبالجملة فإنّ ملوك الوندال اجتهدوا من جهة في محو الاستعمار الروماني من إفريقية ومكافحة رجال الدين الكاثوليكي، ومن جهة أخرى استمالوا البربر إليهم برفع المظالم والاستبداد عنهم بما أحيى في هؤلاء الشعور الذاتي والمطامح القومية.

انحطاط الوندال

شيّد الوندال ملكهم على إفريقية وغيرها من الممالك بقوّة جيوشهم وبسالة رجالهم، إذ بهم دوّخ جنسريق وابنه هنريق نواحي البحر المتوسّط وأخضعوا الأمم التي كانت في قبضة الرومان من قبل، وقد حاولوا في مدّتهم إيجاد نظام عقاري يسمح للأهليّين بامتلاك الأراضي الشاسعة التي اغتصبها الرومان من أربابها البربر.

لكن حلفاء هذين الملكَيْن فرّطوا في التحفّظ على الجيش وتشاغلوا عنه بركونهم إلى الملاهي والطرب وميلهم إلى الشهوات والملذّات، فأصابهم من الانحطاط ما أصاب ولاة الرومان في آخر دولتهم، وانجرّ عن هذا التقاعس تطاول البربر على سلطة الوندال وإعلانهم الاستقلال في الجهات الجنوبيّة من إفريقية ولم يبق بأيدي الوندال سوى شمال المملكة.

سقوط سلطة الوندال في إفريقية

وممّا زاد في هذا الانحطاط تنازع أمراء الوندال للاستحواذ على الحكم. فإنّ هلدريق تولّى على إفريقية سنة 523 م، وكان ضعيف العقل، منحلّ العزيمة. فلم يلبث غير يسير حتّى خلعه الوندال عن عرشه وانتخبوا قريبه جليمار. فتمكّن الملك المخلوع من الاستنجاد بقيصر الروم يوستنيان لاسترجاع ملكه، وكان يوستنيان يضمر في نفسه إبادة سلطة الوندال من إفريقية وإرجاعها لحكم الروم. فاغتنم هذه الفرصة الثمينة وأعلن الحرب على جليمار، فكانت العاقبة انهزام الوندال واستيلاء الروم على إفريقية سنة 534م.

الفصل الخامس

الاستيلاء البيزنطي على إفريقية

(من سنة 534 إلى سنة 642 م)

الروم.

لمّا انقسمت الدولة الرومانية سنة 395 م، تأسست في الجهة الشرقية من أوروبا سلطنة عظمى[1] قاعدتها القسطنطينية (أو بيزنطة)، وقد أطلق العرب على سكّان المملكة البيزنطية لفظ «الروم» ويسمّيهم الإفرنج بيزنطيين، نسبة إلى تخت ملكهم.

وقد أسلفنا أن قيصر الروم أشهر الحرب على جليمار آخر ملوك الوندال، وكانت الجيوش التي سيّرها يوستنيان إلى إفريقية، تتألف من 20.000 مقاتل تحملهم 500 سفينة حربية تحت إمارة القائد المشهور بليشار. فبعد عدّة وقائع تشتّت على إثرها شمل الحامية الوندالية، وتمكّن القائد البيزنطي من الاستيلاء على إفريقية وإلحاقها بسلطنة الروم سنة 534 م، مع إبقاء قرطاجنة عاصمة للولاية [2].

ولم تكد الحكومة البيزنطية تنصب سلطانها على البلاد، حتى نهض في وجهها زعماء من البربر أحدثوا هياجاً مكدّراً أخمده، بعد عناء طويل، الوالي يوحنّا تروغليطا الذي عيّنه القيصر سنة 546 م.

الحكومة البيزنطية

رتّب الروم ولاية إفريقية على نظام يغاير شيئاً ما الطريقة الرومانية السابق تعريفها. وذلك أن الحكومة القيصرية أناطت نظر إفريقية الأعلى بحاكم عام[3] وظيفته إصدار الأوامر ومباشرة الإدارة المالية ومراقبة الموظفين. ومقام هذا الحاكم بمدينة قرطاجنة حيث انتصبت المصالح الحكومية التي تشتمل على زهاء الأربعمائة مأمور مدني وعسكري.

---

(1) أطلق عليها في أوّل الأمر اسم «الإمبراطورية الرومانية الشرقية» ثم أصبحت تدعى فيما بعد «الإمبراطورية البيزنطية» (م).

(2) نزل القائد البيزنطي برأس قبّودية (في الساحل التونسي) ثم واصل زحفه إلى أن لاقى الجيش الوندالي وهزمه في موقع قرب مدينة تونس (سيدي فتح الله الآن) ودخل قرطاج مظفراً (م).

(3) يسمّى هذا الحاكم العام «بطريق» ويتمتع بسلطات واسعة (م).

أما القطر فكان منقسما إلى ثلاثة أعمال مدنيّة يدير كل واحد منها عامل يُدعى قنصل، يعضده كتبة وموظّفون كثيرون.

نظام الجيش

بذل الروم مجهودهم في تنظيم الحامية العسكرية، فوزّعوا جيشهم المتألّف من مُشاة وخيّالة على نقط حربية، وأضافوا إليه فريقا من الجيوش الأهليّة. وجعلوا المركز الأصلي لقائدهم العام بمدينة قفصة[1]، لقرب موقعها من التخوم الصحراوية. وكانت الجيوش البيزنطية على أتمّ استعداد من جهة السلاح والعدّة، إلاّ أنها كانت ثقيلة الحركة، قليلة الانقياد لرؤسائها، بخلاف فرسان البربر المتّصفين بالجلد وسرعة الانتقال لخفّة أحمالهم وسرعة خيولهم.

الحصون

زيادة على اهتمامها بالجيش، اعتنت الحكومة البيزنطية بتحصين البلاد، فأنشأت قلاعاً مُحكَمة البناء وشيّدت معاقل كثيرة ممتدّة على الساحل وعلى التخوم، كانت حصناً منيعاً لصدّ غارات القبائل البربرية المنحازة في الجبال. وما زالت لهذه القلاع آثار تشاهد في تبرسق وباجة وحيدرة[2] وغيرها من المدن التونسية.

سياسة الروم مع البربر

مهما تسنّى لهذه الأمّة من اتّخاذ وسائل الدفاع وإقامة الحصون المنيعة، فإنّها لم تحسن السلوك مع الأهالي ولم تدر استمالتهم إليها بالعدل والرفق، مثل ما جرت عليه سياسة الرومان بهذه الديار، خصوصاً في أوّل عهدهم. بل أثار الروم غضب الرعيّة بتوظيفهم الضرائب الفادحة على كاهل البربر، وارتكاب موظفيهم القساوة والجور في فرض الجبايات والآتاوات غير المشروعة.

وفوق ذلك كلّه تفشّى الارتشاء بين ولاة الأمور على اختلاف درجاتهم لشدّة حاجة رجال السلطة إلى المال، وتمكّن داء الترف والبذخ من الحكّام والعمّال وسائر الموظفين.

الآثار البيزنطية

اكتشف الباحثون في البلاد التونسية خلال القرن العشرين آثارا بيزنطية معتبرة، أهمّها من حيث المعالم الأثرية : بقايا كنيسة بمكان يُعرف «بداموس

---

(1) مدينة قفصة تقع في الجنوب الغربي من البلاد التونسية، وهي قديمة البناء، كانت تسمى عند الرومان «كبصة»، وقد خرّبتها الفتن مرارا وهي الآن مركز ولاية.

(2) قرية كبيرة تقع على الحدود التونسية الجزائرية قرب مدينة تالة.

الكرّيطة» في قرطاجنة، وأنقاض كنيسة بيزنطية أخرى بمدينة الكاف، وعدّة منازل لبعض الأغنياء. وقد تميّزت البناءات البيزنطية -لا سيما منها المساكن الخاصة- بترصيع قاعاتها بالفسيفساء[1] الملوَّنة ذات المناظر الخلاّبة والصور العجيبة[2]. على أن الروم استخدموا في الحقيقة كثيراً من مواد البناءات الرومانية وانتفعوا بأنقاضها لإقامة معالمهم. ونظراً إلى عجزهم عن إعادة المعالم الرومانية إلى نصابها الأول وترميم ما انثلم منها بمرور الزمان وتخريب الفتن والحروب، فإنهم اقتصروا على الاستفادة من الحصون القديمة بتضييق دائرتها وتهديم الباقي، ﴿ والله وارث الأرض ومن عليها ﴾.

انحطاط سلطة الروم

تقدّم لنا الحديث عن المسلك العقيم الذي سار عليه الروم بالولايات، بقي أن نذكر أن الوُلاة الذين كانت حكومة القسطنطينية توفدهم إلى إفريقية كانوا في غالب الأحيان أقارب القيصر أو من حاشيته. فيأتون الولاية بقصد اكتساب الأموال بأسهل الطرق وأسرعها وابتزازها عند الضرورة والرجوع إلى بيزنطة في أقرب مدّة، للتظاهر بالأبّهة والتمتّع باللذات والشهوات، ومن الضروري أن ذلك كان يصدّهم عن الاهتمام بشؤون البلاد والنظر فيما يعود عليها بالنفع. فكان هذا السلوك مما يجبر الحكام على الاستخفاف بحقوق الرعية واعتبارهم عبيداً سخّرهم لهم سلطانهم ليسترقّوهم ويبتزّوا أموالهم، مما آل في النهاية إلى اختلال سياستهم واضطراب سلطانهم.

ونشأ عن هذه السياسة الخرقاء نفور البربر من سيطرة الروم وتحزّب الرعية ضد الحكومة، وتلاشى النفوذ اللازم للقبض على ناصية البلاد، فكان الولاة أنفسهم يسعون إلى التخلص من ربقة الاستبداد والظلم بإعلانهم الاستقلال في الجهات البعيدة.

وهكذا كانت حالة الدولة البيزنطية عندما أيقظها من غفلتها وزعزعها من سباتها سلطان «الإسلام» حسبما سنبيّنه فيما يلي.

---

(1) **الفسيفساء** : وتُسمّى في الاصطلاح التونسي «الزليج الظفري» وهي قطع صغيرة من الرخام الملوّن وغيره يؤلّف بعضها إلى بعض على أشكال متنوّعة.

(2) توجد بين المساكن البيزنطية ومنازلنا الآن أوجه شبه كبيرة، وذلك لأن العرب قد ورثوا كثيراً من العادات والعلوم وأشكال البناء عن الروم، كما هو مبسوط في التاريخ الإسلامي.

الباب الثاني

العهود الإسلامية الأولى

(من القرن السابع إلى القرن السادس عشر)

الفصل السادس

الإســـــلام

جزيـرة العــرب

بلاد العرب شبه جزيرة تقع في الجنوب الغربي مـن آسـيا، يحدّهـا شمـالاً الشام وشرقاً العراق والخليج العربي، وجنوباً بحر الهنـد، وغربـاً البحـر الأحمـر. وهي تشتمل على ثلاثة أقسام كبرى الحجاز ونجد واليمن.

فمن أشـهر المـدن في الحجـاز: مكّـة المكرّمـة والمدينـة المنـوّرة (وكـانت تسمّى في القديم يثرب) والطائف وجدّة. وفي نجد: الريـاض والحـائل وعنـيزة، وفي اليمن: صنعاء وعدن وتعزّ ومُخا.

وجزيرة العرب متّسعة البوادي، قليلة المياه إلاّ ما كان منها على سـاحل البحر، فإنّه خصب عامر. وفي السنين الأخـيرة اكتشـفت في الناحيـة الشـمالية الشرقية منها منابع غزيرة لزيت النفط (البـترول) فجلبـت ثـروة جديـدة طائلـة لدُوَل الخليج العربي [المملكة العربية السعودية والكويت وقطـر وعُمـان ودولـة الإمارات العربية].

العــرب قبــل البعثــة

العرب أمّة ساميّة[1] الأصل واللغة استوطنت الجزيرة في العصـور الغـابرة فتفرّعـت عنهـا القبـائل والبطـون. والعـرب ثـلاث فئـات: البـائدة والعاربـة والمستعربة.

فـ**البائدة** (أو الهالكة) انقرضت وكانت شعوبا عديدة منهم : عاد وثمود وطسم وجديس.

و**العاربة** (أو القحطانية) هم سكّان اليمن وما جاورها مـن ولـد يعـرب بن قحطان. وكانت لهـم حضـارة شـامخة ودول قديمـة عـاصرت فراعنـة مصـر وملوك بابل. ومن أشهرها دولة حِمْيَر أو التبابعة.

و**المستعربة** (أو الإسماعيلية) وهم سكان الحجاز ونجد من ولـد إسمـاعيل بن إبراهيم الخليل، ويسمّون أيضا «عدنانيّة» نسبة إلى عدنان أحد أجدادهم.

---

(1) نسبة إلى سام بن نوح، وتشارك العرب في هذا الانتساب أممٌ كثيرة منها الكلدانيون والعبرانيون والسريان والفنيقيون والحبش وغيرهم.

وقد مضى على العرب المستعربة في جاهليّتهم قرون طويلة وهم على ما جُبلوا عليه من البداوة الفطرية والخشونة وتباغض القبائل. لا قانون يديرهم ولا نظام يسيرون عليه ولا وازع يردعهم، دأبهم عبادة الأوثان وتقديس الأصنام وشنّ الغارات بعضهم على بعض.

فظهور دين يجمع كلمتهم ويصدّهم عن التوحّش وارتكاب المنكرات، ويدعوهم إلى الإخاء والحريّة، كان من أشدّ حاجات العرب، بل كان أمرا ضروريّا لعموم البشر لأنّ الأمم الأخرى لم تكن حينئذ أرقى بكثير من سكّان الجزيرة العربية من جهة فساد الأخلاق وظلم الضعيف، لذلك قضت حكمة الباري جلّ جلاله بظهور «الإسلام».

صاحب الشريعة السمحاء

وُلِد النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بمكّة المكرّمة فجر يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأوّل **عام الفيل**[1] الموافق للعشرين من شهر نيسان (أبريل) سنة 570 من ميلاد عيسى عليه السلام. وهو سيّدنا محمّد بن عبد اللّه بن عبد المطّلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصيّ وينتهي نسبه الشريف إلى عدنان، ومنه إلى إسماعيل بن إبراهيم الخليل. وأمّه آمنة بنت وهب بن عبد مناف. تيتّم صلّى اللّه عليه وسلّم صغيراً فكفله جدّه عبد المطّلب ثمّ عمّه أبو طالب، وكان من وجهاء قريش فتربّى في بيته كأحد أبنائه.

وفي الثالثة عشرة من عمره صاحب عمّه أبا طالب إلى الشام ثمّ عاد وسافر بعدها بتجارة لإحدى النساء الفاضلات من قريش، وهي خديجة بنت خُوَيْلد. فلما رجع عرضت عليه خديجة الزواج لما علمت من مكارم أخلاقه، فاقترن بها وسنه خمسة وعشرون عاما. ومكث بمكة وقد ظهرت عليه علائم الكمال من طهارة نفس ونقاء سيرة وصفاء سريرة حتّى لقبّه العرب بالصادق (الأمين).

ولما بلغ عليه السلام الأربعين سنة اختاره اللّه تعالى لرسالته فأنزل عليه الوحي المبين وبعثه بشيرا ونذيرا للعالمين. فصدع بما أمر به، وبلّغ ما أوحى به إليه ربّه، وكانت الدعوة أوّلا سريّة، فأسلم نفر قليلون، منهم أبو بكر الصديق وخديجة وعليّ ابن أبي طالب، وغيرهم. وبعد ثلاث سنين أمره اللّه بإعلان دينه الصادق فلبّى داعي ربّه وجاهر مُشْرِكي قريش بالإسلام، فآمن منهم فريق وظلّ الأكثرون من عُبّاد الأصنام على اضطهاد المسلمين. ولحق الرسول من ذلك أذًى عظيم، كرَمْيِه بالحجارة وسدّ بيته بالحطب وتوعّده بالخنق والقتل.

---

(1) هو العام الذي قدم فيه ملك الحبشة في جيوشه لهدم الكعبة ورجع من غير طائل.

الهجـرة النبويّـة

ولما اشتدّ أذى قريش بالمسلمين أشار النبيء على أصحابه بالهجرة إلى يثرب، ثمّ لحقهم هو ذاته صحبة أبي بكر الصدّيق في السنة الثالثة عشرة من ظهور الدعوة[1]. فقابله أهلها بكلّ حفاوة وإكرام وعاهدوه على مقاومة المشركين، وبايعوه على ذلك بَيْعَتَيْ **العقبة والرضوان**. فقوي إزر الإسلام بالأنصار - وهم سكّان المدينة - وأخذ الدين الإسلامي في الانتشار.

تعريف الدين الإسلامي

أحسن تعريف للدين الإسلامي هو ما أجاب به جعفر بن أبي طالب، لما سأله النجاشي ملك الحبشة عن الإسلام قال:

«أيّها الملك، كُنّا أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويظلم القويّ منّا الضعيف، حتّى بعث الله إلينا رسولاً منّا نعرف نسبه وصدقه، وأمانته، وعفافه، فدعانا لتوحيد الله، وأن لا نشرك به شيئا، ونخلع ما كنا نعبد من الأصنام، وأمر بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكفّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وأمرنا بالصلاة والصيام والزكاة والحجّ، فآمنّا به وصدّقناه».

فما أصدق هذا الوصف المختصر لحالة العرب قبل الإسلام والرقيّ الأخلاقي الذي أدخلته الرسالة المحمّديّة على الجاهليّة!

انتشار الإسلام

لما تمتّن عضد الإسلام بالمهاجرين والأنصار، أخذ الدين السمح ينتشر بسرعة بالحكمة والدعوة الحسنة وتجرّد المسلمين لقتال مَنْ قاوم الدعوة من المخالفين الوثنيّين، فلم تمض غير مدّة قصيرة حتّى عمّ الإسلام أنحاء جزيرة العرب.

وهاك أهم الوقائع التي باشرها الرسول بنفسه:

1- غزوة بدر[2] الكبرى وقعت في السنة الثانية للهجرة، انتصر فيها المسلمون انتصارا مبينا رغما عن قلّة عددهم إذ كانوا 613 بإزاء 1000 مشرك من زعماء قريش.

---

(1) لما آلت الخلافة إلى عمر بن الخطاب أمر باتخاذ الهجرة النبويّة (الموافقة لسنة 622 من ميلاد عيسى عليه السلام مبدأ التاريخ الإسلامي وهو التاريخ المتداول بين المسلمين ويُعرَف بالهجري).

(2) **بدر** : اسم مكان يقع بين مكة والمدينة [624م].

2- غزوة أُحُد[1] أعلنتها قريش لأخذ ثأر قتلاهم يوم بدر. فلما دارت رحى الحرب أشاع المشركون وفاة النبيء، فحصل للمسلمين من ذلك الفشل الذريع كما هو مُبَيّن في كُتب السيرة. وفي هذه الغزوة شُجّ وجهه الشريف صلّى اللّه عليه وسلّم.

3- غزوة الأحزاب (أو الخندق)[2] تحزّب فيها المشركون وزحفوا على المدينة وحاصروها، فأمر الرسول بحفر خندق حول المدينة، بإشارة من سلمان الفارسي، وانتهى الحصار بتفرّق شمل المتحزّبين شذر مذر إذ أرسل اللّه عليهم ريحا عاصفة شتّت شملهم.

4- غزوة خيبر حدثت في السنة السابعة من الهجرة[3] وانتصر فيها المسلمون وفتحوا حصون هذه المدينة. وقد أظهر علي بن أبي طالب في هذه الغزوة بسالة باهرة وإقدام نادر.

فتح مكّة المكرّمة

استمرّت الغزوات، والظفر حليف المسلمين، إلى أن كانت السنة الثامنة من الهجرة [630م] وفيها فتح الرسول مكّة ودخلها في 10.000 مجاهد من أصحابه وأنصاره، وطهّر البيت الحرام من أصنام الجاهلية. وقد كان فتح مكّة أعظم نصر للإسلام، إذ به أكمل اللّه على المسلمين دينهم وأتمّ عليهم نعمته ورضي لهم الإسلام دينا. وما ذاع خبر هذا الفتح حتّى أسلمت القبائل وانتشر الإسلام في كافة أنحاء الجزيرة العربية و لم يبق فيها مَنْ يشرك باللّه، وبذلك اتّحدت كلمة العرب وأصبحوا أمّة واحدة متّحدة قلبا وقالبا على إعلاء راية الإسلام خفّاقة في العالم بأسره.

وفاة الرسول

بعد فتح مكّة رجع الرسول إلى المدينة حيث أقام سنتين يدبّر شؤون المسلمين إلى أن كانت السنة الحادية عشرة للهجرة[4]، فمرض ولازم الفراش في بيت زوجته عائشة بنت أبي بكر الصديق، وانتقل إلى الرفيق الأعلى يوم الاثنين الثاني عشر ربيع الأوّل وسنّه 63 سنة، قضى 40 منها قبل النبوءة و13 سنة في مكّة بعدها و10 سنين في المدينة بعد الهجرة، ففي تلك المدة القصيرة

---

(1) **أحد** : جبل يقع بالقرب من المدينة [625م].
(2) جرت غزوة الخندق سنة 627م.
(3) اسم مدينة ذات حصون تقع في شمال يثرب كان يسكنها اليهود [629م].
(4) السنة الحادية عشرة للهجرة توافق عام 632 من الميلاد.

بلّغ محمّد بن عبد اللّه رسالته الثابتة التي أنقذت الجزيرة العربية من الشرك والهوى، وأنارت العالم شرقًا ومغربًا، إذ أرشدته إلى سبيل الهدى وخلّصته من الضلال والغواية.

الفتوحات الإسلامية في عهد أبي بكر (11 - 13هـ/ 632 - 634م)

انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى و لم يعهد بالخلافة إلى أحد فانتخب المسلمون للنظر في مصالحهم أبا بكر الصديق، ولقّبوه بخليفة رسول اللّه. وقد تولّى أبو بكر الخلافة والإسلام في خطر شديد لارتداد أكثر القبائل. فبحسن سياسته ومضاء عزيمته أطفأ نيران الفتن وبدّد شمل المنافقين والمرتدّين، فأعاد إلى الإسلام سطوته بأنحاء الجزيرة العربية. ولما قضى على الردّة، وجّه أبو بكر عنايته للخارج، فأرسل جيشا جرّارا إلى العراق بقيادة القائد الشهير خالد بن الوليد، وآخر إلى الشام برئاسة أبي عبيدة بن الجراح. ففُتِحَت الحِيرَة صلحا وانتصر المسلمون في الشام وتم فتحه فيما بعد.

وممّا يجدر ذكره هنا الوصيّة التي قدّمها هذا الخليفة الجليل إلى أسامة بن زيد لمّا وجّهه إلى قتال الروم، فقد قال له: «لا تخونوا، ولا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تمثّلوا، ولا تقتلوا طفلا ، ولا شيخا كبيرا، ولا امرأة، ولا تقطعوا نخلا، ولا تفسدوا زرعا، ولا تحرقوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلاّ للأكل».

فما أَحْكَمَ هذا الكلام العمراني البليغ. وتوفّي أبو بكر رضي اللّه عنه سنة 13 هـ. وقد أوصى بالخلافة إلى عمر بن الخطاب.

الخليفة الثاني عمر بن الخطّاب (13 -23هـ/ 634 -644م)

في عهد هذا الخليفة العادل اتّسع نطاق الفتوحات الإسلاميّة، ففتح المسلمون الشام بعد واقعة اليرموك سنة 13 التي انتصر فيها المسلمون فوزا مبينا على عساكر الروم الكثيرة عدداً وعدّة، وقد تمّ فتح بلاد الشام بأسرها على يد خالد بن الوليد وأبي عبيدة بن الجرّاح سنة 15. ثمّ استولى المسلمون على معظم بلاد فارس عقب واقعة القادسية الشهيرة سنة 16 وواقعة نهاوند سنة 21، وفُتِحَت مصر على يد عمرو ابن العاص سنة 20، ثمّ فتح هذا القائد الشهير برقة وغزا طرابلس الغرب سنة 22. وعلى إثر ذلك توفّي عمر رضي اللّه عنه بطعنة من أحد العبيد. وفضائل هذا الخليفة وعدله ورفقه بالرعيّة أكثر من أن تحصى...

الخليفة الثالث عثمان بن عفّان (23 - 35 هـ / 644 - 656 م)

وتولّى الخلافة بعده عثمان بن عفّان الذي انتخبه أعيان الصحابة. وكان رضي الله عنه ورعا تقيّا، ومن مآثره الخالدة جمعه القرآن الكريم وتوزيعه في مصاحف صحيحة على الأقطار الإسلامية سنة 33 هـ / 653 م.

وفي عهد هذا الخليفة كان الفتح الأوّل لبلاد إفريقية. وحيث وصلنا إلى هذا الفتح، فلنعد إلى وقائع تاريخ البلاد التونسية، وإنّما أتينا بخبر ظهور الإسلام وانتشاره تمهيدا لتسلسل الحوادث. وبالله التوفيق.

الفصل السابع

الاستيلاء العربي

(من سنة 27 هـ / 647 م إلى سنة 150 هـ/ 767 م)

غزوة إفريقية

أسلفنا فيما سبق الكلام عن انحطاط السلطة البيزنطيّة، وما آلت إليه البلاد من انقسام كلمة الروم وضعف حكومتهم وتلاشي زمام الأمور من أيديهم.

ففي خلال سنة 27 من الهجرة الموافق لعام 647 من الميلاد أمر الخليفة الثالث عثمان عامله على مصر وأخاه من الرضاع، عبد اللّه بن أبي سرح، بالمسير إلى إفريقية، فقصدها في 20.000 من الصحابة والتابعين. وبعد أن قطع هذا الجيش مفاوز برقة وطرابلس، دخل القطر التونسي وأناخ على سبيطلة[1] حيث يقيم أحد عمّال الروم، جرجير[2] الذي كان خلع طاعة حكومة قرطاجنة البيزنطية وادّعى الاستقلال.

فلما نزل الجيش الإسلامي على عاصمته تأهّب للحرب وخرج في 100.000 مقاتل من الروم والبربر، والتحم القتال فنصر اللّه المسلمين وقتِل جرجير بضربة من يد عبد اللّه بن الزبير وانهزمت عساكره العديدة، فدخل المسلمون سبيطلة ومنها بثّوا السرايا في الناحية الجنوبية إلى جهة الجريد. وقد أسرع الروم والبربر إلى طلب الصلح فأمّنهم الأمير عبد اللّه بن أبي سرح وصالحهم على مقدار من المال. قيل 300 قنطار من الذهب[3]، فدفعوه له، وقفل الجيش الإسلامي راجعا إلى مصر سنة 29 هـ / 649 م، بعد أن مهّد النواحي للفتح الحقيقي.

---

(1) **سبيطلة** : وتسمّى عند الروم «سُوفَيْطُلَة»، مدينة تقع في الناحية الوسطى من القطر التونسي، جنوب غربي القيروان، كان لها شأن في تاريخ الروم والبيزنطيين، مازالت بها معالم أثرية عظيمة ماثلة للعيان.

(2) **جرجير** : هو اسم أطلقه المؤرّخون العرب على البطريق البيزنطي المشار إليه أعلاه، وهو تحريف اسم «غريغوار».

(3) القنطار من الذهب يساوي 8400 دينار، فيكون المبلغ المدفوع على وجه الصلح يقدّر بحوالي مليونين ونصف فرنك ذهبا.

غـزوة العبادلـة السـبعة

وتعرف هذه الغزوة بغزوة العبادلة السبعة، وذلك لأنّ الجيش الإسـلامي كان يضمّ سبعة من وجوه الصحابة اسم كلّ واحد منهم عبد اللّه وهم: 1- عبد اللّه بن سعد بن أبي سرح، أحد كتاب وحي الرسول صلّى اللّه عليه وسلم، 2- عبد اللّه بن الزبير بن العوّام، وأمّه أسماء بنت أبي بكر الصديق، 3- عبد اللّه بن عبّاس بن عبد المطّلب، 4- عبد اللّه بن جعفر، 5- عبد اللّه بن عمر بن الخطّاب، 6- عبد اللّه بن مسعود، 7- عبد اللّه بن عمرو بن العاص، رضي اللّه عنهم جميعا.

هدنـة فـي الغـزوات

وبعد غزو إفريقية بقليل استشهد عثمان رضي اللّه عنه سنة 35 هـ / 656 م وانتُخِب مكانه عليّ بن أبي طالب [656 -661 م]. ولم يكد هذا الخليفة الراشدي يباشر الأمر حتّى قام في وجهه معاوية بن أبي سفيان الأموي يطالب بالخلافة لنفسه. وآل الأمر إلى شقاق عظيم بين المسلمين نتجت عنه فتن داخلية أشغلت الأمّة عن الفتوحات. ودام الحال إلى مقتل عليّ كرّم اللّه وجهه سنة 40 هـ/ 661 م فأصلح اللّه بالحسن بن علي أمر المسلمين، إذ اجتمع الناس على مبايعة معاوية الذي نقل مقرّ الخلافة من المدينة المنوّرة وجعلها خلافة وراثيّة.

اسـتئناف غـزو إفريقيـة

لمّا استقرّ الأمر لمعاوية سيّر لغزو إفريقيّة جيشا يتألّف من 10.000 مقاتل برئاسة معاوية بن حُدَيْج الكندي، فقدم إليها سنة 45 هـ/ 665 م. وبلغ قيصر الروم خبر هذا الوفد، فوجّه إلى قرطاجنة نجدة معتبرة على طريق البحر، والتقى المسلمون بالنصارى ومن انضمّ إليهم من البربر قرب الجمّ فهزموهم. وبعث معاوية عبد اللّه بن الزبير إلى سوسة، ففتحها، كما بعث عبد الملك بن مروان[1] إلى جلّولا[2] وإلى بنزرت ففتحهما عنوة، واستقرّ المسلمون بعدّة أماكن من إفريقية. وفي هذه الغزوة استشهد الصحابي الكبير أبو زمعة عبيد اللّه البلوي، ودُفِنَ قريباً من القيروان حيث يوجد ضريحه الآن.

---

(1) عبد الملك بن مروان من بني أمية، تولّى الخلافة الإسلاميّة فيما بعد (من 65 إلى 86 هـ/ 685 - 705 م). ولم يُنسِه ارتقاؤه هذا فتح إفريقية، إذ أنّه تذكّر امرأة بربريّة كانت أكرمته قرب بنزرت، فكاتب عامله في إفريقية أن يحسن إليها وإلى ذويها.

(2) **جلولا** : اسم مدينة قديمة كانت تبعد عن القيروان مسافة أربعة وعشرين ميلا تقريبا، وهي الآن خراب، ويعرف مكانها بعين جلولة.

عقبة بن نافع

ثمّ رجع معاوية بن حديج إلى مصر وجاء مكانه عقبة بن نافع الفهري. قدم هذا الأمير إلى إفريقية سنة 50 هـ/ 670 م وأوّل ما شرع فيه تخطيط مدينة إسلامية سمّاها **القيروان**[1] وأحاط بها سورا بسيطا وجعل في وسطه الجامع المنسوب إليه الآن، وابتنى دار الإمارة حذوه. وبعد أن أقرّ المسلمين بها، أخذ عقبة يغزو الروم ويشرّد البربر إلى أن استقدمه الخليفة إلى المشرق وأمّر مكانه الأمير أبي المهاجر دينار، فدخل إفريقية سنة 55 هـ/ 674 م وبعث سريّة إلى جزيرة شريك[2] بقيادة حَنَش الصنعاني[3] ففتحها وأسلم على يده كثير من سكّانها من جملتهم الزعيم البربري كُسَيْلة.

رجوع عقبة إلى إفريقية

توفّي معاوية بن أبي سفيان وتولّى الخلافة ابنه اليزيد، فردّ عقبة ثانيا إلى إفريقية سنة 62/ 680، فتدارك أمر القيروان بعد أن تداعى، ثم استخلف عليها زُهَيْر بن قيس البلوي، وخرج في جنده إلى الجهاد ببلاد المغرب. وابتدأ بالجريد فمهّده وسار إلى الزاب[4] فشتّت شمل البربر الباغين في النواحي الجنوبية إلى أن أذعنوا، ووصل به الفتح إلى المغرب الأقصى، ولم يصدّه عن تقدّمه إلاّ المحيط الأطلنطي. يُروَى أنّ عقبة لما انتهى إلى البحر أقحم فرسه فيه ورفع يديه إلى السماء ثم قال بأعلى صوته:

«اللهمّ اشهد أني قد بلغت المجهود، ولولا هذا البحر لمضيتُ في البلاد أقاتل من كفر بك حتى لا يُعْبَد من دونك»!

ثمّ قفل راجعا يريد إفريقية.

ثورة البربر

ولمّا كان عقبة بوسط طريقه تقدّمته جيوشه ولم يبق معه إلاّ نفر قليل من جملتهم كسيلة الزعيم البربري الذي كان أسيرا عند عقبة. فاغتنم كسيلة

---

(1) **القيروان** : لفظ فارسي دخيل في اللغة العربية، ومعناه محطّ الجيش ومناخ القافلة وموضع اجتماع الناس في الحرب.

(2) **جزيرة شريك** : هي شبه جزيرة الوطن القبلي، شرقي مدينة تونس، وإليها ينسب باب الجزيرة أحد أبواب العاصمة [في الربض الجنوبي].

(3) هو حنش بن عبد الله الصنعاني من أفاضل التابعين، ولد في صنعاء باليمن وشهد فتح إفريقية، ثم فتح الأندلس مع موسى بن نصير. وبعد ذلك رجع لسكنى القيروان حيث توفي سنة 100 هـ/ 718 م وقبره مشهور حذو ضريح أبي زمعة البلوي.

(4) **الزاب** : تعريف قديم للقسم الجنوبي من ولاية قسنطينة وقاعدته مدينة بسكرة.

تلك الفرصة وأعلم قومه بقلّة المسلمين فهجم البربر فجأة على عقبة وأصحابه وكانوا نحو الثلاثمائة فقاتلوا قتال الأبطال وتكاثر عليهم العدوّ فاستشهدوا جمعا في مصرع واحد سنة 64 هـ/ 683م.

قال العلاّمة ابن خلدون:

«وأجداث أولئك الشهداء - عقبة وأصحابه - بمكانهم ذلك من أرض الزاب[1] لهذا العهد. وقد جُعِل على قبر عقبة أسنمة ثم جُصِّص واتّخذ عليه مسجد يُعرَف باسمه، وهو في عداد المزارات ومظانّ البركة، بل هو أشرف مزور من الأجداث في بقاع الأرض، لما توفّر فيه من عدد الشهداء من الصحابة والتابعين».

استرجاع إفريقية

لّما تولّى عبد الملك بن مروان الخلافة الأمويّة [685 م] وعلم ما أحاط بمسلمي إفريقية، أمر عامله على برقة، زهير بن قيس البلوي بالسير إلى القيروان وإنقاذها سنة 69 هـ/ 688 م، فزحف زهير بجنوده على البربر، وبعد قتال عنيف، هلك كسيلة ورجاله، واسترجع المسلمون عاصمتهم فعمّروها وصَلُح شأنها. ثمّ إنّ الأمير زهير ارتحل إلى المشرق بعد أن مهّد راحة إفريقية وأمّن سكّان القيروان. فلما كان على ساحل برقة صادف عساكر للروم نزلت هنالك، فقاتلهم حتّى استشهد فيمن كان معه.

الفتح الحقيقي

لّما بلغ عبد الملك هذا الخبر عزم على تطهير إفريقية من غارات البربر، فندب لذلك قائدا من مشاهير جيوشه وهو حسّان بن النعمان الغسّاني. فقدم إلى القيروان في 40.000 سنة 77 هـ/ 696 م، ولم يدخل إفريقية قبل ذلك أعظم من هذا الجيش، ومن بوادر أعمال حسّان أن قصد قرطاجنة التي لم تزل عهدئذ قاعدة ملك الروم في إفريقية، فحاصرها وكسّر قناتها لقطع الماء عنها، وشدّد عليها الحصار إلى أن فتحها عنوة وأذعن من التجأ إليها من النصارى. غير أنّه لم يكد ينصرف حسّان عنها حتّى تحصّن بها أقوام من الروم والبربر، فرجع إليهم حسّان وشرّدهم وأمر بهدم الحصون من قرطاجنة لئلا يعود إليها المخالفون سنة 78 هـ/ 697 م.

---

(1) يُعرَف هذا المكان اليوم باسم «سيدي عقبة»، وهو واحة صغيرة في غاية الجمال بالقرب من بسكرة في جنوب ولاية قسنطينة.

الكاهنــة

ثـمّ إنّ حسّـان سـار إلى ناحيـة جبـال أوراس[1] حيـث علـم أنّ الــبربر اجتمعـوا تحـت لـواء امـرأة بربريّـة اسمهـا دهيـا بنـت تـابتت وسمّاهــا العــرب «الكاهنة»، فتقدّم الجيش العربي نحوها والتقى بفرسانها والتحـم بينمـا القتـال، فانهزم حسّان ومات كثير من رجاله، فكرّ راجعاً إلى بلاد طرابلس حيث أقـام إلى أن وافاه المدد من المشرق، فعاد حينئذ في طلب الكاهنة وجموعها.

وخـلال تلـك المـدّة امتلكـت الكاهنـة القطـر التونسـي، وكـانت تتّبــع حركات حسّان في طرابلس. فلمّا أيقنت رجوعه بعد موافاة النجدة له، جمعت رجالها وقالت لهم: «يا قوم! إن العرب لا يطلبون من إفريقية إلاّ المدن والذهب والفضّـة، ونحـن إنّمـا نريـد المـزارع والمراعـي، فـالرأي عنـدي تخريــب المــدن والحصون وقطع الأشجار حتّى تنقطع أطماع العرب». وأمـرت للحـين بتنفيـذ الأمر، فهُدِّمت المدن والقرى، وحُرِقت الغابات والأحراش، وعاثت يد الفسـاد فيها، فانعدم العمران الإفريقي من أصله. وقد فـات الكاهنـة أنّ المسـلمين إنّمـا كانوا يرمون إلى غاية أرقى ومقصد أسنى ممّا توهّموه.

قتــل الكاهنــة

و لم يمنع هذا التخريب رجوع حسّان إلى إفريقية واقتفـاءه أثـر الكاهنـة، فلحقها إلى قصر الجمّ، وقيل في غير ذلك المكان وهزمها شرّ هزيمة سنة 84 هـ/ 702 م. ومن ذلك الحين أخلد البربر إلى الطاعة ودانت إفريقية للإسلام.

مــآثر حسّــان بــن النعمــان

لّما استقام الأمر وتقلّصت شوكة البربر، التفـت حسّـان بـن النعمـان إلى عمارة البلاد. فجـدّد بنـاء الجـامع الأعظـم بالقـيروان، ثـمّ توجّـه إلى قرطاجنّـة فأسّس بقربهــا أوّل مصنـع إسـلامي، وهـو المكـان المعـروف «بـدار الصناعـة» لإنشاء السفن والمراكب الحربيّة، وقد جلب لهذا الغرض ألــف عائلـة مـن قبـط مصر فأقرّهم هناك، تبعًا لسياسة مخدومه الخليفة عبد الملك بن مروان.

ومن آثار حسّان أيضا نصب الخراج علـى الأراضـي وتدويـن الدواويـن الدوليـة بإفريقيـة، وجعـل العربيـة لغـة رسميّـة. ومـن حكمـة حسّــان وتدبـيره السياسي، أن وزّع على صغار فلاّحي البربر مســاحات شاسـعة مـن الأراضـي الدولية التي كـانت فيمـا مضـى ملكـا للحكومـة البيزنطيـة، وبـإقرار الـبربر في

---

(1) **الأوراس** : سلسلة جبال بالجنوب الشرقي من ولاية قسنطينة، نهاية ارتفاعها 2300 متر.

الأرض ومساعدتهم على الارتزاق من الزراعة استمال قلوبهم وقرّبهم من الإسلام، حتّى أنه اتّخذ منهم جيشا عظيما أعان العرب فيما بعد على فتح المغرب والأندلس، وهي سياسة رشيدة من التدبير الصالح بمكان. وبذلك كانت ولاية هذا الأمير تعتبَر بحقّ مبدأ الفتح الإسلامي بأتمّ معنى الكلمة.

فتح الأندلس

تقلّد موسى بن نُصَيْر[1] ولاية إفريقية بعد حسّان سنة 85 هـ/704 م وتولّى فتح زغوان ونواحيها، ثم توجّه إلى المغرب فوطّد هناك الأمن، واستعمل على طنجة[2] تابعه طارق بن زياد البربري، وأبقى معه 17.000 من العرب و12.000 من مسلمي البربر، وأمر العرب بتعليمهم ما تيسّر من القرآن وضروريات الدين.

ولمّا رجع موسى إلى القيروان كتب إلى طارق يأمره بالسير إلى غزو الأندلس. فجهّز طارق جيشا يضم 12.000 رجل واجتاز البحر إلى إسبانيا، وكان نزوله في مكان عرف باسمه: جبل طارق. ويُروى أن طارقا لما حلّ بالأندلس أحرق السفن وقال لجنوده: «أيّها المجاهدون! لقد آن الأوان فالعدوّ أمامنا والبحر خلفنا، ولم يبق إلاّ الموت، فاختاروا إحدى الموتتَيْن». فاختار المسلمون الجهاد، وأنزل اللّه عليهم نصره المبين، إذ افتتحوا في برهة يسيرة جلّ بلاد الأندلس، ولما رأى موسى بن نصير ما أتيح إلى طارق من الفتح الجليل، أراد أن يشارك تابعه في الظفر، فاستخلف ابنه عبد اللّه على إفريقية، وعبر البحر، فدخل الأندلس سنة 93 هـ/ 711 م وأتمّ ما شرع طارق في فتحه، ثمّ قفل راجعًا يجرّ وراءه مغانم جسيمة. وبعد أن أقام برهة في القيروان ارتحل إلى المشرق سنة 95 هـ/ 713 م وخلف ابنه عبد العزيز على الأندلس، وابنه عبد اللّه على إفريقية.

إسلام البربر

قضى وُلاة إفريقية الأوائل المدّة التي ذكرناها من الفتح في الاشتغال بتمهيد البلاد وكسر شوكة الثائرين في وجه الإسلام. فلما أخلد هؤلاء إلى الطاعة واستتبّ الأمن في أقطار المغرب، انصرف الولاة إلى تأييد سلطانهم في

---

(1) أبو عبد الرحمان موسى بن نُصَيْر اللخمي، وُلِد سنة 19 للهجرة/ 640 م وتوفّي بالمدينة المنوّرة سنة 98 هـ/ 916 م. وهو من وجوه التابعين، كان أبوه نُصَيْر من أعيان حرس معاوية بن أبي سفيان، وكان موسى مُهَاب، كريما، شجاعا، قيل لم يُهزَم له جيش قطّ.

(2) **طنجة** : فرضة مهمّة على البحر المتوسط بشمال المغرب الأقصى مواجهة لإسبانيا.

البلاد على أساس الدين الإسلامي الحنيف، فحرصوا على إدخال البربر في الإسلام ونشر تعاليمه السمحة بين القبائل، ولم يكن حرص الخلفاء الأمويّين دون ذلك، فباعتنائهم المستمرّ تيسّر إتمام هذه المهمّة، وأكبر مساعد على ذلك كان الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز[1]، فإنّ من مآثره ترتيب عشرة فقهاء من أعيان التابعين[2]، لإرشاد البربر وتعليمهم اللغة العربيّة. وقدم هؤلاء الفقهاء إفريقية سنة 100 هـ/ 718 م مع الأمير إسماعيل بن عبد اللّه بن أبي المهاجر، وانتصبوا بجهات المغرب. وأسفرت نتائج مساعيهم عن تسارع الأهليّين إلى اعتناق الإسلام أوّلا، ونبغ كثير من أبنائهم في العلوم الدينيّة.

معاملة الإسلام للبربر

قضت حكمة الإسلام أنّ كلّ من يدين به يكون عضوا عاملا ضمن أعضاء أسرته الكبرى، له ما لهم وعليه ما عليهم، وعلى هذه القاعدة الحكيمة جرت سياسة وُلاة إفريقية مع مسلمي البربر. فقد عقد حسّان بن النعمان لابنَيْ الكاهنة بعد إسلامهما على جيش يتألّف من 12.000 مقاتل. وهذا موسى بن نصير سيّر لفتح الأندلس تابعه طارق بن زياد البربري، كما أسلفنا، على رأس جيش بعضه عرب وغالبه من الإفريقيين، وهلمّ جرًّا. وقد قدّر الأهالي هذه السياسة المتسامحة حقّ قدرها، فتسابقوا لاعتناق الإسلام وصاروا بفضل ذلك هم الفاتحون وهم الآمرون. ولم يمض على الفتح الإسلامي إلاّ القليل حتّى اندمج البربر في الأمّة العربية، وصاروا يتحاشون الانتساب إلى أصولهم. وفيما سنقصّه عليك من الحوادث من هذا القبيل شواهد لا تُحْصَى ولا تُعَدّ.

---

(1) تولّى الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز الحكم من سنة 717 إلى 720م، (م).

(2) أشهر فضلاء هذه البعثة الدينية هم: أبو عبد الرحمان عبد اللّه الحبلي، رئيس البعثة، مشهور بالعلم والفضل والورع، شهد فتح الأندلس ثمّ سكن القيروان وبنى بها جامعا وتوفي سنة 100 وقبره مُزار.

وإسماعيل بن عبيد المعروف «بتاجر اللّه»، من أهل المعروف والخير، بنى مسجدا كبيرا وسوقًا كبيرًا نسبا إليه توفي مجاهدا في غزوة صقلية سنة 107هـ/ 725م. وقد لقب بتاجر اللّه لأنّه جعل كسبه للّه عزّ وجلّ يُصْرَف ريعه في وجوه البرّ والإحسان.

وأبو الجهم عبد الرحمان بن رافع التنوخي، من وجوه التابعين، وهو أوّل من وُلي القضاء بالقيروان وبها توفي سنة 113هـ/ 731م.

الأسـرة الأمـويّـة

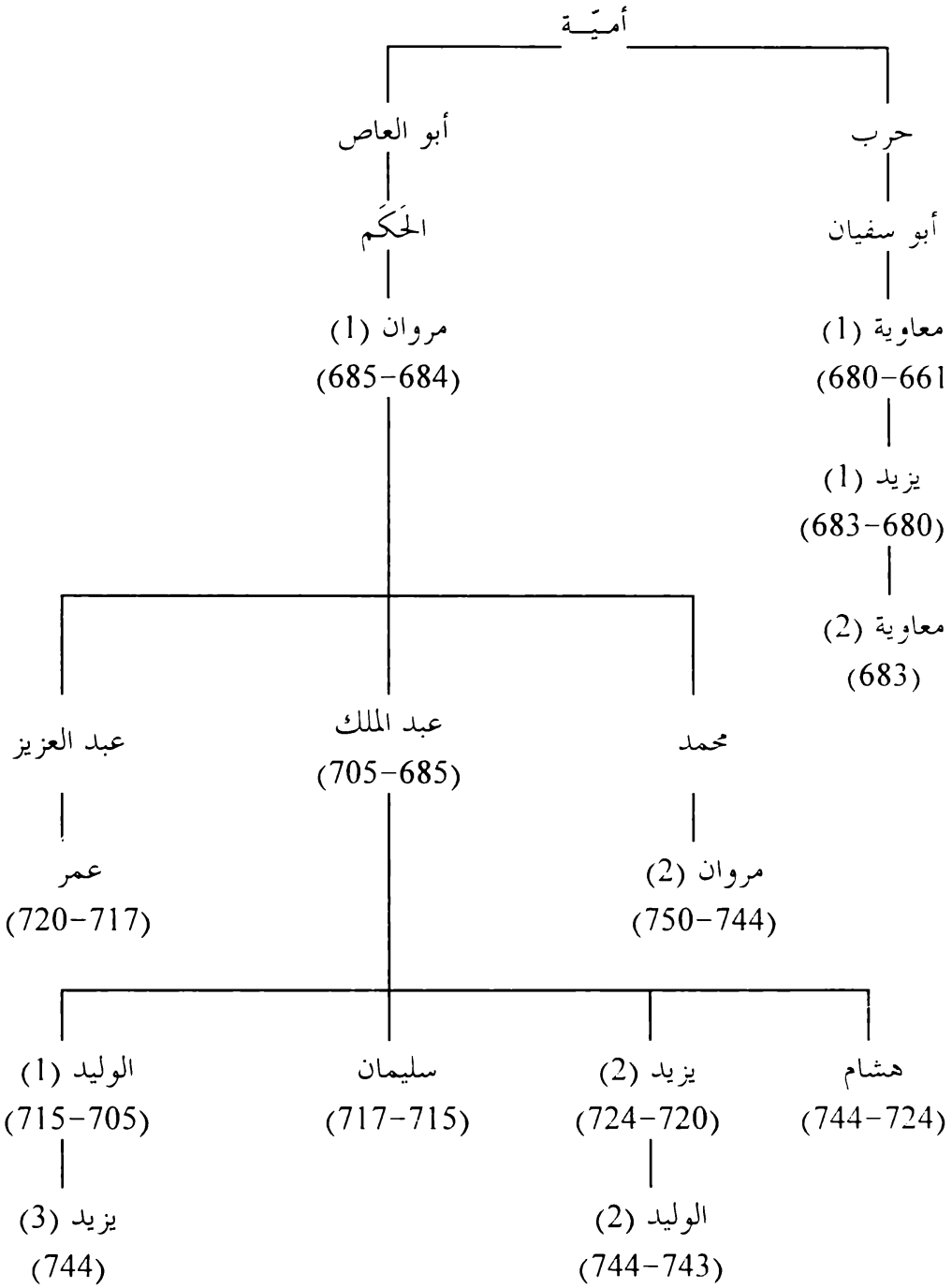

وصيّـة عقبـة بـن نـافع إلـى أبنائـه

وُلِد عقبة بن نافع في أوائل الهجرة النبويّة فعُدّ مـن أجـل ذلـك صحـابيّ المولد. تولّى إمارة جيش إفريقية مرّتَيْن، كما مـرّ، وغـزا المغـرب مـن أوّلـه إلى منتهاه. وهو الواضع لأوّل حجر إسلامي في إفريقية بتأسيس مدينة «القـيروان» وجامعها الأعظم الذي مازال يُشاهد هيكله الشامخ إلى اليوم...

ومن أجمل ما يؤثر عن هذا القائد الشهير وصيّته إلى أبنائه بالقيروان، لمـا عزم على فتح المغرب، قال لهم:

« يا بني! إنّي بعت نفسي من اللّه، ولا أدري ما يقضي عليّ في سفري. يا بنيّ إنّي أوصيكم بثلاث خصال، فاحفظوها ولا تضيعوها، أَملَـوْا صدوركـم من كتاب اللّه فإنّه دليل على اللّـه، وخـذوا مـن كـلام العـرب مـا تهتـدي بـه ألسنتكم ويدلّكم علـى مكـارم الأخـلاق، وأوصيكـم أن لا تداينُـوا ولـو بعتـم العبـاء، فـإنّ الدّيْـن ذلّ بالنهـار وهـمّ بـاللّيل، فدعـوه تسـلم لكـم أقداركـم وأعراضكـم، ولا تقبلـوا العلـم مـن المغروريـن فيفرّقـوا بينكـم وبـين اللّـه، ولا تأخذوا دِيناً إلاّ من أهل الورع، فإنّه أسلم لكم، ومن احتاط سلم ونجا»!

ثمّ سار عقبة حيث يدفعه وجدانه الديني، وجـاهد في اللّـه حـقّ جهـاده حتّى أبلى البلاء الحسن في إعلاء كلمة اللّه وتشييد معالم الإسلام.

الفصل الثامن
إفريقية في عهد الوُلاة

عُبَيْد اللّه بن الحبحاب

قدم إفريقية سنة 116 هـ/ 734 م من قبل هشام بن عبد الملك[1]. فأوفد جيشا بقيادة حبيب بن أبي عبيدة بن نافع إلى السوس بالمغرب الأقصى والصحراء الكبراء وأرض السودان، فغزا جميعها ورجع غانما، ثم سيّره سنة 122 هـ/ 739 م في أسطول إلى جزيرة صقلية فنزل على قاعدتها سرقوسة وظفر ظفرا جليلا وقفل بجزيتها إلى القيروان. وفي السنة التالية 123 هـ/ 740 م، عاد ابن الحبحاب إلى المشرق، بعد أن خلّد بإفريقية مآثر جميلة منها إنشاؤه لجامع الزيتونة بتونس سنة 116 هـ / 734 م[2] وتجديده لدار الصناعة التي غزتْ مراكبها صقلية وغيرها من جُزر البحر الأبيض المتوسّط.

ظهور الخوارج بإفريقية

كان للخلافات السياسيّة التي ظهرت في المشرق أواخر القرن الأوّل للهجرة رنّة عظيمة في بلاد المغرب.

وبيان ذلك أنّ فريقا من المسلمين لما رأوا ما آلت إليه أمور الأمّة من الانقسام بعد واقعة صفّين[3] وتحيّز أغلب الصحابة إلى علي بن أبي طالب ورهط منهم إلى معاوية بن أبي سفيان، ظهرت طائفة تدّعي الإصلاح، فخرجت عن الفريقين ونقضت بيعة علي و لم تعترف بالبيعة لمعاوية، وأسّست حزبا مستقلاّ عُرف باسم «الخوارج»، ثمّ انقسم الخوارج بعد ذلك إلى نحل متعدّدة اشتهرت بأسماء زعمائها: كالصفريّة والأزارقة والإباضيّة وغيرهم، وقد ألبسوا مذاهبهم أصباغا دينيّة تأييداً لمساعيهم السياسيّة.

---

(1) تولّى هشام بن عبد الملك الخلافة في عهد الدولة الأموية من سنة 724 إلى سنة 744 م، (م).

(2) ذكر البكري في كتابه « المسالك والممالك » أن باني جامع تونس هو والي إفريقية عبيد الله بن الحبحاب وان ابتداء تأسيسه كان في سنة 114 هـ/ 732 م. وهذا غير صحيح لأنّ ابن الحبحاب قد دخل إفريقية سنة 116 هـ/ 734 م. والصحيح حينئذ ما ذكره حسن حسني عبد الوهاب اعتمادا على بعض المصادر القديمة مثل « فتوح إفريقية والأندلس » لابن عبد الحكم، و« البيان المغرب » لابن عذاري، (م).

(3) حدثت واقعة صفّين التي انتصر فيها علي بن أبي طالب سنة 657 م، (م).

وما كادت تنتقل آراء أصحاب هذه النِّحَل إلى بلاد المغرب حتّى اغتنم البربر انشقاق كلمة المسلمين فرصة للتمسّك ظاهراً بإحدى هذه الشِّيَع وحملوا راية العصيان في وجه الحكومة الأمويّة، وانتشرت حركة الخوارج بسرعة في كافة أنحاء المغرب وكذلك الأندلس التابعة عهدئذ لإمارة القيروان.

قام بإفريقية عُكاشة الصُّفري في جمع عظيم من البربر الصفرية فقاتله الأمير حنظلة بن صفوان إلى أن هزمه وشرّد جموعه سنة 124 هـ/741 م، ثمّ خرج عبد الرحمان بن حبيب الفهري وادّعى الولاية لنفسه، فالتفّ حوله ثوّار البربر وتغلّبوا على القيروان سنة 129 هـ/ 746 م، واضطرّ حنظلة إلى الرحيل إلى المشرق في عهد الخليفة مروان بن محمّد الأموي [744 - 750].

وزاد الطين بلّة تراجع الدولة الأمويّة بظهور العباسيّين، [750] فأشغل هذا النبأ العظيم الخلفاء عن أحوال إفريقيّة.

وخلال تلك الفترة اضطربت الإمارة الإفريقيّة وتسلّط عليها بعض الأجناد، وهم الفهريّون من ذريّة عقبة بن نافع، وأوّلهم عبد الرحمان بن حبيب السالف الذكر. ولم يستقم لهم حال لأنّ خوارج البربر كانوا ينازعونهم الأمر، واستمرّ الهرج إلى أن تأيّدت الدعوة العباسيّة وانتقلت الخلافة الإسلاميّة إلى العباسيين، فاهتمّوا بشأن الولايات.

محمّد بن الأشعث

بعثه الخليفة أبو جعفر المنصور سنة 144 هـ/761 م لإنقاذ إفريقية، فقدمها في 40.000 رجل وحارب الخوارج وهزم كبيرهم أبا الخطّاب وبدّد الخوارج ودخل القيروان وابتنى سورها سنة 146 هـ/763 م وضبط الأمور. ثمّ غار عليه عيسى بن عجلان، ونظراً إلى ضعف القوّة الباقية معه، التجأ ابن الأشعث إلى المشرق فعيّن الخليفة مكانه الأغلب بن سالم التميمي.

الأغلب بن سالم

كان من أنصار أبي مسلم الخرساني في نشر الدعوة العباسية وكان مشهورا بالرأي والحزم والشجاعة، قدم إفريقية سنة 148 هـ/765 م وقاوم البربر الصفريّة حتّى استقام له الأمر، ثم أعاد الثوّار الكرّة. فنهض إليهم الأغلب في جيوشه والتقى بهم قرب سبخة تونس سنة 150 هـ/767 م، فأصيب بسهم فتّاك قضى به نحبه، وهو والد إبراهيم بن الأغلب، مؤسّس الدولة الأغلبيّة.

الأمـــراء الـمـهـالـبـــة[1]

1- عمـر بـن حفـص بـن قبيصـة

لما بلغ المنصور خبر ما لاقاه الأغلب ورجاله بعث إليها والياً من آل المهلب: عمر بن حفص، فوصل سنة 151 هـ/768 م و لم يلبث إلاّ قليلا حتّى ثار عليه أبو حاتم الإباضي في جموع عظيمة من الثوّار وحاصروه في القيروان حصارا أفضى إلى أكل الدوابّ والميتة. وفي أثناء ذلك علم عمر أنّ الخليفة وجّه لإنقاذه يزيد بن حاتم، فأنف وقال: «لاخير في الحياة بعد أن يقال أخرجه يزيد من الحصار، إنّما هي رقدة ثم أُبعَث إلى الحساب». وخرج للمحاصرين سنة 154 هـ/770 م، فقاتلهم حتّى استشهد.

2- يزيـد بـن حـاتم المهلّبـي

أتى إفريقيّة في 60,000 جندي ولقي رجال أبي حاتم الإباضي ففتك بهم، وقمع المخالفين وضبط الأمور بحزم وعزم. ولّما تمهّدت الراحة وجّه اهتمامه إلى عمارة البلاد، فجدّد بناء جامع القيروان سنة 157 هـ/773 م، ورتّب أسواق التجارة، وأفرد لكلّ صناعة سوقا. وكان يزيد من أحسن الوُلاة سيرة، وأشدّهم حزماً وثباتاً، وأخباره في الشهامة والنجدة والسخاء مشهورة، وفي كرمه قيل البيت السائر:

لشتّان ما بين اليزيدَيْن في الندى يزيد سليم والأغرّ ابن حاتم

ومن مناقبه في الفضل أنّه مرّ يوما بضواحي القيروان، فرأى غنما كثيرة، وعلم أنها لابنه فزجره عن اتّخاذها ومزاحمته العامّة في أسباب التكسّب، وأمر بذبح جميعها وأباحها للناس فتناولتها الأيدي ونُشِرت جلودها على ربوة سُمِّيت من يومئذ «كدية الجلود». وحكى عنه الإمام سحنون أنه كان يقول: « واللّه ما هبتُ شيئا قطّ، هيبتي من رجل ظلمته وأنا أعلم أن لا ناصر له إلا اللّه، فيقول اللّه حسبك! اللّه بيني وبينك »! وهذه غاية الغايات في التقوى والورع. وكانت وفاة يزيد سنة 171 هـ/ 787 م، وخلفه في الأمر ابنه داود مدّة 9 أشهر إلى أن قدم عمّه روح.

---

(1) **المهالبة** (أو آل المهلّب بن أبي صفرة) : بيت عربي طائر الصيت مشهور بالشجاعة والكرم. تقلّد أفراد هذه العائلة في عهد الدولة الأموية والدولة العباسيّة المناصب السامية والولايات الجليلة.

3- رَوْح بن حاتم المهلّبي

تولّى إفريقية بعهد من هارون الرشيد، فسار بالعدل والحلم. وفي أيّامه تصدّعت شوكة البربر وانقادوا للدين الإسلامي، فتمكّنت السلطة المضريّة من الإفريقيّين، وكان رَوْح أكبر سنّا من أخيه يزيد، فلما دنا أجله وأحسّ بذلك قوّاد الجند تخوّفوا من شغور الولاية وكتبوا إلى الرشيد. وتوفّي روح سنة 174 هـ/790 م، فتمّت البيعة لابنه قبيصة الذي قام بالولاية نائبا إلى أن وصل الوالي الجديد.

4- نصر بن حبيب المهلّبي

كان هذا الوالي عالي الهمّة، بسط العدل والإحسان في المدّة القصيرة التي تولّى فيها الحكم بإفريقية، ولم تطل مدّته، إذ عزله الرشيد وعيّن مكانه الفضل بن رَوْح سنة 177 هـ/793 م.

5- الفضل بن روح

أتى إلى إفريقية لما انتصب ابن أخيه المغيرة عاملا على مدينة تونس، فأساء السيرة وأوغر صدور الرعيّة، فاشتكى منه أعيان البلاد وكبراء الجند إلى عمّه، فتثاقل عن جوابهم، وأفضى الحال إلى طرد المغيرة جبراً وانتخاب عبد اللّه بن الجارود من أبناء الجند عوضا عنه، فطمع هذا الأخير في الإمارة وعمد إلى القيروان وحاصرها ثم أخرج منها الفضل ودحضه إلى قابس سنة 178 هـ/794 م، وبذلك انقرضت ولاية المهالبة بإفريقية. وكم من عامل كان سببا في سقوط الدولة بظلمه وسوء تدبيره، « والملك للّه حده».

هرثمة بن أعين

بعثه الرشيد سنة 179 هـ/795 م، فأحسن السيرة وحبّب إليه الرعيّة، فدانت له قلوبهم ورقابهم، ومن آثاره بإفريقية بناء رباط المنستير[1] وسور مدينة طرابلس.

ثمّ إن هرثمة لأمر ما عزم على التخلّي عن الحكم، فاستقال من الولاية ورحل من القيروان وخلفه محمّد بن مقاتل العكيّ.

---

(1) **المنستير** : مدينة من مُدن الساحل التونسي، تقع بين سوسة والمهديّة. كانت في أوّل أمرها معقلا يرابط فيه المسلمون لحماية الثغر من نصارى البحر المتوسّط. ثمّ بنى الناس حول القصر شيئا فشيئا إلى أن صارت مدينة أواخر القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر الميلادي.

محمّد بن مقاتل العكيّ

كان هذا الوالي أخاً للرشيد من الرضاع، قدم إلى إفريقية سنة 181 هـ/797 م، وسلك مع الأمّة سيرة الجور والعنف، ظنّا منه أنّ الخليفة أقطعه البلاد لقرابته منه، فتوغّرت عليه الصدور واختلّت لديه الأمور وثار عليه عامله على مدينة تونس، تمّام بن تميم، فخرج له العكي ورجع مهزوما وتحصّن بدار سكناه في القيروان. وتمادى تمّام في متابعته حتّى أطرده من إفريقية سنة 183 هـ/799 م، فاستنجد المكيّ حينئذ بعامل الزاب إبراهيم بن الأغلب الذي أسرع إلى نجدته وقمع الثوّار بثبات وحسن تدبير. وعندئذ وافى عهد الخليفة بعزل العكيّ وتعيين إبراهيم بن الأغلب مكانه، فصارت الإمارة وراثية.

نظام الحكم في إفريقية

كانت إدارة البلاد الإفريقية، من تاريخ الفتح إلى قيام الدولة الأغلبية، منوطة إلى عهدة وُلاَة يعيّنهم الخليفة ويوجّههم من المشرق نوّاباً عنه، ويقيم الوالي في دار الإمارة[1] بالقيروان، لأنّ وظيفته تقتضي النظر الأعلى في شؤون الدواوين الرسمية ومن أهمّها: ديوان الجند، وديوان الخراج، وديوان الرسائل، ولكل واحد منها فروع يقوم بخدمتها كتاب ومحاسبون.

أما جهات البلاد فكان يديرها عمّال يختارهم الوالي، وكانت إفريقيّة منقسمة عهدئذ إلى خمسة أعمال:

1– تونس وما يليها من شمال القطر التونسي.

2– الزاب وقاعدته طُبْنة وهو يمتدّ إلى جنوب عمل قسنطينة.

3– قسطيلية وهي بلاد الجريد اليوم وقاعدتها توزر.

4– طرابلس ونواحيها إلى حدود برقة.

5– المغرب ويحتوي على المغرب الأقصى والسوس، وقاعدته تارة طنجة وتارة ولّيلي، ودام ذلك إلى أن استقلّت دولة الأدارسة وأسّسوا مدينة فاس التي أصبحت قاعدة البلاد.

وربّما كان يعتري تقسيم الأعمال على هذه الصورة بعض التغيير، كالتحاق الأندلس بإفريقية قبل استقلالها وصقليّة بعد فتحها، وإنّما حصل ذلك التغيير بحسب الظروف والزمان.

---

(1) **دار الإمارة** : أنشأها عقبة بن نافع لمّا أسّس القيروان وجعلها جوار الجامع الأعظم من ناحيته القبليّة.

عبد الرحمان بن زياد

أبو البقاء عبد الرحمان بن زياد بن أنعم المعافري الإفريقي. وُلد سنة 64 هـ/683 م، فعُدّ لذلك أوّل مولود في الإسلام بعد فتح إفريقية. وكان أبوه زياد من وجوه الجند العربي الذي قدم مع عقبة بن نافع في المرّة الثانية.

رحل عبد الرحمان إلى المشرق للتفقّه في الدين، فروى عن جماعة من التابعين، وصاحب زماناً أبا جعفر المنصور قبل خلافته وزاولا العلم معاً، ثمّ رجع إلى إفريقية وولي القضاء العام بها وانتفع به جمّ غفير، وعاد مرّة أخرى إلى العراق واجتمع بأبي جعفر المنصور وقد ارتقى إلى الخلافة، فعرض عليه المقام في بغداد فلم يقبل، وعندئذ عيّنه قاضياً على إفريقية صحبة محمّد بن الأشعث فبقي عبد الرحمان على القضاء إلى أن توفّي في رمضان سنة 121هـ، ومن شعره يتشوّق إلى مسقط رأسه القيروان مدّة إقامته بالعراق:

مسيرة أشهر للعير نصّا ... وللخيل المضمّرة العتاق
فبلّغ أنعما وبني أبيه ... ومن يرجى لنا وله التلاقي
فإن اللّه لو خلّى سبيلي ... لجدّ بنا المسير إلى مُزَاق[1]

ومن منثور كلامه وهو يدلّ على عفّته وورعه قوله :

« إذا رأيتَ الهديّة دخَلَتْ دارَ القاضي، فاعلم أنّ الأمانة قد خرجت منها ».

(1) **مُزاق** : هو اسم لإفريقية قديماً.

الفصل التاسع[1]

الدولة الأغلبيّة

(من سنة 184 / 800 إلى سنة 296/ 909)

الاستقلال الداخلي

لمّا وصل أمر الرشيد بعزل محمد العكيّ، رغب أهل إفريقية في بقاء إبراهيم بن الأغلب عليهم وداخلوه بطلب الإمارة. فعرض إبراهيم الأمر على الخليفة واشترط على نفسه أن يترك المائة ألف دينار التي كانت تُوجَّه من مصر سنويًّا إعانةً لإفريقية على القيام بمصالح الإمارة، والتزم بأن يدفع خراجا للخلافة قدره أربعون ألف دينار ذهبا في كلّ عام. فاستشار الرشيد وزراءه ورجال دولته ومنهم هرثمة بن أعين أمير إفريقية السابق، فاستصوبوا الرأي ووافقوا عليه لما علموا من صفات إبراهيم الحميدة، فكتب الرشيد له العهد بالولاية في جمادى الثانية 184/ فيفري 800[2]، وجعل الإمارة لعقبه يتوارثونها من بعده، ومن ذلك الحين أصبحت إفريقيّة تتمتّع باستقلالها الداخلي، وبقيت مرتبطة بالخلافة العباسية في أمورها العموميّة المهمّة. وعلى هذه القاعدة انتصبت الأسرة الأغلبية على عرش إفريقية وأدارت شؤونها ما ينيف عن المائة عام.

1- إبراهيم بن الأغلب

كان إبراهيم قويّ العزيمة، ثابت المبدأ، لا تزعزعه الشدائد. وكان مع ذلك عالما، أديبا، خطيبا، ذا نجدة وبأس، رؤوفا بالرعيّة. ولي الأمر وإفريقية في غاية الاضطراب والاختلاف، فما زال حتى دانت له البلاد، عربها وعجمها، واجتمعت عليه الكلمة. شرع سنة 185/ 801 في بناء مدينة على ثلاثة أميال من القيروان، سمّاها **العبّاسيّة**[3] وانتقل إليها بآل بيته وحشمه واتخذها دار

1- لمزيد التفاصيل انظر: الدولة الأغلبية: التاريخ السياسي، تأليف محمد الطالبي وتعريب المنجي الصيّادي، دار الغرب الإسلامي (ط.ث)، بيروت، 1995 (م).

2- ذكر هذا التاريخ كلّ من ابن الأثير (الكامل، 104/5) وابن خلدون (العبر، 486/3)، (م).

3- العباسيّة: وكانت تعرَف أيضا «بالقصر القديم» انطمست الآن آثارها، وتسمّى بقايا أنقاضها «بقصور الأغالبة» في جنوب القيروان على أربعة كم منها.

إمارة، وفيها استقبل سفراء شارلمان[1] ملك الإفرنج في أبّهة عجيبة.

وحاول أهل طرابلس المخالفة على إبراهيم سنة 189/ 805[2] فبعث إليها العساكر وقمع فتنتهم وساد الأمن في أنحاء البلاد. وإبراهيم هو أوّل من أدخل زنوج السودان في صلب الجيش الإفريقي، وقد بلغ عددهم في أيّامه 10.000 جندي، وتوفي إبراهيم في أواخر شوال سنة 196/ 812، وعهد بالإمارة من بعده إلى ابنه عبد اللّه.

2- أبو العبّاس عبد اللّه

لما توفّي إبراهيم كان ابنه عبد اللّه غائبا في طرابلس، فأخذ له البيعة أخوه زيادة اللّه حتى قدم سنة 197/ 813 واستلم الأمر واتّبع سيرة العنف، منها أنّه غيّر عُشُر الحبوب الذي يؤخذ من عين الحبّ وجعله ضريبة على الأرض أخصبت أم أجدبت، وحدّد على كلّ فدّان ثمانية دنانير، فضاق الناس لذلك ذرعا. ونصحه كثير من العلماء والصالحين، فاستهان بهم ولم ينتصح. ولولا ما مهّده أبوه من الدعة لما استقام له الأمر، وتوفّي عبد اللّه سنة 201/ 817، فقام بعده أخوه زيادة اللّه.

3- زيادة اللّه الأوّل

بويع في ذي الحجّة من السنة [جوان 817] ووفاه التقليد من قِبَل المأمون. وكان زياد اللّه أعلم أهل بيته، فصيح اللسان أحسن أبوه تربيته وضمّ إلى صحبته العلماء حتى تضلّع في اللغة العربيّة وآدابها.

وفي سنة 208/ 824 خرج عليه قوم من الجند بتونس برئاسة منصور الطنبذي[3]، واستولوا شيئاً فشيئا على معظم الإمارة وامتلكوا القيروان، ولبث زيادة اللّه في العباسيّة يترصّد إلى أن أمكنه الظهور على الثائرين وقتل قائدهم منصور، ووضعت الحرب أوزارها فصفا له الجوّ.

فتح صقليّة

تقدّم الخبر عن غزو جزيرة صقليّة مراراً في عهد وُلاَة إفريقية السابقين. فلمّا استوثق الأمر لزيادة اللّه وجد فرصة سانحة لفتحها بسبب الهرج الفاشي

1- شارلمان: (أو كرلوس الكبير)، أحد ملوك فرنسا العظام، تولّى من سنة 768 إلى سنة 814، وكانت بينه وبين هارون الرشيد اتصالات وديّة ومهاداة مبسوطة في التواريخ.

2- الكامل، 121/5، (م).

(3) الطّنبذي: نسبة إلى **طُنْبُذَة**، قصر حصين كان يقع في مكان الحمّدية الآن، على مقربة من مدينة تونس.

بها لتنافس وُلاَتها الروم المُعيَّنين من قِبَل قيصر القسطنطينيّة.

ففي سنة 212/ 827 جهّز زيادة اللّه أسطولا عظيما في دار الصناعة بسوسة، واستعمل عليه أسد بن الفرات، قاضي القيروان وسيّره إلى صقليّة، فنزل الجند في مدينة مازرة، والتقوا بجموع الروم، فهزموهم وغنموا ثمّ استولى المسلمون على عدّة حصون ومدن من الجزيرة. وكتب زيادة اللّه إلى المأمون يعلمه بهذا الفتح.

مآثر زيادة اللّه

حظيت إفريقية في عهد هذا الأمير بعمران وافر حتى أن خراجها السنوي تضاعف وبلغ 13 ألف درهم مرّتين، ونموّ الثروة كما لا يخفى يساعد الأمراء الصالحين على رقيّ البلاد وإنشاء المعالم النافعة وقد جدّد زيادة اللّه بناء جامع عقبة من أصله وتركه على الهيئة التي هو عليها الآن. وأحدث جسرا عظيما قرب القيروان يعرف «بقنطرة أبي الربيع»، وحصّن مدينة سوسة بسور مُحكَم البناء، زيادةً على ما شيّده من القصور والمعاقل، مثل رباط سوسة المعروف بالقصر وغيره.

وتوفّي زيادة اللّه الأوّل في عزّة ملكه يوم الثلاثاء 4 رجب من سنة 223/ 11 جوان 838.

4- الأغلب بن إبراهيم

وكنيته «أبو عِقَال» تولّى بعد أخيه زيادة اللّه وأحسن إلى الجند، فاستمال قلوبهم وأجرى الأرزاق الواسعة على عُمّاله، فقبض بذلك أيديهم عن الناس، وجهّز جيشا لفتح ما بقي من صقليّة سنة 224/ 839، فاستولى على عدّة حصون منها، وتوفّي في 22 ربيع الثاني 226/ 18 فيفري 841، فتولّى الإمارة ابنه محمد .

5- محمد الأغلبي الأوّل

ويُكنّى «أبا العبّاس». كان عالي الكعب مظفّرًا في حروبه، أنشأ عقب إحدى انتصاراته مدينة بالمغرب الأوسط [الجزائر] سمّاها العبّاسيّة. ومن آثاره تشييده لقصر مدينة سوسة وجامعها الكبير القائم الذات إلى حدّ الآن، ومن حسناته أيضا ولاية الإمام سحنون قضاء إفريقية وحسبتها، ولم يزل معظّما منصورا إلى أن توفّي سنة 242/ 856، فقام بعده ابن أخيه أحمد.

6- أبـو إبراهيـم أحمـد

بُويع يوم وفاة عمّه أبي العبّاس محمد وهو ابن عشرين عاما، وكان أجمل الأغالبة خَلْقا وخُلُقا، حسن السيرة، فاضلا، رفيقا بالرعيّة، مُولَعا بعمران البلاد، كثير البرّ على حداثة سنّه، كفاه أثَرًا باقيا المعالم الجليلة التي أمر ببنائها، منها الحوض الكبير بالقيروان المشهور اليوم باسم «فسقيّة الأغالبة»[1]، وماجل القصر بسوسة وأدخل على جامع الزيتونة بمدينة تونس عدّة تحسينات فنيّة كَسَتْه ذلك الطراز البديع الذي نراه عليه اليوم من قباب مُضلّعة وأعمدة رخام وزخارف ونقوش في الحجارة، منها تلك الكتابة بالخطّ الكوفي العجيب المرسومة حول قبّة المحراب، وقد تحاشى الأمير أن يرسم اسمه عليها، فنسبها إلى الخليفة العبّاسي المستعين باللّه. كما بنى في جامع عقبة القبّة العجيبة الخارجة عن البهو وفرشه بالبلاط الأبيض، ونصب به محراب الرخام المنقوش والمنبر العديم النظير، وأصلح قنطرة باب أبي الربيع، وجعل سورا محيطا بمدينة صفاقس، وله غير ذلك من المباني الشامخة والمعاقل الحصينة وقد أنفق هذا الأمير على ما أنشأه 300.000 دينار، وهو مبلغ جسيم بالنسبة إلى ذلك الزمان.

وفي أيّامه استولى المسلمون على قصريانة من أكبر حصون صقليّة المنيعة، وكتب بالفتح إلى الخليفة المتوكّل العبّاسي وأهدى إليه من سبيها. وتوفّي أبو إبراهيم يوم الثلاثاء ذي القعدة 249/ ديسمبر 863[2].

7- زيـادة اللّـه الثـاني

بُويع يوم وفاة أبيه أبي إبراهيم، وكان عاقلا، حليما، جميل الأفعال، إلاّ أنّ مدّته لم تطل حيث توفي في ذي القعدة 250 هـ/ ديسمبر 864 م.

8- محمـد الثـاني أبـو الغرانيـق

وقد ولي بعده ابن أخيه المُلقّب «بأبي الغرانيق»، عُرف بذلك اللّقب لولوعه بصيدها حتى أنه ابتنى قصرا للصيد أنفق عليه 30.000 دينار، وبالرغم من ذلك كان كريما رفيقا محبّا للعدل. وفي عهده تمّ فتح جزيرة مالطة نهائيا وضُمّت إلى إمارة إفريقية سنة 255/ 868. واستولى المسلمون على عدّة حصون من صقلية بعد حروب ومشاق، وتوفي أبو الغرانيق في جمادى الأولى 261/ فيفري 875[3].

---

(1) هذه الفسقية عبارة عن صهريج عظيم مستدير الشكل يبلغ قطره 150 مترا، ينصبّ فيه ماء أودية مجلوبة إليه بصنعة عجيبة، ومنه كان يشرب أهل القيروان في سنوات الجدب.

(2) حسب ابن عذاري، البيان، 113/1، (م).

(3) انظر، ابن عذاري، البيان، 116/1، وابن الأثير، الكامل، 5/6، (م).

9- إبراهيم الثاني

فقام بعده إبراهيم الثاني أو الأصغر، وكان أبو الغرانيق قد عهد بالإمارة إلى ابنه، واستحلف أخاه إبراهيم هذا على أن لا ينازع ابن أخيه الأمر، بل يكون نائبا عنه إلى أن يكبر. فلمّا توفّي أبو الغرانيق أتى أهل القيروان إلى إبراهيم وراودوه على قبول بيعتهم، لما ظنّوا فيه من حسن السيرة والعدل، فاعتذر أوّلا ثم استجاب لطلبهم وانتقل إلى قصر الإمارة وباشر شؤون الحكم.

وقد اختلف المؤرّخون في سيرته، فبعضهم ينسب إليه الاستقامة والفضل، والبعض الآخر يذكر أنّه كان ظلوما، غشوما، سفاكاً للدماء، لما أصابه في آخر ولايته من مرض السوداء، ففسد رأيه وأسرف في التعدّي على الناس، وقتل من خدمه وأقاربه ما لا يُحصَى، ومهما يكن من أمر، فإن إمارة إبراهيم الثاني تمتاز بإنشاءات عظيمة الشأن خلّدت ذكره ورفعت في التاريخ قدره، وكان فخرا للقطر مدى الدهر.

ففي سنة 263/ 876 - 877 ابتنى مدينة رقّادة[1] قرب القيروان اتّخذها دارا لملكه، وانتقل إليها من العبّاسيّة مع أهل بيته ورجال دولته، وقد شيّد فيها القصور والدور والصهاريج الضخمة لماء الشراب ولسقي الحدائق الغنّاء التي أحدثها. ونصب في إحدى عمارها «بيت الحكمة» التي جلب إليها من بغداد ومن مصر علماء أجلاّء وأطبّاء وفلكيّين وموسيقيين، وفتح مكتبتها إلى القصّاد من جميع أنحاء البلاد، فكانت مبعثاً جديداً لنشر الثقافة العلمية في إفريقية العربية.

وفي رقادة استقبل إبراهيم سفارات من ملوك الإفرنج ومن قياصرة الروم. وبالجملة فإن الإمارة الأغلبية بلغت في عهده إلى أوج القوّة والحضارة والرقيّ.

وفي سنة 264/ 878 ذاتها تمّ فتح سرقوسة قاعدة الروم في صقليّة بعد أن حوصرت تسعة أشهر، وبذلك استولى المسلمون على سائر الجزيرة، وبلغ إبراهيم أن العباس بن أحمد بن طولون خالف على أبيه صاحب مصر وتوجّه إلى المغرب بقصد امتلاكه، فاستولى على برقة ثمّ حاصر طرابلس التابعة لإفريقية كما أسلفنا، فسارع إبراهيم بتوجيه الجيوش، وبعد قتال عنيف انهزم العباس بن طولون سنة 267/ 881 ورجع إلى مصر خائبًا. وانتقل إبراهيم بعد ذلك إلى سكنى مدينة تونس التي اتّخذ فيها منازل عديدة، من بينها القصبة في أعلى

---

(1) هي في جنوب القيروان تبعد عنها بمسافة ثمانية أميال، وأطلال أنقاضها ظاهرة، منها القصر العظيم الشأن المعروف باسم «البحر» لمجاورته لبركة من الاتساع والعظمة بمكان.

المدينة، ثم تحرّك سنة 283/ 896 لمحاربة ابن طولون بنيّة الاستيلاء على مصر، فاعترضته في طرابلس قبائل نفوسة البربريّة، فهزمهم وكرّ راجعا من طريقه.

غـزو إيطاليـا

وفي أثناء ذلك ورد على إبراهيم رسول الخليفة المعتضد العباسي حاملا تقليد الولاية إلى ابنه عبد اللّه، فامتثل إبراهيم إلى الأمر وسلّم مقاليد الحكم إلى ابنه. ثمّ حشد الجنود لغزو بلاد الروم، وركب من سوسة سنة 289/ 902 في جيش جرّار يحمله أسطول عظيم فسار إلى صقلية ثم عبر مجاز مسينة ودخل جنوب إيطاليا، فلاقاه سكّانها بالطاعة والجزية، ونازل مدينة كُسَنْتَه[1] وقاتل قومها فأصابه رمح قاتل، فتك به، وقِيل مات بعلّة مزمنة. ويقال إن إبراهيم كان قاصدا رومة ثم القسطنيطينية لولا انقضاء أجله المحتوم، ورجع به المسلمون إلى صقلية فدفنوه بقاعدتها بلرم وبُنِي على قبره قصر. والملك للّه وحده.

10- عبد اللّه الثاني

ويُكنّى أبا العبّاس جدد البيعة على الناس لما خرج أبوه إبراهيم إلى بلاد الروم، وكان شهما، عفيفا، منصفا، أديبا. استقرّ بمدينة تونس ولبس الصوف تنسّكا منه وجلس للمظالم بنفسه، وكتب إلى العمال بالرفق بالرعيّة. وخلال تلك المدّة ظهرت في المغرب الأوسط بجبال زواوة [القبائل] دعوة الفاطميين من آل البيت على يد الداعي أبي عبد اللّه الصنعاني، ولاقت من البربر -لاسيما من قبيلة كتامة- أذنا صاغية. فأخذت الدعوة الشيعية تنتشر بسرعة إلى حدّ أنها أصبحت تهدّد إمارة إفريقية، وحاول أبو العبّاس عبد اللّه قمع هذه الثورة فلم يقدر على ذلك لارتدائها بصبغة الدين، وتمكّنها لذلك من نفوس عامّة البربر [المعروفين بتعلّقهم بآل البيت].

وفي مطلع سنة 290/ 903 اعتقل عبد اللّه الثاني ابنه أبا مضر زيادة اللّه لما بلغه عنه من إقباله على اللذات واللهو، واعتزامه الوثوب عليه، وكان زيادة اللّه وقتئذ عاملا لأبيه على صقلية. فعزله عنها وسجنه في تونس، فداخل نفرا من مواليهم على قتل أبيه - وقيل تآمروا عليه من تلقاء أنفسهم - فوثبوا على عبد اللّه في نومه وعجّلوا به ليلة الأربعاء 28 شعبان 290/ 27 جويلية 903، وأُطلِق زيادة اللّه من اعتقاله وبُويِع بالولاية.

---

(1) كسنتة : مدينة إيطالية معتبرة بأرض قلورية أو كلابرية (Calabre) قريبة من خليج طرنطة.

11- زيـادة اللّـه الثـالث

تولّى زيـادة اللّـه الثـالث ونـار الدعـوة الـتي أشـعلها الفـاطميّون تـأكل أطراف مملكته و لم يُغْنِ عنه شيئا تقرّبه من الخلافة العبّاسيّة الـتي كـانت وقتئـذ في دور التراجع. واشتدّت صولة أبـي عبـد اللّـه الصنعـاني في الناحيـة الغربيـة، فوجّه زيادة اللّه جيشا يبلغ 40.000 رجل مع قريبـه إبراهيـم بـن أبـي الأغلـب والتقى الجمعان سنة 296/ 909 بأحواز الأربس[1]، فكانت الدائرة على الجيـش الأغلبي، ولمّا بلغ زيادة اللّه خبر هذه الهزيمة تحقّق مـن زوال أمـره، فجمـع مالـه وآل بيته وخرج من رقّـادة ليلـة الاثنـين 26 جمـادى الثانيـة مـن السـنة وقصـد المشرق مستنجداً بالخليفة المكتفي العباسي. و لم يتمّ له حال وبقي متردّدا ما بين مصر والشام في ترقّب النجدة من الخليفة إلى أن أدركه الأجل بالرملة من بـلاد فلسطين.

سـقوط الدولـة الأغلبيـة

وبوفاة زيادة اللّه الثالث سقطت الدولة الأغلبية الـتي دامـت في الحكـم 112 سنة، وسبحان من لا ينقضي سلطانه.

ويمكن أن نذكر باختصار أنّ دولة بني الأغلب كانت أوّل دولـة عربيـة استقلّت بحكم إفريقية مع اعترافها اسميّا بالسيادة العبّاسية. وأنّها اعتنـت طـوال مدّتها بترقية البلاد ماديّا وأدبيا، وقد استعملت في سبيل ذلك كلّ الوسائل التي من شأنها تحسين الفلاحة بإنشاء مصـانع للمـاء في كافـة أنحـاء البـلاد، وترقيـة الصناعة والتجارة بتمهيد الأمن وحراسة المواصلات، حتى قـال المـؤرخ الكبـير ابن الأثير:

«كان القوافل والتجّار يسيرون في قطر البلاد آمنين مطمئنّين».

وقد شيّد بنو الأغلـب معـالم فـاخرة، ذات منـافع عموميّـة، لا تُعَـدّ ولا تُحصى، علاوة على عنايتهم بنشـر العلـوم والفنـون، ممّـا سـاعد الشـعب علـى اكتساب منصب ممتاز بين الأمم. أضف إلى ذلك الفتوحات العظيمة في البحـر الأبيض المتوسّط، بفضل منشآتهم العسكرية وقوّة أساطيلهم الـتي لم يكـن لهـا نظير في بقيّة الأقطار الإسلاميّة.

---

(1) الأربس: قرية كانت آهلـة بالسـكان تقـع في الشـمال الغربـي مـن البـلاد التونسـية تابعـة لمنطقـة الكاف.

أسد بن الفرات

أبو عبيد اللّه أَسَد بن الفُرَات بن سنان وُلِد سنة 142/ 759- 760 وقدم أبوه القيروان مع الأمير محمد بن الأشعث. سمع أسد بتونس من علي بن زياد ثم ارتحل إلى المشرق في طلب العلم سنة 172/ 788، فلقي من أصحاب أبي حنيفة القاضي أبا يوسف ومحمد بن الحسن وزُفَر، وأخذ عنهم وعن إمام دار الهجرة مالك بن أنس المُوَطّأ، وعن عبد الرحمان بن القاسم، وعليه دوَّن كتابه «الأسديّة» نسبة إلى اسمه. ورجع أسد إلى إفريقية فتصدّى للتدريس ونشر العلم فسمع منه خلق كثير منهم سحنون وغيره، وفي سنة 204/ 819 ولي أسد القضاء في القيروان وبقي في هذه الخطّة إلى أن عزم زيادة اللّه بن الأغلب على غزو صقلية، فطلب حينئذ منه أسد الإذن في الخروج إلى الغزو كأحد الأجناد، فعيّنه أميرا على الجيش. فقال أسد: «أصلح اللّه الأمير أبعد القضاء والنظر في الحلال والحرام تعزلني وتولّيني إمارة الجيش»؟ فقال له زيادة اللّه: «إني لم أعزلك عن القضاء وقد ولّيتك الإمارة وهي أشرف من القضاء، فأنت قاضٍ أمير». وخرج أسد في 10.000 مقاتل إلى ثغر سوسة، وقد خرج لتشييعه الأمير وأهل العلم ووجوه الناس، ولما ركب أسد ونُشِرت البنود والألوية وضُرِبت الطبول وصهلت الخيول ورأى أعيان الأمّة مصطفّين من حوله على الرصيف وقف وقال بأعلى صوته: « لا إله إلاّ اللّه وحده لا شريك له، يا معشر المسلمين! ما ولي لي أبٌ ولا جدّ ولاية قطّ، وما رأى أحد من سلفي هذا قطّ، وما رأيتُ ما ترون إلاّ بالأقلام، فأجهدوا أنفسكم وأتعبوا أبدانكم في طلب العلم وتدوينه وكابدوا عليه واصبروا على شدّته فإنكم تنالون به الدنيا والآخرة».

ثم أقلع الأسطول وحلّ بساحل صقليّة وقاتل أسد وكابد المشاقّ، وتواصلت عزيمته وثباته حتى فتح من الجزيرة مواضع كثيرة.

وتوفّي أسد من جراحات كثيفة أصابته في حصاره لمدينة سرقوسة وذلك في شهر ربيع الثاني سنة 213/ 828، ودُفِنَ بمحلّ استشهاده رحمه اللّه تعالى رحمة واسعة وجازاه عن الإسلام والمسلمين خير جزاء وأوفره.

الإمام سحنون

هو أبو سعيد سحنون بن سعيد بن حبيب التنّوخي، وُلِد في القيروان سنة 160/776 وتلقّى العلم في إفريقية عن علي بن زياد وأسد بن الفرات، ثم توجّه في طلب العلم إلى المشرق سنة 188/ 803، فزار مصر والشام والحجاز، وأخذ عن فطاحل تلك الأمصار، مثل عبد الرحمان بن القاسم وابن الماجشون ووكيع بن الجرّاح وغيرهم. وعاد إلى بلده سنة 191/ 806 فأظهر فيه علم أهل المدينة ومذهب مالك بن أنس، وهو أوّل من ركّزه في إفريقية مركزا ثابتا، ولما اشتهر سحنون وذاع صيته راوده الأمير أبو العبّاس أحمد بن الأغلب حولا كاملا على خطّة القضاء حتى قبل منه الولاية سنة 234/ 848، على شروطها منها: إطلاق يده في تنفيذ الأحكام الشرعيّة على أقاربه من بني الأغلب ورجال دولته، ومنها إلزام المتنازعين من البيت المالك بالحضور لديه مع الخصوم، فقبل أحمد الشروط كلّها وانتصب سحنون للقضاء وباشر الحسبة والمظالم بنفسه ووفّى العدل حقّه إلى أن لُقّب «بسراج القيروان».

ولم يمنع سحنون من مباشرة الأحكام، من بثّ العلم ونشره، فكان يحضر مجالسه بجامع عقبة تلامذة من جميع أقطار المغرب والأندلس يروون عنه أصول الدين وفروعه. وقد عُدّوا له نحو 700 رجل بالآفاق تخرّجوا عليه.

وألّف سحنون كتابا عظيما سمّاه «المُدَوَّنة الكبرى» جمع فيه مسائل الفقه على مذهب الإمام مالك بن أنس.

وتوفّي يوم 6 رجب سنة 240/ 854 في دولة محمد بن الأغلب، ودُفِن بالقيروان وضريحه مشهور للخاصّ والعام.

وسُمْعَة هذا الحبْر ذائعة في العالم الإسلامي شرقاً وغرباً.

رقّـــادة

مدينة رقّادة بناها الأمير إبراهيم بن أحمد واتّخذها داراً ووطناً، وانتقل إليها من مدينة القصر القديم (العبّاسيّة) وبنى بها قصورا عجيبة وجامعًا وعُمِّرَت بالأسواق والحمّامات والفنادق، وأجرى إليها المياه، واغترس فيها صنوف الثمار الطيّبة والرياحين، وبنى على القصور التي أحدثها فيها سورا، وأحَدُ هذه القصور يسمّى «بغداد» وآخر منها يسمّى «المختار»، فصارت بعد حين أكبر من القيروان وبينهما ستّة أميال، ولما ولي زيادة اللّه الأخار انتقل إليها وحفر بها صهريجا طوله 500 ذراع وعرضه 400 ذراع، وأجرى إليه ساقية وسمّاه «البحر»، وبنى فيه قصرا سمّاه «العروس» على أربع طبقات أنفق فيه 200.000 دينار و32.000 دينار.

وكان عُبَيْد اللّه المهدي يقول: «رأيت ثلاثة أشياء بإفريقية لم أَرَ مثلها بالمشرق»، منها هذا القصر.

و لم تزل رقّادة دار ملك بني الأغلب إلى أن هرب عنها زيادة اللّه من عبد اللّه الشيعي، وسكنها عبيد اللّه المهدي إلى أن انتقل إلى المهديّة سنة 308/ 920، فدخلها الوهن وخربت.

من ابن الأبّار

افريقية التونسية

من الفتح العربي الى القرن الخامس للهجرة

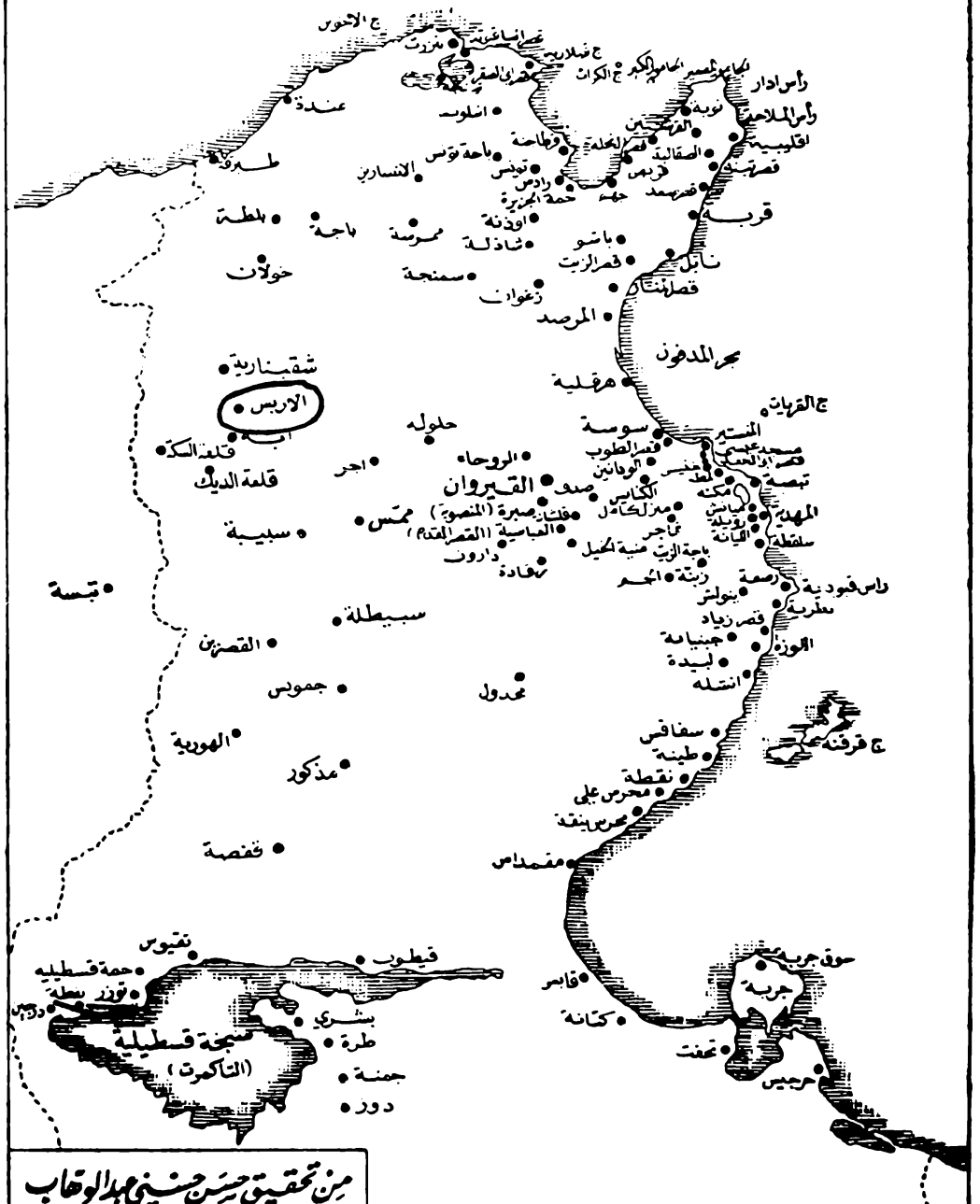

من تحقيق حسن حسني عبد الوهاب

الفصل العاشر

الدولة العبيدية[1]

(من سنة 296/ 909 إلى سنة 365 / 975)

تمهيد

أسلفنا أنّ نسل الإمام علي بن أبي طالب، وهم الفاطميّون، ما زالوا يطالبون بالخلافة منذ خرجت عنهم، ويرون أنّهم أحقّ بها دون غيرهم. وقد تحزّبت لهم شِيَع كثيرة، فكان الخلفاء من بني أميّة وبني العباس من بعدهم يتتبعونهم في كلّ مكان بالتشريد والقتل. وانزوى فريق عظيم منهم باليمن لبُعدها عن مقرّ الخلافة، وأخذ يبثّ الدعوة للفاطميّين بواسطة رجال مقتدرين أُرْسِلوا إلى النواحي من جملتهم ذلك السياسي المقتدر أبو عبد اللّه الصنعاني. قدم هذا الأخير إلى المغرب صحبة جماعة من كتامة كان اجتمع بهم في الحجّ، ولما استقرّ في بلادهم واجتمع بأعيانهم ورؤسائهم أظهر لهم الفقه والجدل، فمالت القبائل البربريّة لمقاله ورغبوا في صحبته، وعندئذ جاهر بمذهبه وأعلن إمامة أهل البيت ودعا للإمام المعصوم من آل الرضا. وبذلك صفا له البربر ودخلت كتامة في طاعته، فنظّمهم نظاما عسكريّا إلى أن تحقّق أمرهم، وإذ ذاك زحف بهم على إفريقية وافتتح مدنها الواحدة بعد الأخرى إلى أن وقعت الهزيمة الكبرى على الجيش الأغلبي بالأربس، كما تقدّم. وأقبل حينئذ أبو عبد اللّه القيروان ودخلها بجنوده وخرج العلماء والأعيان للقائه، فأمّن الناس ووضع يده على دواوين الدولة الأغلبية وذخائرها، وبعد أن وطّد الأمور، نهض إلى سجلماسة بالمغرب الأقصى لإنقاذ مخدومه عبيد اللّه المهدي الذي كان معتقلا هناك وسلّم إليه مقاليك الملك.

1- عبيد اللّه المهدي

أوّل من تولّى الخلافة من الفاطميّين بإفريقية هو عُبَيْد اللّه المُلقّب بالمهدي وبه سُمِّيَت الدولة العُبَيْديّة[2]. وقد اختلف النسّابون في نسبه اختلافاً

---

(1) انظر، الخلافة الفاطميّة بالمغرب، تأليف فرحات الدشراوي، تعريب حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1994 (م).

(2) فرّق المؤرّخون بين «العَبَيْديّين» و«الفاطميّين»، وإن كانت الدولة واحدة، فأطلقوا الاسم الأوّل على أمراء هذه الأسرة المتولّين في إفريقية وخصّصوا التعريف الثاني لمن تولّى منهم الخلافة في مصر.

كبيراً، فمنهم مَنْ رفعه إلى عليّ بن أبي طالب، ومنهم مَنْ قدح في نسبه، وعلى كلّ فالرأي المُعَوَّل عليه عند جلّ المؤرخين هو صحّة نسبته إلى آل البيت. X

ورث عبيد اللّه الإمامة عن والده، ولما فشلت دعوته بالشام طلبه المكتفي العباسي، فانتقل إلى العراق، ثم بلغه خبر استيلاء داعيته على القسم الغربي من إفريقية، فارتحل إلى مصر مستتراً بزيّ التجّار، ومنها دخل إفريقية والتحق بسجلماسة حيث اختفى، فأكرمه صاحبها أوّلا ثم سجنه بداره إلى أن أنقذه رسوله الصنعاني.

انتقل عبيد اللّه إلى إفريقية ونزل رقّادة واستحوذ على مخلّفات بني الأغلب وكانت شيئا كثيرا، في ربيع الثاني 297/ جانفي 910، ثم بايعه أهل القيروان البيعة العامة واستلم زمام الدولة وتلقّب بأمير المؤمنين[1]. وهو أوّل من تجاسر من القائمين على لقب الخلافة. ولّما دانت إفريقية للمهدي وباشر الأمور بنفسه، ضرب على يدي أبي عبد اللّه الداعي، لما توسّم فيه من علائم الندم على تقديمه للملك ولم يبطئ المهدي بالصنعاني إذ عجّل بقتله سنة 298/ فيفري 911. واستصفى آله، وكم يشابه هذا ما وقع لأبي مسلم الخرساني مع المنصور العباسي والتاريخ يعيد نفسه.

وأنف عبيد اللّه بعد ذلك من الإقامة برقّادة، لما كان يوجس خِيفَةً من مقاومة أهل القيروان - وهم سُنّيّون - لمذهبه الشيعي. فخرج سنة 300/ 912، في طلب موضع لبناء مدينة تؤويه وتصون أهل بيته، فأتى تونس وقرطاجنة وطاف الساحل التونسي إلى أن وقع اختياره على شبه جزيرة جمّة بين سوسة وصفاقس، فأمر ببناء مدينة في ذلك الموضع سمّاها **المهديّة** نسبة إليه. ولما تمّ تشييدها وتحصينها بأقوى ما يكون، انتقل إليها بمن معه سنة 308/ 920، واتّخذها مقرّا لدولته.

وفي أثناء تلك المدّة جهّز المهدي جيشا وجّهه إلى مصر مع ابنه الأكبر أبي القاسم فاستولى سنة 307/ 919 على كثير من المدن المصريّة كالإسكندرية وبلغ الفيّوم. كما وجّه جندا لإخضاع أهل صقليّة، وقد خالفوا عليه فتمكن منهم وولّى والياً عليه من قِبَله.

ولم يزل عبيد اللّه مظفّراً مُطاعا إلى أن وافاه أجله المحتوم في ربيع الأول سنة 322/ مارس 934، فقام بالأمر بعده ابنه ووليّ عهده أبو القاسم.

---

(1) انظر: كتاب «افتتاح الدعوة» للقاضي النعمان، تحقيق فرحات الدشراوي، تونس، 1986، (م).

2- القائم بأمر اللّه

اسمه نزار ويُكنّى بأبي القاسم، اعتنى من أوّل ولايته بشأن الأسطول فجهّز سفنا عظيمة شحنها بالجنود وسيّرها بقيادة يعقوب بن إسحاق إلى بلاد الروم، فافتتح مُدُنا وقلاعا عديدة منها جنوة[1]، وغزا سردانية وكرسيكا[2] وغيرهما. وبذلك علا صيت المسلمين في البحر الأبيض المتوسّط وخشيهم نصارى السواحل. وكان إنشاء هذا الأسطول بدار الصناعة في المهديّة، ومنها خرج للغزو.

وفي سنة 326/ 937 ثار على القائم رجل من الخوارج اسمه أبو يزيد مَخْلَد كيداد، ويدعى «صاحب الحمار». ظهر هذا الثائر بجبال أوراس [في الجزائر]، وكان نُكّاريًّا يستحلّ الدماء. فأخذ يدعو إلى السنّة والإنكار على المذهب الشيعي، إلى أن استمال قبائل من البربر وتلقّب بشيخ المؤمنين. ولما تمكّن من القبائل زحف إلى إفريقية التونسيّة في جيش يبلغ 100.000 مقاتل، ووالى الهزائم على أتباع الخليفة العبيدي وامتلك تونس والقيروان وضيّق على القائم. وفي آخر الأمر حاصره في المهديّة، فاستعان أبو القاسم بكتامة وصنهاجة، فأبلوا في الدفاع عن ملكه البلاء العظيم، وفي هذه الأثناء توفّي أبو القاسم في شوّال سنة 334/ ماي 946، والحرب قائمة على قدم وساق.

3- إسماعيل المنصور

تولّى الخلافة الفاطمية بعد أبيه، وكان ملكا جليلا عالما بليغا، شمّر عن ساعد الجدّ واتّبع أثر الثائر أبي يزيد الخارجي إلى أن أوقع به بأرض كتامة سنة 336/ 947 بعد اقتحام مشاقّ لا تحصى دلّت على ثباته، ولما قفل المنصور إلى إفريقية، دخل القيروان وأمر بإنشاء مدينة بالقرب منها سمّاها «المنصوريّة»[3] إعلاناً لانتصاره سنة 337/ 947 ثمّ حوّل نظره إلى شؤون البلاد، فشحن أسطولا لأرض الأفرنج وأمّر عليه القائد رشيق، فأتيح له فتح كبير. وهو الذي استعمل على صقلية بني أبي الحسين المشهورين بالكلبيّين، فاتصلت إمارتهم بها زمنا طويلا.

وتوفّي المنصور سلخ شعبان سنة 341/ 953، ودُفِن في قصره بالمنصوريّة.

---

(1) جنوة: أعظم مرسى تجاري في الجهة الشمالية من إيطاليا.

(2) كرسيكا وسردانيا: جزيرتان كبيرتان بغرب حوض البحر الأبيض المتوسّط، الأولى تابعة لفرنسا، والثانية تابعة لإيطاليا، وقد ملكها المسلمون زمانا طويلا.

(3) المنصوريّة: وتعرَف أيضا باسم «صبرة» تقع على بعد نصف ميل من القيروان، كانت بها بناءات وقصور شامخة اضمحلّت وانطمس رسمها، ولم يبق منها اليوم سوى الموقع وبعض الأنقاض.

4- المعزّ لدين اللّه الفاطمي

واسمه أبو تميم مَعَد، جلس على دست الخلافة بعد أبيه، وكان من أعظم الملوك قدرًا وأجلّهم خطراً. استهلّ المعزّ ولايته بتوجيه جيش إلى المغرب قائده الطائر الصيت جوهر الكاتب[1]، فجالت فيه عساكره ودوّخت نواحيه حتى أخضعتها سنة 348/ 959، واستولى على فاس عاصمة الإمارة الإدريسيّة، وبذلك اتّسعت مملكته من المحيط الأطلنطي إلى برقة.

وفي سنة 358/ 969 سيّر القائد جوهرا في جيش كثيف إلى مصر، لما بلغه من اضطراب أحوالها واختلال أمورها بعد وفاة كافور الإخشيدي، وما كاد يصل خبر مسيره إلى العساكر الإخشيديين حتى تفرّقوا هاربين. فدخل جوهر مصر بدون مقاومة وخطب فيها لسيّده المعزّ بعد أن اختطّ مدينة سمّاها القاهرة المعزّيّة، فأصبحت الديار المصريّة تابعة للدولة العُبَيْديّة.

انتقال المعزّ إلى مصر

ثمّ إنّ جوهراً عوّل على امتلاك الشام، فوجّه إليها جندا من عساكره الإفريقية، فاستولى على الرملة من بلاد فلسطين ثم على دمشق عاصمة الشام سنة 359/ 970. ولما ورد خبر هذا الفتح الجليل إلى المعزّ، عزم على الانتقال إلى مصر، وأخذ يرتّب شؤون مملكته المتّسعة، فاستخلف على إفريقية والمغرب الأمير بُلُكّين بن زيري الصنهاجي، وأقرّ بقيّة الولاة على أعمالهم. ثمّ تجهّز للرحيل، فأعدّ ألف حمل من الذهب، وأمر ببناء قصر في كلّ ثلاثين ميلاً ما بين القيروان ومصر. وكان خروجه من المنصوريّة بأهله وجنده وذخائره في شوّال سنة 361/ 972 في احتفال لم يُسمَع بمثله. ونزل بالقاهرة المعزّيّة التي أنشأها جوهر في رمضان سنة 362/ 973، فكان مقرّ ملكه وملك الخلفاء الفاطميين من بعده إلى آخر دولتهم. ومَلَك المعزّ مُلْكا لم يتسنّ لغيره، فكانت أوامره تُنفَّذ من أقصى الشام والحجاز إلى السوس الأقصى. وتوفّي في مصر سنة 365/ 976[2].

﴿ واللّه يؤتي ملكه من يشاء وهو على كلّ شيء قدير ﴾

---

(1) **جوهر الكاتب**: هو ذلك المولى اليوناني الأصل الذي تألّق في خدمة الدولة الفاطمية إلى أن بلغ أعلى المراتب. وقد عُرف أيضا باسم «جوهر الصقلي»، و«الصقلّي» تحريف لاسم «الصّقلبي» (م).

(2) تولّى الخلافة بعد المعزّ لدين اللّه عشرة خلفاء فاطميّين بمصر من سنة 365/ 976 إلى سنة 567/ 1171. وقد ضربنا صفحاً عن أخبارهم، إذ كانت دولتهم في غير البلاد التونسيّة.

عـودة السـلطة إلـى الـبربر

تمتاز الدولة العَبَيْديّة على من تقدّمها في الحكم بكونها تأسّسـت بدعـوة الدين، والقائمين لنصرتها هم البربر من قبائل المغـرب مثـل كتامـة وصنهاجـة، وقد كان الولاة الأمويّون والأمراء الأغالبـة اجتهـدوا في تكثـير السـواد العربـي والجنـود المضريّـة وجعلـوا شـجًّا في صـدور الـبربر وعضُـدا لمقاومـة الثـورات الداخلية، فلما تولّى إبراهيم الثاني من بني الأغلب، ارتكب غلطا سياسيّا كـان سببا في انقراض دولتهم. وذلك أنه شرّد كثيرا من تلك الجيوش العربيّة الداخلة إفريقية عند افتتاحها، ومعظـم جنـود هـذه الجيـوش مـن قيـس وتميـم وقضاعـة والأزد وسواهم. ومن ذلـك الحـين تطـاولت رقـاب كتامـة وغـيرهم حتـى لمـا دعاهم أبو عبد اللّه الصنعاني لأمر الفاطميين التفّوا حوله وكانوا أكـبر مسـاعد على سقوط السلطة العربيّة. وحيث أنّ الخلفاء العبيديّين لمـا تسـنّى لهـم الملـك، راعوا حقوق أنصـارهم مـن الـبربر، فقـد أنـاطوا إليهـم أهـمّ الوظـائف وأسمـى المراتب، من قيادة الجنود ورئاسة المصالح الدولية، و لم يمـض زمـن طويـل حتـى تسـلّطوا علـى الولايـات فـانصرمت الدولـة العربيّـة المضريّـة وتلاشـى نفوذهـا تدريجيّا، وقامت على أنقاضها سـلطة القبـائل البربريـة مثـل: كتامـة وصنهاجـة وهوّارة لقوّة العصبيّة فيهم.

وممّا زاد الطين بلّة استقلال عبيـد اللّـه المهـدي بخلافـة إفريقيّـة، وبذلـك انقسمت الدولة الإسلاميّة إلى ثلاث خلافات:

1- الخلافة العبّاسية بالمشرق وقاعدتها: **بغداد**

2- الخلافة الأمويّة بالأندلس وقاعدتها: **قرطبة**

3- الخلافة العبيديّة الفاطميّة في إفريقيـة وقاعدتهـا: **المهديّـة**، ثـم في مصـر وقاعدتهـا: **القاهرة**.

﴿ واللّه لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم ﴾.

ملحق
(نصّ لم يسبق نشره بقلم المؤلّف)

الدور العُبَيْدي

تهذيب البربر

تقدّم لنا ذكر زوال الإمارة الأغلبيّة وانتصاب دولة بني عُبَيْد المدعوّين بالفواطم مكانها.

قام بنصرة هذه الأسرة الجديدة أقوام من البربر مثل كتامة وصنهاجة وغيرهم وحاربوا بجدّ واجتهاد السلطة العربيّة في إفريقية حتى ملّكوا مواليهم ناصية المغرب بأسره، ثمّ تجاوزوا حدوده إلى المشرق ونشروا الألوية الخضر الفاطميّة على ربوع مصر والشام والحجاز ودكّوا الخلافة العبّاسيّة على عروشها فأصبحت بمساعيهم شبحا ضئيلا يتوارى بين دجلة والفرات وكادوا يقضون عليها القضاء المبرم.

فما السياسة العجيبة يا تُرى التي سلكها الملوك العبيّديون مع شيعتهم من البربر حتى يتفانوا في إعلاء شأنهم بهذا الإخلاص المدهش؟ ذلك أنّ بني عُبَيْد درَوْا كيف يستميلون خواطر أنصارهم ويجلبونهم بلطف عواطفهم، فاستكفوا بهم في المهمّات وألقوا إليهم مقاليد الأمور وزمام الولايات، بعد أن درّبوهم على السياسة وأهّلوهم للرئاسة.

أجل! إن اعتناء الأمراء الفاطميّين بترقية رجالات البربر لم يكن منحصراً في تلقين قوّادهم مكائد الحرب وأساليب تعبئة الجيوش وتدبير الأعمال الكبار، بل إنّ تعليمهم كان شاملا لكلّ ما من شأنه تربية النفس وغرس الأخلاق الحميدة وتهذيب الأعلاق وترغيبهم في النّحائز الفاضلة للنهوض ببيئتهم الاجتماعية فلقّنوهم وسائل الحياة المنزلية على ما كان متعارفا وأوضحوا لهم السلوك حتى في سيرة الرجل مع زوجه وفيما سنمثله بين يديك، دليل قاطع وبرهان مبين.

حسب الواحد الواحدة

استطرد الإمام المقريزي[1] في ترجمة رابع الخلفاء الفاطميّين، وهو معدّ الملقب بالمعزّ لدين الله، الحكاية الآتية:

---

(1) المقريزي: كتاب الخطط ج1، ص352، طبعة مصر.

«ولّما كان في بعض الأيّام استدعى المعزّ لدين اللّه في يوم شاتٍ عدّة من شيوخ كتامة، فدخلوا عليه في مجلس بقصر المنصوريّة - قرب القيروان- قد فُرِش باللبود وحوله كساء وعليه جبّة، وحوله أبواب مُفتّحة تفضي إلى خزائن كتب وبين يديه دواة وكتب. فقال:

يا إخواننا، أصبحتُ اليوم في مثل هذا الشتاء والبرد فقلت لأمّ الأمراء[1] - وإنّها الآن بحيث تسمع كلامي - أترى إخواننا يظنّون أنّا في مثل هذا اليوم نأكل ونشرب ونتقلّب في المثقل والديباج والحرير والفنك والسمور والمسك والخمر والقباء، كما يفعل أرباب الدنيا؟ ثم رأيتُ أن أنفذ إليكم فأحضركم لتشاهدوا حالي إذا خلوت دونكم واحتجبت عنكم، وإني لا أفضلكم في أحوالكم إلاّ بما لا بدّ لي منه من دنياكم وبما خصّني اللّه به من إمامتكم، وإنّي مشغول بكُتُبٍ ترد عليّ من المشرق والمغرب أجيب عنها بخطّي، وإنّي لا أشتغل بشيء من ملاذّ الدنيا إلاّ بما يصون أرواحكم ويعمّر بلادكم ويذلّ أعداءكم ويقمع أضدادكم. فافعلوا يا شيوخ في خلوتكم ما أفعله ولا تظهروا التكبّر والتجبّر فينزع اللّه النعمة عليكم وينقلها إلى غيركم، وتحنّنوا على مَنْ وراءكم ممّن لا يصل إليّ كتحنّني عليكم ليتّصل في الناس الجميل ويكثر الخير وينتشر العدل. **وأقبلوا بعدها على نسائكم وألزموا الواحدة التي تكون لكم ولا تشرهوا إلى التكثير منهنّ والرغبة فيهنّ**، فيتنغّص عيشكم وتعود المضرّة عليكم وتنهكوا أبدانكم وتذهب قوّتكم وتضعف غرائزكم. **فحسب الرجل الواحد الواحدة**. ونحن محتاجون إلى نصرتكم بأبدانكم وعقولكم، واعلموا أنّكم إذا لزمتم ما آمركم به رجوت أن يقرّب اللّه علينا أمر المشرق كما قرّب بكم المغرب، انهضوا رحمكم اللّه ونصركم».

فانظر يا رعاك اللّه إلى هذه الكلمات الجامعة للحكمة والسياسة الدالّة على تواضع وتضلّع كبار الأمراء العازمين على امتلاك القلوب للإقدام على مشاريع هامّة، والأقيال الخبيرين بأسرار النفوس.

عبد الوهّاب

---

(1) أمّ الأمراء هي زوج المعزّ لدين اللّه واسمها: السيّدة العزيزيّة وهي أمّ سائر أبنائه منهم الخليفة أبو منصور نزار الملقب بالعزيز بالله الذي تولّى الخلافة في مصر من 365/ 975 إلى 386/ 996، ومولده بالمهديّة سنة 344/ 955.

مواقع

مدينة المهديّة

المهديّة مدينة جليل قدرها، شهير في قواعد الإسلام ذكرها، وهي من بناء عُبَيْد اللّه المهدي أوّل خلفاء العبيديّين وإليه تُنسَب، وكان ابتداء بنائه لها سنة 303/ 915 وجعلها دار مملكته.

وأوّل ما ابتنى منها سورها الغربي الذي فيه أبوابها، ثمّ أمر بحفر مرسى المدينة، وكان حجرا صلدا، فنقره نقرا وجعله حصنا لمراكبه الحربيّة، وأقام على فم هذا المرسى سلسلة من حديد رفع أحد طرفيها عند دخول السفن ثم تُعاد كما كانت، تحصيناً للمرسى من دخول مراكب الروم وابتنى «دار الصناعة» وهي من عجائب الدنيا، ثم شرع في حفر الأهراء بداخل المدينة، وبنى الجِبَاب والمصانع، واختزن الأهراء بالطعام، وملأ الجباب [جمع جُبّ] بالماء.

وكان اتّساع المهديّة في أوّل بنائها من الجوف إلى القبلة قدر غلوة سهم، فاستصغرها المهدي عند ذلك، فردم من البحر مقدارها وأدخله في المدينة فاتّسعت، والجامع الأعظم الآن والدار المعروفة في القديم بدار المحاسبات من جملة ما ردم من البحر. وابتنى لسائر الناس مدينة أخرى تُسمّى زُوَيْلة وهي إحدى المهديّتين وبينهما قدر غلوة سهم، وجعل الأسواق والفنادق فيها، وأدار بها خنادق متّسعة تجتمع بها مياه الأمطار، فكانت كالربض لمدينة المهديّة. وكان بخارجها الحِمَى المعروف بحمى زويلة، وكان كلّه جنّات وبساتين بسائر الثمار وأنواع الفواكه.

من «رحلة التجاني»

صبرة - المنصوريّة

ومدينة صبرة متّصلة بالقيروان، بناها إسماعيل المنصور سنة 337/ 948 واستوطنها وسمّاها «المنصوريّة» وهي منزل الوُلاة إلى حين خرابها، ونقل إليها المعزّ بن المنصور أسواق القيروان كلّها وجمع الصناعات، ولها خمسة أبواب: الباب القبلي والباب الشرقي وباب زويلة وباب كتامة - وهو جوفي - وباب الفتوح، ومنه كان يخرج بالجيوش.

ويذكر أنه كان يدخل واحد أبوابها كلّ يوم ستة وعشرون ألف درهم (من المكوس). ولما أعاد المعزّ بن باديس الصنهاجي بناء سور القيروان سنة 444/ 1053 جعل السور ممّا يلي صبرة كالفصيل حائطان يتصلان إلى مدينة صبرة، وبينهما نحو نصف ميل، ولا سبيل لتاجر ولا وارد أن يدخل مدينة القيروان ما يجب عليه فيه المكس إلاّ بعد جوازه على مدينة صبرة.

من «المسالك» لأبي عبيد البكري

الفصل الحادي عشر

الدولة الصنهاجيّة[1]

(من سنة 362/ 972 إلى سنة 543 /1148)

تمهيد

تقدم لنا أن المعزّ لدين اللّه لما أزمع على الرحيل ونقل الخلافة العبيديّة إلى مصر، فكّر فيمن يبقيه على إفريقية والمغرب، فوقع اختياره على الأمير بلكين بن زيري من قبيلة ذات عصبية قويّة وبأس، وهي قبيلة صنهاجة البربرية التي قامت بأمر الدعوة الفاطمية بالمغرب الأوسط (الجزائر) وأيدت سلطانها بتلك النواحي. كانت الرئاسة في صنهاجة للأمير زيري بن مناد وهو أوّل من تولّى الحكم من قومه، وقاد الجيوش لنصرة العبيديين، فتأكّدت بذلك العلاقة بينه وبين المنصور بن القائم، لاسيما أيّام حرب الخارجي مخلد بن كيداد (صاحب الحمار)، كما أسلفنا، ولذا راعى المعزّ تلك الحقوق القديمة التي لصنهاجة على آبائه، فعيّن منهم بلكّين للنيابة عنه في المغرب.

بنو زيري

1- بُلُكّين بن زيري

عهد له المعزّ سنة 362/ 972 على إمارة إفريقية والمغرب، ما عدا صقلية وكنّاه «بأبي الفتوح يوسف»، وكان بلكين أشجع أهل بيته، ذا رأي ثاقب وعزم ثابت، وهو الذي اختطّ مدينة الجزائر بأمر من أبيه وكذلك مليانة وغيرها من المدن الجزائرية. وفي أيّامه حدثت قلاقل بالمغرب الأقصى فقصدها سنة 368/ 979 في جيوش جرّارة نظّمها بتدبير واستولى على فاس العاصمة المغربية وشتّت جموع زناتة وخاض حروبا عظيمة، ولم يزل مطاعا مظفّرا إلى أن توفّي سنة 373/ 984 في بعض حركاته بين تلمسان وسجلماسة فولي بعد ابنه المنصور.

2- أبو الفتح المنصور

بُويع بالإمارة في مسجد القيروان وكان فارسا مقداما، جرت بينه وبين أعمامه حروبا هائلة قابلها بصبر وجلد حتى انهزموا والتحق بعضهم بالأندلس،

---

(1) انظر، **الدولة الصنهاجيّة**، تأليف الهادي روجي إدريس، تعريب حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992 (م).

فاتفق لهم هناك أن أسّسوا مملكة بغرناطة أيام ظهور ملوك الطوائف فيها، ولما ازدهرت أيام المنصور جهّز هديّة ثمينة للخليفة الفاطمي في مصر، فأتاه منه سجلّ وهديّة فيها فِيَلة وزرافات وغير ذلك، وتوفي المنصور سنة 386/ 996 فخلفه ابنه الأكبر باديس.

3- باديس بن المنصور

وكنيته أبو مناد، انتصب بعد أبيه وكان مقرّه بقصور سردانية[1] قرب القيروان. احتفل باديس بولايته وتقليد الخليفة الفاطمي إياه أمور المغرب سنة 386/ 996، فأقام بالمهديّة موكبا فخما استعرض فيه الجنود ومرّت أمامه مراكب الأسطول ورمى النفاطون بالنار الرومية ولعبت بين يديه الفيلة والزرافات وإبل ساطعة البياض لا نظير لها، ووُزعت عقب ذلك صدقات طائلة على الفقراء والمساكين وأبناء السبيل، فكان هذا الاحتفال من أجمل ما رأى أهل إفريقية.

ثمّ بلغ باديس أنّ قبيلة زناتة خالفت في المغرب الأوسط وتظاهرت بالعصيان، فسيّر لها جيشا كثيفا سنة 388/ 998، مع عمّه حمّاد وجعل له ملك جميع ما يفتحه. فخرج حمّاد للثائرين وبعد ظفره بهم عاد إلى جهة قسنطينة وابتنى قلعة حصينة نسِبَت إليه [قلعة بني حمّاد] واتخذها مقرّا للملك الذي استقلّ به وعندئذ تحقق باديس الخطر وندم على ما فرّط. فكاتب عمّه سنة 405 /1015 برفع يده عمّا حازه من الأوطان الشاسعة، فامتنع حمّاد، وساء ما بين باديس والعمّ وكانت بينهما حروب مبيدة كاد يظفر بها باديس بعمّه لولا حلول أجله فجأة في مدينة المحمد ية [المسيلة] في 30 ذي القعدة 406/ 10 ماي 1016 فاستراح حمّاد إذ تمّ له ولعقبه من بعده مملكة المغرب الأوسط وانقسمت الدولة الصنهاجية منذ ذلك الحين إلى إمارة شرقية وتختها القيروان، وإمارة غربيّة وقاعدتها قلعة بني حمّاد [قرب المحمد ية]. وهو أوّل خلل ظهر في إفريقية خلال الدور العربي - البربري.

4- المعزّ بن باديس

لمّا توفّي باديس اتفق خاصّته على انتخاب ابنه المعز، وكان وقتئذ في المهدية في حضانة عمّته أمّ ملال. فحملوا باديس إلى إفريقية وبعد دفنه بايعوا المعزّ على حداثة سنّه لما تخيّلوا فيه من الفطنة والنجابة الفطريّة.

---

(1) **سردانية** : منتزه عظيم أنشأه الأمراء العبيديّون بجوار مدينة جلّولا يبعد عن القيروان بثلاثين ميلا، وكانت به قصور وبساتين عجيبة. [لا ينبغي الخلط بين هذا الموقع وبين جزيرة سردانية الإيطالية].

التمـدّن الإفريقـــي

بلغت إفريقية التونسية في عهد الدولة الصنهاجيّة شأناً عظيماً في التمدّن الإسلامي لتوفر الأسباب المساعدة على الرقي. فقد وصلت الفلاحة في البـلاد، من زراعة وغراسـة، إلى مرتبـة عاليـة بفضـل الـريّ العـام الـذي أحيـى مـوات الأراضي، فـأخرجت الأرض خيراتهـا المكنونـة حتـى صـارت إفريقيـة كطمـير المشرق والمغرب.

وترقّت الصناعة الأهلية في عموم حواضر القطر، فأنتجت بضائع فاخرة كالزرابي الرفيعـة والمنسـوجات الصوفيـة والحريريـة والقطنيـة وأوانـي الزجـاج اللطيفة ممّا كان يرغب فيه الداني والقاصي، يكفيك شاهد أن دخل الدولة مـن مكوس التجارة فقط بلغ في عهد المعزّ 400.000 دينار على سبيل التقريب.

وبفضل هذين الموردين تدرّب الإفريقيون على التجارة الدولية، فحملـوا برّاً وبحراً بضائع بلادهم إلى الأقطار النائية ورجعوا بأثمانها فائزين.

النهضـــة الأدبيّـــة[1]

وبذلـك نمـت الـثروة العموميـة وسـاد الغنـى وبسـطت الرفاهيـــة علـــى السكان، فاستقل كثير منهم بالعلوم والتدوين، وازدهر سـوق الأدب وظهـرت عندئذ حركة فكرية لم تر إفريقية مثلها قبـل ولا بعـد. وإذا علمـت أن الأمـراء والكـبراء كـانوا يقبلـون علـى المعـارف ويبذلـون النفـس والنفيـس في اقتنائهـــا ومعاضدة المنتسبين إليها، تيقنـت مـا فـازت بـه إفريقيـة التونسـية مـن النهضـة العلميـة العالميـة. علـى أن الاشـتغال بـالعلوم والأدب لم يصـدّ أولئـك الأمـــراء والكبراء عـن الاهتمـام بمصـالح البـلاد العامـة. فـإنّ تنافسـهم في تشـييد المعـالم والبناءات النافعة، كالجسور والطرقات وصهاريج الماء ومآوي الفقراء والعجـزة والحصون والأسوار قد بلغ أوجه، زيادة على إنشائهم القصور البهيجة والمنـازه الجميلة التي كانت تماثل بل تفاخر ما خلّده مسلمو الأندلس بجزيرتهم.

وبالجملة فقد حظي القطر التونسي في عهد الدولة الصنهاجية، لا سـيما أيام باديس وابنه المعزّ، بأوفر نصيب من التمدّن الإسلامي والله وليّ على أمره.

* * *

(1) انظر، الشاذلي بو يحيى، «**الحيـاة الأدبيـة بإفريقيـة في عهـد بـني زيـري**» (الترجمـة العربيـة)، بيـت الحكمة، قرطاج، 2000 (م).

اعتلى المعزّ بن باديس عرش الإمارة سنة 406/ 1016، كما ذكرناه وباشر أمر إفريقية بحزم ثابت ورأي ثاقب، وقاوم المخالفين حتى دانت له البلاد وزهت أيّامه وعلا صيته فهادته الملوك على بعد الدار ورغبت في مصانعته. فقد أتاه أوّلا تقليد الخليفة الفاطمي من مصر يلقّبه بشرف الدولة، ثم وافته الوفود من الملوك، منها هديّة أرسلها إليه سنة 423/ 1031 صاحب السودان تشتمل على عبيد وحيوانات غريبة، منها زرافات وأسود، وأتته بعثة أخرى من قيصر القسطنطينية سنة 426/ 1034 تحمل هدية ثمينة قبلها المعزّ وأرجعها بما يلائم المقام.

وقعة الشيعة

ولبث المعزّ في عزّه ونخوة ملكه إلى حدود سنة 435/ 1044 وفيها تغيّرت سياسته بسبب ثورة داخلية أوقعها الشعب على المتمسّكين بمذهب الشيعة الذي كان نشره العبيديون مدّة استيلائهم على إفريقية، فقتل أهل القيروان الشيعة ومثّلت بهم العامّة في الحواضر والبوادي، ولم يتمكّن المعز من إيقاف هذه الثورة الدموية بل اضطرّ إلى مساعدة الشعب ومجاراة الرأي العام، رغما عن تسامحه واجتنابه لسفك الدماء. ونبذ المعزّ من يومئذ دعوة الفاطميّين علانية وخلع طاعتهم وحمل جميع أهل المغرب على اتباع مذهب الإمام مالك بن أنس حسما لمادّة الخلافات المذهبيّة، ثمّ أمر بأن يُخطب على المنابر للخلافة العباسية سنة 439/ 1047 فوافاه من القائم بأمر اللّه خليفة بغداد تقليد يعترف له بالاستقلال.

زحف بني هلال

لما بلغ خبر خروج إفريقية عن السيادة المصريّة اهتزّ الخليفة الفاطمي وعظم عليه الأمر، لكن لم يكن منتهاه على المعزّ بن باديس بمكانه من قاصية المغرب واغتصابه بالقبائل إلا التحيّل، فدبّر وزيره اليازوري مكيدة لينتقم بها من أهل إفريقية وأميرها. فأشار بتسريح أعراب الصعيد[1] من بني هلال وبني سُليم ورياح وزغبة، لإجازة النيل، وكان ممنوعا عنهم، وتسريبهم إلى بلاد المغرب، فاستصوب الفاطمي الرأي وأذن لهؤلاء الأعراب باجتياز النيل وأعانهم بالمال والذخيرة. فانتشروا إلى برقة كالجراد، جندا همجيا لا يخاف الخالق ولا يحترم المخلوق. ولما انتهت جموعهم إلى إفريقية سنة 440/ 1048 وكانوا زهاء

(1) **الصعيد** : ناحية شاسعة في الجهة الشرقية من مصر تواجه البحر الأحمر.

الأربعمائة ألف تحقق المعزّ الخطر. فخرج بنفسه في مقدّمة عساكره المتألّفة من صنهاجة وزناتة والتقى بهم قرب جبل حيدران[1]، وهناك وقعت مقتلة مات فيها من الجانبين خلق عظيم[2]، ولولا انخذال زناتة لفاز المعزّ بالظفر، لكن لم يبق معه إلاّ جنده الخاصّ وعبيده وكانوا نحو العشرين ألفا، وأُجبِر المعزّ كرها على الرجوع إلى المنصورية وأحاط بها سورا أوصله بالقيروان سنة 444/ 1053.

لكن لم يُغْنِ ذلك شيئا، إذ اقتفى أثره بدو هلال وحاصروا عاصمته، فلما رأى المعزّ ما حلّ بالبلاد وما آل إليه أمره ركن إلى الصلح على رفع الحرب مع الأعراب، بعد أن أمر سكان القيروان بإخلائها والانتقال إلى المهديّة، ثم خرج في أهله وحشمه من المنصوريّة ونزل بالمهديّة على عامله بها ابنه الأكبر تميم في رمضان سنة 449/ 1057. وإذ ذاك انطلقت أيدي الهلاليين ومن انضمّ إليهم من بطانة السوء في أرجاء إفريقية، فعاثوا فيها فساداً وتخريباً ونهباً واستباحوا القيروان حتى أصبحت أثرا بعد عين.

وبقي المعزّ بالمهدية وقد استخلف على الدولة ابنه تميم إلى أن وافاه أجله المحتوم في 24 شعبان سنة 453 هـ/ 2 سبتمبر 1062 م، ودُفِن برباط المنستير حيث مدفن آبائه. وقد كان المعزّ عادلا مستقيم السيرة رفيقا بالرعيّة مُولَعا بالبناءات النافعة، وكان مع ذلك في غاية من الكرم، محبّا للعلم والعلماء، شاعرا، ثاقب الفكر، عارفا بعدّة صناعات، مكثرا مجالسة أهل الفضل، حتى اعتبره المؤرّخون أعظم من تولّى من الصنهاجيين.

5- تميم بن المعزّ

بُويِع بالمهديّة بعد وفاة أبيه وضبط ما بقي من الملك أحسن ضبط، وجملة ما بقي تحت سلطته يمتدّ على ساحل البحر من سوسة إلى قابس. وأما داخل البلاد فكان بأيدي أمراء صغار من الأعراب وغيرهم، أعلنوا الاستقلال لضعف الدولة وظهور الهرم فيها. وأصبحت إفريقية التونسية أشبه شيء بالأندلس في عهد ملوك الطوائف لما اعتصم كل زعيم بقلعة أو قلعَتَيْن، مما جعل ابن رشيق القيرواني يقول:

ممّا يزهدني في أرض أندلس ... أسماء مقتدر فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها ... كالهرّ يحكي انتفاخا صولة الأسد

---

(1) **حيدران** : موقع في الجنوب الشرقي من البلاد التونسية على الطريق الرابطة بين القيروان وقابس.
(2) جرت معركة حيدران في سنة 443هـ/ 1052م، (م).

وسرى هذا الداء إلى عموم المملكة الإسلامية، فلم تلبث أن وقعت في وهدة الانقسام، وتجزّأت أقطارها وظهرت فيها الأمراض الاجتماعيّة المعهودة.

وفي أيام تميم استولى النرمان[1] على جزيرة صقلية سنة 484/ 1091 بعد أن دام فيا ملك الإسلام مائتين وبضع وسبعين عاما، لكن معظم سكانها المسلمين استمرّوا على الإقامة فيها بعد ذلك نحو 150 سنة إلى أوائل الدولة الحفصيّة، وقد دخلوا تحت ذمّة ملوك النرمان ومن خَلَفَهم في الحكم. ثم نُقِلوا جبرًا إلى ناحية جبليّة بجنوب إيطاليا، فانقطعوا هناك واندمجوا في السكان، والملك للّه الواحد القهّار.

وهاجم تميمًا أسطول من جنوة في 300 مركب تحمل 30.000 مقاتل فتمكّنوا من النزول بجانب المهدية سنة 480/ 1087 وأحرقوا وسبوا، حتى اضطرّ تميم إلى قبول الصلح على مال أخذوه وانصرفوا. ثم قصده بعد ذلك أهل رومة في 23 سفينة حربيّة فهزمهم وقتل كثيرا منهم فأقلعوا خائبين. وبقي تميم يدير شؤون بلاده وهي معتلّة بمشاغبة الأعراب حتى توفّي في رجب سنة 501/ فيفري 1108. وكان شهما، صبورا على عضّات الدهر، جزيل العطاء، عالما مجيدا، وله شعر رقيق مدوّن.

6- يحيى بن تميم

تولّى بعد أبيه فأحسن السيرة مع الرعيّة وقمع الثائرين. ثمّ صرف همّته إلى تجهيز أسطول، وكأن هجوم مراكب جنوة وورومة في أيام أبيه قد نبّهه إلى ذلك، فأنشأ أسطولا عظيما غزا به بلاد الروم، منها جنوة وسردانية، حتى صالحه أهلها على أموال طائلة قبضها منهم وترك سبيلهم.

وكان يحيى نفى إلى المغرب بعضا من إخوته الطامعين في الملك فتحيّل ثلاثة منهم ودخلوا عليه متنكّرين في زيّ المغاربة وزعموا أنهم من العارفين بفنّ الكيمياء، وكان ولوعا به، فاشترطوا عليه الخلوة فخلا بهم ومعه وزيره وحاجبه، فما كان إلاّ أن وثبوا عليه بالخناجر التي كانوا خبّؤوها في ثيابهم، فقتلوا الوزير والحاجب وأثخنوا الأمير بالجراح. ومازال يحيى متألّما من جراحاته هذه حتى توفّي سنة 509/ 1116، فخلفه ابنه علي.

---

(1) **النرمان** : (أو قوم الشمال) أمّة بحريّة أصلها من النرويج والدنمارك نزلت في القرن التاسع للميلاد في أوروبا الوسطى واستولت على قسم من فرنسا عُرِف باسمهم (نرمنديا) ثم انتصبت عنوة في جنوب إيطاليا وبالخصوص صقليّة.

7- علـي بـن يحـى

تمّت له البيعة في المهدية، وأرسل جيشا إلى أحمد بن خراسان والي تونس الذي تظاهر بالعصيان فأدّبه.

وفي أيّامه تأكّدت الوحشة بينه وبين ملك النرمان رُجار صاحب صقلية، فأخذ علي يتأهّب للهجوم عليه، وكاتب سلطان المرابطين، يوسف بن تاشفين بمراكش، في مشاركته لمحاربة نصارى صقلية، ولكن المنية عاجلته قبل ذلك سنة 515/ 1121، فلم يتمّ له ما كان يرومه.

8- الحسـن بـن علـي

تولّى بعهد من أبيه، وكان عمره لا يزيد على اثني عشر عاماً. ولمّا استتبّ له الأمر، قويت النفرة التي كان بين أسلافه وبين رُجار ملك صقلية بسبب هجوم أسطول المرابطين على ثغر من ثغور صقلية. فتوقع رُجار أن ذلك قد تمّ بإغراء من الحسن، فأرسل أساطيله إلى المهدية سنة 517/ 1123 واستعدّ الحسن، فتحصّن القلاع وحشد الجيوش ونزل الإفرنج بجزيرة الديماس، قرب البقالطة، المتّصلة من البرّ، فلاقاهم رجال الحسن وأثخنوا فيهم القتل حتى أرجعوهم على أعقابهم خاسرين.

زحفـة النرمـان الثانيـة

إلاّ أنّ رُجار أعاد الكرّة سنة 536/ 1140 فقدم إلى إفريقية في 300 مركب مشحونة بالقوّات، وقد صادف خلوّ المهديّة من الحامية لغياب العساكر في محاربة بجهة تونس فتغلّب على سوسة وصفاقس. ولما أيقن الحسن بالخطر أراد حقن دماء رعاياه الأبرياء، فأعلن الرحيل وحمل ما خفّ عليه وخرج من المهدية سنة 543/ 1148 فدخلها النرمان واستولوا على ما بقصورها من الذخائر النفسية، ثمّ أمّنوا الناس وأقرّوهم في منازلهم، وسكّنوا الثائرة، ولم يلبث رُجَار أن ملك معظم الثغور. فأصبحت إفريقية التونسية نهبًا مقسومًا بين النرمان في السواحل والأعراب في الداخل.

وبذلك انقرضت الدولة الصنهاجية من إفريقية، والبقاء للّه الواحد القهّار.

ابن الجزّار الطبيب

أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد يعرف بابن الجزار الطبيب. وُلِد بالقيروان أوائل القرن الرابع من الهجرة ونشأ في عائلة اشتهر أفرادها في الطبّ. وتلقى أحمد علوم اللغة والفقه ثم تخرّج في الفنون الرياضية عن كبير الأطباء في إفريقية إسحاق بن سليمان الإسرائيلي حتى برع وفاق أستاذه، وقد يعلو الفرع أصله.

قال الحكيم ابن جلجل:

«كان أحمد قد أخذ لنفسه مأخذا عجيبا في سمته وهديه و لم يُحفَظ عنه بالقيروان زلّة قطّ ولا أخلد إلى لذّة، وكان يشهد الجنائز والأعراس ولا يأكل فيها، ولا يركب قطّ إلى أحد من رجال الدولة ولو إلى السلطان»، وذلك لنزاهة نفسه وانقطاعه لعلمه وعمله، وكان له دكّان يقبل فيه العائدين ويعالج فيه المرضى. وعلا صيت ابن الجزّار وذاعت شهرته بالآفاق شرقا ومغربا. وكانت وفاته بالقيروان سنة 369/ 979، عن سنّ تناهز الثمانين عاما قضاها في النفع العام وخدمة الإنسانية. وترك ابن الجزّار تآليف معتبرة ضافية وضعها في فنّ الطبّ، منها كتاب في علاج الأمراض سمّاه «زاد المسافر وقوت الحاضر» وكتاب «طبّ الفقراء والمساكين» وآخر في «الذم والتحذير من إخراج الدم لغير حاجة» وكتاب «سياسة الصبيان وتدبيرهم». وله في التاريخ والأخبار مصنّفات جليلة منها «التعريف بصحيح التاريخ» و«أخبار الدولة الفاطمية» وغير ذلك من المصنّفات العلمية التي يطول تعدادها، يكفيك شاهدا أنه وُجِد في مخلفه 25 قنطارا من الكتب الطبية كلّها بخط يده.

وقد اعتنى علماء أوروبا من قديم الزمان بتآليف ابن الجزّار وقدروها حقّ قدرها، فترجموا جانبا وافرا منها إلى اللغة اللاتينية وغيرها لأهمّية ما احتوت عليه من الإفادات الجمّة. ولذا يحقّ لنا الافتخار بهذا الطبيب التونسي الذي رفع ذكر بلاده بمآثره الجليلة.

الحسن بن رشيق

أبو علي الحسن بن رشيق الأزدي القيرواني، حامل لواء الأدباء التونسيّين، وُلِد بمدينة المحمدية [المسيلة] حوالي سنة 385/ 995، وبها تعلّم اللغة العربية وآدابها، ثم لما رأى من نفسه الميل الشديد والرغبة في طلب العلوم والاجتماع بأهل الفضل ارتحل إلى القيروان سنة 406/ 1015، فقرأ على أساتذة ذلك العصر كأبي عبد الله محمد بن جعفر القزّاز كبير النحويين وعبد الكريم النهشلي وغيرهما، واجتهد في اقتناء المعارف والفضائل حتى عُرِف، وإذ ذاك أدخله المعزّ الصنهاجي في زمرة جلسائه الأدباء. ولم يزل الحسن يشتهر بقصائده الفائقة وتآليفه الرائقة إلى أن حاز رئاسة شعراء زمانه وصار فيصلهم المعتمد. والتحق ابن رشيق بعد وفاة المعزّ بن باديس بالأمير تميم بنِ المعزّ وخدمه بأشعاره فكان له خير نديم وأصدق مصاحب. وفيه يقول مادحا:

أصحّ وأقوى ماروِيناه في الندى ... من الخبر المأثور منذ قديم
أحاديث ترويها السيول عن الحيا ... عن البحر عن جود الأمير تميم

ثم انتقل ابن رشيق بعد ذلك إلى صقليّة وسكن مدينة مازرة إلى أن أدركته منيّته ليلة السبت غرة ذي القعدة سنة 1063/456

وهاك شذرة من نثره كتب بها إلى بعض إخوانه في مدح السفر والارتحال:

«مَثَلُ الرجل القاعد، أعزّك الله، كمثل الماء الراكد، إن تُرِك تغيّر، وإن تحرّك تكدّر. ومثل المسافر، كالسحاب الماطر، هؤلاء يسمّونه رحَمة، وهؤلاء يدعونه نقمة. فإذا اتّصلت أيامه، ثقل مقامه، وكثر لوامه، فاجمع لنفسك فرحة الغيبة، وفرحة الأوبة. والسلام. وأنشد :

غب عن بلادك وارْجُ حسن مغبّة ... إن كنت حقًّا تشتكي الإقلالا
فالبدر لم يجحف به إدباره ... إن لا يسافر يطلب الإقبالا

وقد ترك ابن رشيق مأثرة علمية أدبية جسيمة جدا فاق بها أهل عصره. فمن تآليفه السائرة: كتاب «العمدة في صناعة الشعر ونقده وعيوبه» و«قراصنة الذهب في نقد أشعار العرب» وكتاب «أنموذج الزمان في شعراء القيروان»، عدا ما صنّفه في النحو واللغة وفنّ التاريخ مما تفتخر به إفريقية.

الفصل الثاني عشر

الدولة الموحّديّة

(من سنة 554/ 1159 إلى سنة 626/ 1228)

تمهيد

حينما كانت إفريقية [المغرب الأدنى] تتخبّط بين الاضطرابات السياسية الحادثة من هجوم الإفرنج، وبين الهرج الداخلي الناشئ عن هياج الأعراب الزاحفين في عهد المعزّ بن باديس، إذ ظهرت بالمغرب الأقصى دولة ذات سلطان قويّ وبأس شديد، ألا وهي دولة الموحّدين التي أعلى شأنها سنة 528 رجل العلم والسياسة عبد المنعم بن علي الكومي من قبيلة زناتة البربرية. ولم يلبث عبد المؤمن إلاّ قليلا حتى استولى على المغربين الأقصى والأوسط، وضمّ إلى ملكه الأندلس. فعظم بذلك سلطانه وخضعت الأقطار إلى صولجانه.

قدوم عبد المؤمن إلى إفريقية

وفي الأثناء قصده الحسن بن علي الصنهاجي مستنجداً به لإنقاذ المهديّة من أيدي النرمان ورغّبه في الجهاد، فأزمع عبد المؤمن على غزوها وجهّز جيشا كثيفا يربو عن 100.000 فارس وخرج من مراكش[1] قاصدا إفريقية سنة 1158/553. فتقدّم أوّلا إلى مدينة الجزائر وفتحها عنوة ثم نزل ببجاية وقسنطينة وباجة وغيرها من المدائن إلى أن أناخ على مدينة تونس وكانت خاضعة عهدئذ لحكم علي بن أحمد بن خراسان، فأرغمه على الرحيل واحتلّها قهراً سنة 1159/554. وبعد أيّام انصرف إلى المهدية وحاصرها بجنوده براً وبأسطوله بحراً، وضايق على من كان بها من النرمان، ودام الحصار متواصلا ستة أشهر إلى أن اشتدّ الحال على جنود حاميتها من النرمان فطلبوا تسليم المدينة، فاحتلّها عبد المؤمن يوم عاشوراء من سنة الأخماس 21/555 جانفي 1160.

ولمّا تمّ هذا الفتح للخليفة عبد المؤمن بن علي وصار ملكه يمتدّ من برقة إلى المحيط، أخذ يرتّب أعمال الجهات، فأقطع المهدية لصاحبها الحسن

---

(1) **مرّاكش** : إحدى عواصم المغرب الأقصى، أسّسها الأمير يوسف بن تاشفين اللّمتوني سنة 454هـ/1062م.

الصنهاجي وشرّك أحد الموحّدين معه في النظر واستخلف على حاضرة تونس أبا محمد عبد السلام الكومي ونصّب معه أشياخا من الموحّدين للتشاور في شؤون البلاد. ثم قفل راجعا إلى المغرب الأقصى حيث توفي سنة 558/ 1171 في مدينة سَلاَ.

خلفاء عبد المؤمن بن علي

قام بأمر الدولة الموحّدية بعد هذا الخليفة ابنه يوسف، وكان حسن السيرة، ذا سياسة صائبة. قدم إفريقية سنة 575/ 1179 لإخضاع أحد بني الرند[1] الثائر بالجريد. فحاصره يوسف بقفصة وألحّ عليه إلى أن ظفر به، ثم عاد إلى مرّاكش. وفي سنة 1184/580 توفّي يوسف وعقبه في الأمر ابنه يعقوب المنصور، وهو الذي استوزر الشيخ أبا محمد عبد الواحد بن أبي حفص. وأهمّ ما حدث في إفريقية في عهده ثورة يحيى بن إسحاق الميورقي من بني غانية[2] الذي تطاول على سلطة الموحّدين واغتصب من حكمهم طرابلس وقابس وصفاقس والجريد والقيروان وجزءاً من ولاية قسنطينة، ثم عاد إلى تونس فامتلكها سنة 586/ 1190، وخطب فيها للخليفة العبّاسي في بغداد، وقبض على كبار شيوخ الموحّدين وسجنهم بالقصبة: فنهض إليه عندئذ يعقوب المنصور، وكان في جيش جرّار، فخافه يحيى بن غانية وركن إلى الفرار إلى الصحراء. فسكّن يعقوب الثائرة ومهّد النواحي ورجع إلى مقرّ سلطنته في مراكش وبها كانت وفاته سنة 595/ 1198.

وتولّى الخلافة بعده ابنه محمد الملقّب بالناصر، قدم إفريقية، لما علم برجوع يحيى بن غانية إليها، فسار في اتّباعه، وسرّح الشيخ عبد الواحد بن أبي حفص بجيش لقتال الثائر، فلقيه في ناحية قابس وأوقع به وشرّد عصابته سنة 602/ 1206. فسكنت البلاد ورجع الناصر إلى تونس، وبعد أن أقام بها برهة، رتّب خلالها الشؤون واستخلف على إفريقية ثقته ووزيره الشيخ أبا محمد عبد الواحد جدّ الأمراء الحفصيّين سنة 603/ 1207 وهذه هي بداية الدولة الحفصيّة الواردة أخبارها في الفصل الموالي.

---

(1) **بنو الرند** : دويلة مستقلّة انتصبت بالجريد عند انقسام الدولة الصنهاجية، وكانت قاعدتها مدينة قفصة.

(2) **بنوغانية** : من بقايا المرابطين، وكانوا أمراء دويلة انتصبت في الجزائر الشرقية [جزر بلايار] من بلاد الأندلس في منتصف القرن الخامس للهجرة. وهذه الجزر هي: ميورقة ومنورقة ويابسة.

تحويل العاصمة إلى تونس

مرّ بنا أنّ الفاتحين المسلمين ابتنوا القيروان واتّخذوها عاصمة لإفريقية، وسبب اختيارهم هذا المركز على سواه هو توسّط موقعه الجغرافي وبعده عن الساحل، إذ لم يكن للدولة الإسلامية عهدئذ أسطول يحمي قاعدتها من هجمات الروم الذين كان لهم ملك البحر. وبقيت القيروان عاصمة إلى أن انتصب العُبَيْديّون وقوي ساعد الدولة العُبَيْديّة بأسطول رهيب، فلم يخش حينئذ عبيد اللّه المهدي من جعل مدينة المهديّة التي أسّسها مقرا لسلطانه المتّسع، وأقام فيها الملك إلى أن تغلّب النرمان على الدولة العبيديّة.

فلما دانت إفريقية إلى عبد المؤمن بن علي وإلى خلفائه من بعده استحسنوا نقل مركز الحكومة إلى حاضرة تونس وتبعهم في الإقامة بها بنو أبي حفص ومَنْ جاء بعدهم من رؤساء الدول التي تلت الدولة الحفصية. و لم تزل هذه المدينة عاصمة القطر التونسي إلى يومنا هذا، وللّه عاقبة الأمور.

الفصل الثالث عشر

الدولة الحفصيّة[1]

(من سنة 626 /1228 إلى سنة 932/ 1525)

تمهيد

الحفصيّون فرع من فروع الدولة الموحّديّة وينتسبون إلى الشيخ أبي حفص يحيى بن عمر الهنتاتي[2]، وهو أحد القائمين بدعوة المهدي عبد المؤمن بن علي والمشيّدين لملكه، وحسبما يزعم بنو أبي حفص، فإنهم من سلالة الخليفة الثاني عمر بن الخطّاب، كما ادّعى الصنهاجيّون من قبلهم الانتساب إلى حِمْيَر، وكلا الفريقين من البربر. وقد جوّز بعض المؤرّخين الانتسابَيْن. والله تعالى أعلم.

ومهما يكن من أمر، فقد كان للشيخ أبي حفص هذا الصوت الأعلى والمقام الأسنى في الدولة الموحّدية. وهو الذي رفع راية الموحّدين في الأندلس وأيّد سلطانهم في تلك الديار، فلما توفي سنة 571/ 1175-1176 تداول أبناؤه على الرئاسة وتقلّبوا في الإمارة في الأندلس والمغرب الأقصى وإفريقيّة مع سادة من بني عبد المؤمن.

ولما أفضت الخلافة إلى الناصر وأخمد الثورة التي أوقدها ابن غانية، كما تقدّم، نصّب في ولاية إفريقية الشيخ أبا محمد عبد الواحد الحفصي نائبا عنه. واستتبّ من ذلك الحين أمر البلاد التونسية بأيدي الولاة الحفصيين إلى أن أعلنوا استقلالهم بها وانفصلوا عن الدولة الموحّدية بالمغرب.

الأمراء الحفصيون

1- أبو محمد عبد الواحد

نصّبه الناصر على ولاية إفريقية، فجلس على كرسي الإمارة بقصبة تونس يوم السبت 10 شوّال سنة 603/ 1207 وبايعه الناس، وكان فاضلا، برّا

---

(1) الزركشي، تاريخ الدولتين الموحّدية والحفصية، تحقيق محمد ماضور، تونس (ط.2)، 1966 (م). انظر أيضا: روبار بون شفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، تعريب حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988 (م).

(2) الهنتاتي: نسبة إلى هنتاتة، قبيلة بربريّة تلتحق بقبيلة مصمودة وهي من أكبر قبائل المغرب الأقصى.

بالرعيّة، متواضعا. زحف بالجنود سنة 604/ 1208 على ابن غانية بنواحي طرابلس فأوقع برجاله وأفلت الثائر جريحا ورجع أبو محمد إلى تونس ظافرا وتأيّد أمره وحسم مادّة الفساد من إفريقية واستوفى جبايتها، و لم يزل معظّما إلى أن توفي سنة 618/ 1221 ودُفِن داخل القصبة.

2- عبد الرحمان

وبايع الملأ بعده ابنه عبد الرحمان، فسكّن الثائرة وأفاض العطاء في الجند وأجاز الشعراء، ثم وصل كتاب سلطان الموحّدين المستنصر بن الناصر يأمر بعزل عبد الرحمان وتقديم عمّه إدريس و لم تطل مدّته فتولى بعد وفاته عبد اللّه عبّو.

3- عبد اللّه عبّو

وهو ثاني أبناء أبي محمد عبد الواحد، تولّى الإمارة سنة 620/ 1223 وعقد لأخيه يحيى على قابس ثم نهض لمحاربة أخيه المذكور، فأنكر عليه الجند ذلك وخالفه كبراء دولته والتحقوا بجيش قابس. فتقدّم عندئذ يحيى إلى الحاضرة ودخلها سنة 625/ 1228، بعد أن اعتقل أخاه عبد اللّه.

4- أبو زكرياء يحيى (1228- 1249)

اقتعد هذا الأمير على أريكة الملك وأمر الموحّدين من بني عبد المؤمن بمراكش في تراجع وضعف، وقد ظهر بنو مرين[1] ونازعوهم السلطة في المغرب الأقصى. فانتهز أبو زكرياء الفرصة وأعلن استقلاله بقطع الخطبة للموحّدين وجعلها لنفسه سنة 1229/626، و لم يلق معارضا فيما فعل، إلاّ أنّ ابن غانية قد عاد يجمع الجموع ويدخل بهم إفريقية ويعيث فيها فسادًا. فطارده أبو زكرياء حتى ظفر به وقتله سنة 631/ 1234، ثم قمع ثوّار البربر من قبيلة هوّارة وتمّ بذلك النصاب على القطر التونسي. وبعد ذلك استولى على الجزائر وبايعته تلمسان وسجلماسة وسبتة وطنجة ومكناسة من بلاد المغرب. فقوي أمره وعظم شأنه حتى أنّ بني مرين الذين استولوا على مرّاكش خطبوا له في أوّل أمرهم، وأتته الوفود من شرقي الأندلس مستنجدة به، فأجاب طلبهم ووجّه أسطولا لإعانتهم قدّر بمائة ألف دينار، و لم يقدّر اللّه وصوله إليهم وقت الحاجة.

---

(1) بنو مرين: من قبلائل البربر المخيّمة جنوب المغرب في ناحية سجلماسة، قام بدعوتهم عبد الحقّ بن محيو المريني عند ضعف الدولة الموحّدية في مطلع القرن السابع للهجرة، فاستولى شيئا فشيئا على ما بيد بني عبد المؤمن.

وأبو زكرياء هو الذي ابتنى جامع القصبة بحاضرة تونس وصومعته الجميلة الشكل ونقش عليها اسمه، وأذّن فيها بنفسه ليلة تمامها، غرة رمضان 630/ مارس 1233 وشيّد غير ذلك من المساجد والمدارس، وابتنى أيضا سوق العطّارين بتونس وأنشأ في قصره بالقصبة دارًا للكتب، جمع فيها 36000 مجلّد من أنفس المؤلّفات، تلاشت في آخر أيام الدولة الحفصيّة.

وبالجملة فهو الذي أسّس أركان الدولة الحفصية بتونس، وكانت وفاته في جمادى الأخيرة سنة 647/ أكتوبر 1249 وعمره 49 عاما.

5- المستنصر باللّه (1249 - 1277)

هو أبو عبد اللّه محمد بن أبي زكرياء الحفصي، بُويع له يوم وفاة أبيه وعمره عشرون عاما، وقام عليه لأوّل ولايته ابن عمّه محمد اللحياني طامعًا في الاستيلاء على إفريقية، فجمع المستنصر العساكر وقاتل عمّه وانتصر عليه.

وذاع صيت المستنصر في الآفاق وعظم شأنه حتى أرسل له أمير مكّة وأهل الحجاز بيعتهم بالخلافة سنة 657/ 1259، فاهتزّ السلطان لهذه البيعة واحتفل بها احتفالاً مشهودا وتلقّب منذ ذلك الحين بأمير المؤمنين، ثم وافته بيعة بني مرين بفاس، وهاداه ملك برنو[1] من السودان بهدايا نفيسة.

زحفة الفرنسيّين (الحرب الصليبيّة)

وأشهر الحوادث في أيّام هذا السلطان العظيم زحفة لويس التاسع ملك فرنسا على تونس. وبيان ذلك أن شارل دانجو شقيق هذا الملك وصاحب جزيرة صقلية أغره أخاه على غزو تونس لتكون تابعة له، فلم يتردّد ملك فرنسا في إجابة طلبه، لاسيما وقد ظاهره على مقصده كثير من ملوك النصارى منهم البَابَا. فجهّز لويس الملقّب بالقديس (Saint Louis) أسطولا شحنه بأربعين ألف مقاتل نزلوا بأطلال قرطاجنة آخر ذي القعدة سنة 668/ 1270. ودارت رحى الحرب بينهم وبين جنود المسلمين واتّصل الكفاح نحو ستّة أشهر. وضاق الخناق بين الطرفين فصادف أن فشى مرض الوباء في تونس ثم تمادى إلى جيش الفرنسيين، فهلك به خلق عظيم من جملتهم الملك لويس التاسع في 10 محرم سنة 669/ 1270. وبذلك انتهت الحرب وأقلعت الجيوش الفرنسية بعد أن أغرمها المستنصر مالا اتّفقوا عليه على وجه الصلح، وأمر السلطان المذكور من

---

(1) **برنو**: اسم سلطنة بوسط السودان يسكنها زنوج مسلمون وقاعدتها مدينة كوكه.

حينه بتخريب بقايا قرطاجنة لئلاّ تكون مطمحا للنصارى[1].

ومن مآثر هذا السلطان التي خلّدت له الذكر الحسن اعتناؤه بإنشاء المعالم الجليلة، فهو الذي رمّم الحنايا الرومانية لجلب ماء زغوان، فأجرى بعضه للبستان الذي اتّخذه برأس الطابية والمنتزه المعروف بأبي فهر قرب أريانة [في طريق سُكّرة] وأجرى البعض الآخر إلى تونس وجامع الزيتونة، إلى غير ذلك من الإنشاءات.

وكانت وفاة المستنصر سنة 675/ 1277.

تونس في عهد المستنصر

«كان شأن المستنصر في ملوك آل أبي حفص عظيما وشهرته طائرة الذكر بما انفسح أمد سلطانه ومدّت إليه ثغور العُدْوَتين[2] يد الاعتصام به. وما اجتمع بحضرته من أعلام الناس الوافدين على أبيه، وخصوصًا الأندلس من شاعر مفلق وكاتب بليغ وعالم نحرير متفيِّئين ظلّ ملكه، متناغين في اللّياذ به لطموس معالم الخلافة شرقا وغربًا على عهده، وخفوت صوت الملك إلاّ في إيوانه ودولته أشدّ ما كانت قوّة، وأعظم رفاهية وجباية وأوفر قبيلا وعصابة وكثر عساكر وجندا وكانت له في الأبّهة والجلال أخبار، وفي الحروب والفتوح آثار.

وفي أيّامه عظمت حضارة تونس، وكَثُر ترف ساكنيها، وتأنّق الناس في الملابس والمراكب والمباني والماعون والآنية فاستجادوها، وتناغوا في اتخاذها وإفشائها إلى أن بلغت غايتها ثم رجعت من بعده أدراجها. واللّه مالك الأمور ومصرفها»[3].

6- يحيى الواثق (1277- 1279)

تمّت له البيعة يوم وفاة والده المستنصر، وافتتح عهده برفع المظالم وإفاضة العطاء في الجند وإصلاح المساجد وإزالة كثير من الضرائب عن الناس، فامتدحه الشعراء فأسنى جوائزهم. إلاّ أنّه لم يهنأ بالملك طويلا حيث قام عليه عمّه أبو إسحاق وافتكّ منه قسما وافرا من الملك، فتخلى الواثق عن العرش لعمّه سنة 678/ 1279.

---

(1) اعتنت الحكومة الفرنسية في عهد المشير أحمد باي الأوّل بشأن المكان الذي أصيب فيه لويس التاسع. وبعد أن حصلت على رخصة من الحكومة التونسية، أقامت كنيسة بقرطاجنة في المكان الذي يُظَنّ أنه مات فيه ذلك الملك، وهي المشهورة باسم «سان لويس» الملاصقة لمتحف الآثار العتيقة الذي أنشأه الرهبان الكاتوليكيون المعروفون بالآباء البيض. [وقد استرجعت الحكومة التونسية هذه الكنيسة التي مازالت قائمة الذات إلى الآن وحوّلتها بعد الاستقلال إلى مركز ثقافي].

(2) المقصود بالعُدْوَتَيْن : جزيرة الأندلس والمغرب الأقصى.

(3) اقتبسنا هذه الفقرة باختصار من تاريخ ابن خلدون.

7- أبـــو إســـحاق إبراهيـــم (1279 - 1284)

هو ابن أبي زكرياء الأول. قدم تونس لما تحقّق شغور السلطنة، فاستقلّ بها وقتل ابن أخيه الواثق. وفي مدّة استيلائه خرج عليه بنواحي طرابلس دعيّ يسمّى أبو عمارة أحمد بن مرزوق ذكر أنه من أبناء المستنصر. فاجتمع عليه البربر وظاهروه على مقصده، فزحف إلى قابس وامتلكها سنة 681/ 1282. ثمّ تقدّم إلى الجريد والقيروان والساحل فأطاعوه، ولم يزل هذا الزعيم يستولي على المدائن والحصون إلى أن وصل إلى تونس. فخاف السلطان على نفسه وفرّ أمامه إلى بجاية، ودخل الدعيّ الحاضرة وبايعه أهلها. ولقد أساء الأمير الجديد السيرة في أهل تونس إلى درجة لا تحتمل حتى تطلّب الناس أمراء البيت الحفصي وتسامعوا بخبر الأمير أبي حفص عمر بمكانه من قلعة سنان[1]، فساروا إليه وبايعوه وجمعوا له شيئا من المال والرجال. ولما بلغ الخبر إلى الدعيّ خرج من تونس يريد قتال أبي حفص فثار عليه عسكره ورجع مهزوما ودخلت البلاد في طاعة أبي حفص عمر.

8- المســـتنصر باللـــه الثـــاني (1284- 1295)

هو أبو حفص عمر بن أبي زكرياء. دخل تونس وانتصب على سرير الملك وأعاد بيعته ثانيا سنة 683/ 1284، وبعد أيّام عثر على الدعيّ أبي عمارة مختفيا فقتله. وفي السنة نفسها خرج عليه بالجزائر ابن عمّه يحيى بن إبراهيم والتفّت عليه الأعراب وانضمّت إليه بجاية وقسنطينة وبسكرة، وبسبب ذلك انقسمت المملكة الحفصية إلى شرقية وغربية، فاستقرّ أبو حفص في تونس ويحيى في بجاية. واستمرّت كلّ ناحية على استقلالها إلى أن توفي أبو حفص سنة 694/ 1295.

9- أبـــو عصيـــدة (1295 - 1309)

لما توفّي أبو حفص اجتمع أهل الدولة وبايعوا أبا عبد اللّه محمد بن الواثق الملقّب بأبي عصيدة فنهض يحاول إرجاع ناحية قسنطينة ولم ينجح، فعاد إلى الحاضرة سنة 695. ثم انعقد الصلح بينه وبين صاحب المملكة الحفصية الغربية على اتحاد المملكتَيْن وأن من عاش من السلطانين بعد الآخر يكون المستقلّ بالأمر فتقرّرت الهدنة بينهما على هذا الشرط. وفي سنة 709 /1309 توفي أبو عصيدة ولم يخلف ولدا.

---

(1) قلعة سنان: قرية مرتفعة جدّا في ناحية تاجروين قريبة من تالة.

10- أبـو بكـر الشـهيد (1309)

توفي أبو عصيدة حينئذ عن غير عقب وكـان مـن الواجـب مبايعـة أبـي البقاء خالد بن يحيى صاحب بجاية والثغور الغربيّة كما ينصّ على ذلك الاتّفاق السابق، لكن قام أبو بكر خالد بن عبد الرحمان الحفصي الذي كـان تربّـى في بيت أبي عصيدة وأخذ البيعة من أهل تونس لنفسه، فلما بلـغ الخبر أبـا البقـاء زحف في جموعه ودخل الحاضرة وتمّت له البيعة بها، وقُتِل أبو بكر لسبع عشـر يوما من ولايته ولذلك سُمِّي الشهيد.

11- أبـو البقـاء خـالد (1309 - 1312)

تولّى بالحاضرة ولُقّب بالناصر لدين اللّه، وعقـد لأخيـه أبـي بكـر علـى قسنطينة وعملها فـانتقض علـى أخيـه مـع عصابتـه. وعندئـذ جهّـز أبـو البقـاء عسكرا انتهى إلى باجة، وفي الأثناء كان أبو يحيى زكرياء بن أحمد اللحياني قد رجع من المشرق ودخل طرابلس وعلـم مـا بإفريقيـة مـن الاضطرابـات، فدعـا لنفسه وبايعه العرب. ثم طمع في تونس فزحف إليها وامتلكها بعد قليـل لخلـع صاحبها أبي البقاء نفسه سنة 712/ 1312، وأمّا أخوه أبو بكر فإنه بقي مستقلاّ في الناحية الغربية.

12- زكريـاء بـن اللحيـاني (1311- 1317)

بويع أبو يحيى هذا على كبر سنّه وكان يرى من نفسه العجز عن الولاية واستحقاقها، خصوصًا لاستفحال أمر قريبه السلطان أبي بكـر صـاحب عمـل قسنطينة، وكان يخاف زحفه إليه، فعزم على التخلّي عن الولاية، وجمع ما لديه من الأموال والذخائر وباع ما بمستودعات الحفصيين من النفائس حتى الكتـب التي كان اقتناها أبو زكرياء الأكبر. وخـرج مـن تونـس إلى قـابس سـنة 717/ 1317 ثم انتهى إلى طرابلس واستوطنها.

13- محمـد أبـو ضربـة (1317- 1318)

هو ابن السلطان المتقدّم أجلسه رجال الدولة علـى العـرش بعـد خـروج أبيه فتلقّب بالمنتصر، ولم تطل مدّته، إذ زحف إليه الأمير أبو بكر من قسـنطينة في جيش كثيف ولقيه أبو ضربة في جموعه، وبعد قتـال انهـزم أبـو ضربـة سـنة 718/ 1318 وهرب من المعركة إلى أبيه في طرابلس.

14- أبـو بكـر الثـاني (1318- 1346)

ويُلقّب بالمتوكّل على اللّه ، تمّ له الاستيلاء على تونس حين أطـرد منهـا

محمد أبو ضربة سنة 718/ 1318، وثار عليه أعرابي يدعى محمد بن أبي عمران، فحاربه السلطان مدّة سنين إلى أن تأبّد أمره أخيرا وشرّد الثائرين إلى كلّ ناحية سنة 723/ 1323. ثم إن بعض أقاربه من الحفصيّين منهم إبراهيم بن أبي بكر الشاهد السالف الذكر، استمدّوا بقوّة عظيمة من أمير بني عبد الواد، صاحب تلمسان، ونازلوا تونس فتجهّز لهم أبو بكر وقاتلهم، فكانت الدائرة عليه والتجأ إلى قسنطينة سنة 725/ 1325 ونهض بعد ذلك يحاول ارتجاع ملكه فلم يقدر ورجع إلى الناحية الغربية، وقد ضاق هذا السلطان ذرعا من بني عبد الواد[1] لدوام اتحادهم مع أعدائه، وتحقّق أنه لا يثبت ملكه، إلاّ إذا أضعفهم، فسعى في الاتحاد مع سلطان بني مرين صاحب مراكش ومصاهرته، ولما تمّ له ذلك، اتفق مع صهره على مهاجمة بني عبد الواد، وبعد قليل اغتصبا ملك تلمسان واقتسماه بينهما سنة 730/ 1330، واستراح أبو بكر من القلاقل ورجع إلى حضرته، واستمرّ الحال عل ذلك إلى أن توفّي السلطان أبو بكر سنة 747/ 1346 وهو من مشاهير سلاطين الدولة الحفصية.

تقدّم الحضارة التونسية

وجّه هذا السلطان اهتمامه إلى إصلاح الحالة الداخلية في البلاد التي كادت تخرب لتوالي الفتن، فاعتنى بشأن الفلاحة والصناعة والعلوم بمقدار ما في الإمكان، فعاد إلى البلاد شيء من رونقها في مدّة قريبة. يُروى أن عدد دكاكين العطّارين بلغ في أيّامه إلى 700 دكّان، وهذا بفضل ما بذله من الاعتناء بترقية الاقتصاد.

وكان في عصره من الفقهاء الأجلاّء ما أكّد سمعة تونس العلمية وأيّد شهرتها. نخصّ بالذكر منهم قاضي الجماعة محمد بن عبد السلام، صاحب التآليف الجليلة المتوفّى سنة 749/ 1348، والإمام محمد بن عرفة المتوفّى سنة 803/ 1401، وابن راشد القفصي المتوفّى سنة 736/1336 والقاضي ابراهيم بن عبد الرفيع المتوفى سنة 733/ 1333 والمدرّس الكبير محمد بن هارون المتوفّى سنة 750/ 1350 وغيرهم من الأعلام.

كما ازدان ذلك العصر بثلّة من الأدباء والشعراء، من أشهرهم عبد اللّه بن محمد التيجاني رئيس كتبة الأمير زكرياء اللحياني ورفيقه في أسفاره، وهو مؤلّف الرحلة المشهورة باسمه، وقد ذكر فيها أنحاء القطر التونسي ومُدُنه وقراه

---

(1) بنو عبد الواد: ويُعرفون أيضا ببني زيان: دولة استقلت في المغرب الأوسط (الجزائر) عند ضعف الموحّدين وقاعدتها تلمسان، وقد دامت دولة بني عبد الواد من 633 إلى 932هـ / 1235 - 1525م.

بأحسن وصف وأكمل تحقيق، وتوفّي في حدود سنة 725/ 1325، وبيت التيجاني هذا كان من أنبه بيوت العلم والأدب في تونس، وأنبت غير واحد من الفضلاء، مثل شقيقه أبي العباس أحمد، وابن عمّه أبي الفضل محمد بن علي التيجاني، والكاتبة الشاعرة زينب بنت إبراهيم التيجاني، وسواهم كثير.

ومن الأدباء المعاصرين: محمد بن عمر المليكشي، رئيس ديوان الإنشاء المتوفّى سنة 740/ 1340، وكان صديقا لابن الخطيب السلماني، ومحمد بن عبد اللّه الهوّاري وإسحاق بن حسينة وأحمد بن عبد اللّه الرصافي ومحمد بن رأس الخجلة وكلّهم من مشاهير حملة الأقلام في الدواوين الحفصيّة، ولكلّ واحد منهم أشعار مُدوَّنة في أغراض متنوّعة.

15- أبو حفص عمر الثاني (1346 - 1347)

لما توفّي أبو بكر جمع الحاجب محمد بن تافراجين رجال الدولة وأخذ عليهم البيعة للأمير أبي حفص ابن السلطان أبي بكر الثاني فتولّى بالحاضرة، وكان أخوه أبو العبّاس عاملا على الجريد، فلما بلغه خبر وفاة أبيه وما كان من بيعة أخيه، دعا العرب إلى مظاهرته فأجابوه ونزعوا إلى طاعته، فزحف بهم إلى جهة تونس وخرج أبو حفص في عسكر لملاقاته. فلما تقابل الجمعان نكص الحاجب ابن تافراجين راجعا إلى الحاضرة، ثم التحق بالسلطان أبي الحسن المريني صاحب المغربين الأوسط والأقصى.

استيلاء المريني على تونس: 1347

كان أبو الحسن المريني يترقّب الفرص للاستيلاء على إفريقية، فاغتنم فرصة الفتن الواقعة بين أمراء بني حفص، وعزم على اغتصاب السلطة من أيديهم، لاسيما وقد قوي عزمه بقدوم ابن تافراجين، فجهّز العساكر وخرج يقودهم سنة 748/ 1347 وسار إلى قسنطينة وقبض على من فيها من الأمراء الحفصيّين وشرّدهم إلى المغرب، ثم قصد تونس ففرّ منها السلطان أبو حفص فلحقه وقتله.

واستولى أبو الحسن على تونس واستتبّ له ملك إفريقية برهة من الزمن، غير أنه لم يحسن السياسة مع العرب الذين كان لهم في الدولة الحفصية نفوذ عظيم ومكانة كبرى. ذلك أنه ضرب أيديهم بعصا من حديد وعبث بحقوقهم، فأنفت نفوسهم هذه المعاملة وأصرّوا على الثورة، خصوصًا وقد داخلهم محمد بن تافراجين إذ لم يجد لدى السلطان المريني ما كان يأمله. فاتّفقوا على زعيم منهم وزحفوا إلى القيروان، فلقيهم أبو الحسن، وبعد قتال

عنيف اختلّت صفوف المريني وانهزم هزيمة شنعاء سنة 1349/750 و لم يفده إلاّ الهروب إلى مرّاكش، فكانت إقامته في إفريقية عامين ونصف العام.

أمّا الحاجب ابن تافراجين فإنّه تحوّل إلى المشرق مظهرًا الورع وأداء فريضة الحجّ.

16- الفضل بن أبي بكر (1350)

كان هذا الأمير متولّيا على عنّابة، فلما ارتحل المريني دخل تونس فبايعه أهلها، وأعاد ما ذهب من سلطان بني حفص، ثم إن تافراجين رجع من الحجّ فطلب من السلطان إرجاعه إلى خطّة الحجابة، فامتنع الفضل، وعندئذ دبّر هذا الحاجب الداهية مكيدة للإيقاع بالسلطان. فإنّه عمد إلى أخيه أبي إسحاق إبراهيم بن أبي بكر وجاء به إلى القصبة وأقعده على عرش المملكة وحمل الناس على مبايعته، وهو يومئذ غلام، وسيق إليه أخوه الفضل فأمر بقتله سنة 751/ 1350.

17- أبو إسحاق إبراهيم (1350 - 1369)

بُويع هذا الأمير على صغر سنّه وكان المستبدّ على أمير المملكة هو حاجبه ابن تافراجين، فلم يكن للسلطان معه إلاّ مجرّد اسم بلا مُسمًّى، ونقم عليه أمراء بني حفص واستولى كلّ واحد منهم على ناحية من البلاد. ودامت الحال على ذلك بين فتنة وهدنة مع بني مرين من جهة ومع أقاربه والأعراب من جهة أخرى إلى أن توفّي ابن تافراجين سنة 766 / 1364 ودُفِن بمدرسة قرب حوانيت عاشور [نهج سيدي إبراهيم الرياحي الآن]. فسكنت القلاقل نوعًا ما. وتوفّي أبو إسحاق سنة 770/ 1369، فتولّى بعد ابنه خالد.

18- خالد الثاني (1369- 1370)

قام بالأمر وهو لا يتجاوز الحلم، فاستبدّت عليه حاشيته وأساؤوا السيرة، وكان أمر الأمير أبي العبّاس أحمد قد عظم في قسنطينة وأعمالها، فلما عَلِم بوفاة عمّه أبي إسحاق جدّ السير إلى تونس فامتلكها بلا كثير عناء سنة 772- 1370 وخلع خالدا.

19- أبو العباس أحمد (1370 - 1394)

لما استقلّ هذا السلطان بأمر إفريقية شمّر عن ساعد الجدّ فأوقع بالأعراب المتغلّبين على أعمال المملكة، وفي مدة وجيزة استرجع سائر النواحي التي

كانت أُخِذت من الدولة أثناء الفتن مثل نواحي سوسة والمهدية وجربة وقابس والجريد. وبعد أن استعادها اهتمّ بالإصلاح وإنماء موارد الرزق، فأينعت البلاد وساد الأمن وعمّ العدل. وفي عهده حاول الإفرنج من أهل جنوة والبندقية منازلة المهدية بأساطيلهم فسيّر السلطان لهم جيشا عظيما أرجعهم عن أعقابهم خاسرين.

وتوفي أبو العباس سنة 1394/796 ، بعد أن دعّم لابنه أركان الدولة الحفصية وأعاد لها هيبتها وسطوتها.

20- أبو فارس عبد العزيز (1394- 1434)

هذا السلطان هو درّة عقد الدولة الحفصية وفخر من مفاخر البلاد التونسية، سار بعدل وتدبير سياسة. فازدهرت إفريقية في أيامه وبلغت شأوا بعيدا في الثروة والعمران.

افتتح ولايته بتمهيد النواحي النائية، فأخضع الجريد وقابس وطرابلس والصحراء. وكان الأعراب، ولاسيما منهم بني سُلَيْم[1] قد اعتادوا الثورات، لما في ذلك من الفائدة لهم والغنيمة، فلما أخضد أبو فارس شوكتهم استصرخ بعضهم بسلطان فاس من بني مرين، فعاضدهم بعساكر وسيّر معهم أقوامًا، فلما بلغوا بجاية انضمّ إليهم الأمير الحفصي أبو عبد اللّه محمد بن أبي زكرياء، وقصدوا تونس، فخرج أبو فارس لملاقاتهم وأوقع بهم سنة 1409/812 وقَتل ابن عمّه أبا عبد اللّه الثائر. وعقب ذلك تحرّك أبو فارس إلى جهة المغرب لأخذ الثأر من السلطان المريني فاستولى على تلمسان ثم قصد فاس، وحين شارفها جنح صاحبها المريني إلى السلم، فقبل منه أبو فارس وقفل راجعًا إلى حاضرته، ولحقته في طريقه بيعة أهل المغرب وكذا أهل الأندلس وصار شمال إفريقيا كلّه تحت طاعته وفي قبضة يده. ولم يزل أبو فارس مؤيّدا منصورا إلى أن فاجأته الوفاة سنة 1434/837

ومن وفاته أخذت الدولة الحفصية في التراجع ولم تقم لها بعده قائمة لسوء تدبير خلفائه والسبب في علوّ كعب أبي فارس وبُعْد صيته هو أنه درى كيف يسوس الملك وسعى طوال مدّته في توطيد الراحة، فبانتشار العدل والأمن أقبلت الرعيّة مطمئنّة على العمل، وبذلك نمت الثروة العموميّة، وارتفعيت مداخيل الدولة حتى أن جباية المكوس في مدينة تونس وحدها

(1) بنو سُلَيْم: قبيلة كبيرة من أعراب بن هلال النازحين إلى إفريقية في عهد المعز بن باديس.

زادت على 500.000 فرنك ذهبا، وهو مبلغ جسيم بالنسبة إلى العصر، رغم أنه أبطل كثيرا من الضرائب الفادحة التي كان يدفعها السكّان ظلماً.

زيادة على ذلك فإن لهذا الأمير أعمالا جليلة، منها إنشاء قلاع ومعاقل لحراسة الثغور، كمحرس رأس أدار [بالوطن القبلي] والحمامات ورفراف. ومنها إنشاء خزانة الكتب الواقعة في شمال جامع الزيتونة، وقد أوقف عليها آلاف من المجلّدات، ومنها إنشاء سقايا ومرستان بالحاضرة للمرضى والعجّز.

وقد ازدان عصره أيضا بوجود علماء أفاضل مثل الشيخ محمد بن عمر الأبيّ شارح المدوّنة والقاضي عيسى الغبريني والمفتي أبي القاسم البرزلي، والمدرّس محمد القلشاني والعلامة الشهير عبد الرحمان بن خلدون[1].

21- محمد المنتصر (1434- 1435)

تولّى بعد جدّه أبي فارس ولم يلبث في الولاية إلاّ عاما وشهرين كانت كلّها حروبا وفتنا. ومن مآثره إنشاء المدرسة المنتصرية الكائنة بسوق الفلقة [قرب سوق النحاس] من حاضرة تونس، وبناء زاوية الولي الصالح أحمد بن عروس. توفّي سنة 839 / 1435، فبويع بعده أخوه أبو عمرو عثمان.

22- أبو عمرو عثمان (1434 - 1488)

كان شجاعا، حازما، محبّا للعلماء، وكانت أمّه من علوج النصارى اسمها مارية. فلما تولّى وفد عليه أخواله وأقاربه لتهنئته فأسكنهم في الربض الملاصق لحيّ القصبة فعُرِف من يومئذ بحومة العلوج. وثار عليه الأعراب مرارا فأوقع بهم. وخالفته تلمسان، فخرج إليها وامتلكها سنة 871/ 1466 وهدم أسوارها ووصل في حركته هذه إلى بلاد ريغ وورقلة من الصحراء الجزائرية واستأمن أهلها.

وفي أيامه فشى بتونس وباء جارف سنة 873/ 1468 بلغ من مات به في اليوم 14.000 نسمة على ماقيل. وتوفّي هذا السلطان سنة 893/ 1488 عن سن عالية، فخلفه حفيده أبو زكرياء.

23- أبو زكرياء الثالث (1488- 1494)

لم يحدث في مدّته القصيرة ما يستحق الذكر سوى ظهور طاعون فتّاك مات به خلق كثير من بينهم هذا السلطان ذاته سنة 899/ 1494، فبويع ابن أخيه أبو عبد الله محمد .

---

(1) انظر حول عهد السلطان أبي فارس: ابن القنفد، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصيّة، تحقيق الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي، تونس، 1968 (م).

24- أبـو عبـد اللّـه محمـد الثـاني (1494- 1527)

تولّى الملك وأمر بني حفص في ضعف وتراجع، حتى أن غالب أرجاء المملكة خرجت عن حكمه لعجز الدولة وهرمها.

وفي أيام هذا الأمير ظهر الأخَوان خير الدين وعرّوج، وأصلهما من جزيرة مدلّلي من جزر بحر الأرخبيل. وكانا يشتغلان بالجهاد في البحر الأبيض المتوسط[1]، فقدما في بعض المرّات على الأمير الحفصي واتفقا معه على غزو البحر ويكون له الخمس من الغنائم الحاصلة، واستمرّ الحال على ذلك مدّة من الزمن. ثم إنّ خير الدين وعرّوج افتكّا مدينة الجزائر من أيدي الإسبان وجعلاها مركزا مستقلاّ لعمارتهما البحريّة، فقويت بذلك شوكتهما وعلا صيتهما شرقاً وغرباً.

وفي الأثناء توفي أبو عبد اللّه الحفصي سنة 932/ 1526، وكان فطنا محبّا للخير مُكَرِّما لأهله، وهو الذي أنشأ مكتبة جامع الزيتونة المشهورة «بالعبدليّة» نسبةً إليه. وتولّى بعده ابنه الحسن.

25- الحسـن بـن أبـي عبـد اللّـه

سار في أوّل مدّته بعدل وإحسان، فالتفت عليه قلوب الرعيّة ثم نكص إلى سوء السيرة، فاضطربت الأحوال، وخرجت البلاد عن طاعته شيئا فشيئا وقوي نفوذ الأعراب.

---

(1) في الأصل «القرصنة» وهي كلمة في غير محلها تقابل المصطلح الفرنسي (PIRATERIE) والواقع أن الأمر يتعلّق بمفهوم آخر وهو الجهاد أو الغزو في البحر (COURSE)، وهي الكلمة التي أثبتناها في النصّ (م).

مواقع

مدينة تونس

مدينة تونس مطمح الآمال، ومصبّ كلّ برق ومحطّ الرحال من الغرب والشرق، وملتقى الركّاب والفلك، وناظمة فضائل البرّين في سلك، فإن شئتَ أصحرتَ في موكب، وإن شئت أبحرت في مركب، كأنها ملك والأرباض لها إكليل، وأرجاؤها روضة باكرتها ريح بليل.

وهذه المدينة - كلاها اللّه - من المُدُن العجيبة الغريبة، وهي في غاية الاتّساع ونهاية الإتقان، والرخام كثير بها، وأكثر أبواب ديارها معمول منه، عضائد وعتبًا، وجلّ مبانيها من حجر منحوت مُحْكَم العمل، ولها أبواب عديدة، وعند كلّ باب منها رَبَضَ متّسع على قدر البلد المستقلّ، ولو اتّفق أن يكون بها ماء جار، لكانت معدومة النظير شرقًا وغربًا، لكن ماؤها قليل، وفي ديارها مصانع لماء المطر.

وأما الساقية المجلوبة من ناحية زغوان، فقد استأثر بها قصر السلطان وجنانه، إلاّ رشحا يسير سرب إلى سقاية جامع الزيتونة يترشف منها في أنابيب من رصاص، ويستقي منها الغرباء ومَنْ ليس في بيته ماء.

وجامع الزيتونة من أحسن الجوامع وأتقنها وأكثرها إشراقاً، ودائره مسقّف، ووسطه فضاء قد نُصبت فيه أعمدة من خشب على قدر ارتفاع الجُدُر، وشُدّت إليها حبال متينة في حِلَق من حديد مثبتة فيها وفي السقوف شدّا محكما، فإذا كان يوم الجمعة نشرت عليها شُقَق الكتّان المطبقة الموصولة حتى تظلّل جميع الفضاء [الصحن]، ذلك دأبهم حتى ينصرف فصل الصيف.

من رحلة العبدري - سنة 688

الإمام ابن عرفة

هو أبو عبد اللّه محمد بن محمد بن عرفة، أحد أعلام المذهب المالكي بالقطر الإفريقي، وُلِد هذا الحبر التونسي سنة 716/1316 وأصله من قبيلة ورْغَمَّة القاطنة بالجنوب التونسي وإليها يُنْسَب، وأقبل على درس العلوم الدينية بجامع الزيتونة الأعظم، فقرأ على الشيخ محمد بن سلامة ومحمد بن عبد السلام وغيرهما، حتى برع في اللغة العربية والفقه وأصوله والقراءات والفرائض فأتقنها، واشتهر بالجدّ والاجتهاد وملازمة جلّة الشيوخ. ثم تقدّم إلى الرتب الشرعيّة، فتولّى إمامة جامع الزيتونة سنة 772/ 1370 قلّده إياه السلطان أبو العبّاس أحمد، ثم ترقّى إلى خطة الافتاء بالمملكة الحفصيّة. وقد شاع ذكره وذاع صيت علمه، قيل إن الفتيا كانت تأتي إليه من مسيرة شهر. وكان رأسا في العبادة والزهد والورع، انتفع به في العلوم خلق كثير من المغرب والمشرق، وتوفّي رحمه اللّه في 24 جمادى الآخرة سنة 803/ 1401 ودُفِن بجبل الزلاّج وقبره مشهور.

وله عدّة تآليف منها مختصر في الفقه مشهور باسمه و«المبسوط» في الأصول ومختصر في علم الكلام وغير ذلك من المصنّفات المفيدة.

ابن خلدون

ولِيّ الدين أبو زيد عبد الرحمان بن محمد بن خلدون الحضرمي التونسي العلاّمة الفيلسوف والمؤرّخ الشهير. وُلِد بمدينة تونس في غرّة رمضان سنة 732/ 27 ماي 1332 وتربّى في حجر والده، ثم قرأ على أساتذة عصره فأتقن اللغة العربية وتضلّع في الفنون والأدب والتاريخ، حتى صار من أعلم رجال زمانه. ثم تقدّم للمراتب الدولية، فتقلّد خطّة الكتابة للسلطان أبي إسحاق إبراهيم الحفصي، وهو حدث السنّ لم يطرأ شاربه، ثم التحق بالسلطان أبي عنان المريني بفاس فنظمه في سلك رجال دولته سنة 755/ 1354، ولما مات أبو عنان استعمله خليفته على كتابة سرّه، فقام بوظيفته أحسن قيام. ثم قصد الأندلس وأنزله سلطانها من بني الأحمر بغرناطة في قصره وأكرمه غاية الإكرام، وقد اختصّ به في تلك المدة الوزير لسان الدين ابن الخطيب اختصاص الأخ بأخيه، ثم سار سنة 765/ 1364 إلى صاحب قشتالة من ملوك إسبانيا لإتمام عقد الصلح بينه وبين سلطان المغرب بهديّة فاخرة، فلقيه في إشبيليه وعامله بالكرامة الفائقة حتى أنه طلب للمقام عنده، فامتنع وأراد الرحلة، فزوّده بهدايا ثمينة ورجع إلى غرناطة. وبعد برهة قصد صاحب بجاية فاحتفل به وقلّده أعمال دولته. ولم يزل مؤرّخنا ينتقل في البلاد المغربية من مدينة إلى أخرى وكلّ سلطان يحلّ عنده يُكرم مثواه ويعظّم شأنه ويكلّفه بمهمّات ملكه، إلى أن نزل بأهله في قلعة بني سلامة من بلاد بني توجين بالمغرب الأوسط سنة 776/ 1374، فأقام بها أربع سنين متخلّياً عن الشواغل، وهناك شرع في تأليف تاريخه الجليل، فأكمل «المقدمة» على ذلك الأسلوب البديع الذي أدّاه إليه صفاء فكرته وذهنه الوقّاد، فجاءت بدعة بين المصنّفات ومخالفة بنفسها لبقيّة تاريخه.

ثم اشتاقت نفسه إلى مطالعة الكتب، وأراد التصحيح والتنقيح، فارتحل إلى تونس سنة 780/ 1378 حيث قرر آباؤه مساكنهم وقبورهم. فاستدناه السلطان أبو العبّاس أحمد من مجلسه واختصّه لأسراره فاغتاظ رجال بطانته من ذلك وأخذوا في السعاية ولم تنجح مساعيهم، إذ كان السلطان مُعْرِضا عنهم، وكلّفه بإتمام تأليفه النفيس، فأكمل منه مؤرّخنا ما تيسّر له، ورفع أوّل نسخة منه إلى خزانة السلطان.

ثم قصد ابن خلدون مصر سنة 784/ 1382 فنزل بالإسكندرية والقاهرة وفيها أخذ يبثّ العلم. فانهال عليه الطلبة من كلّ فجّ، وجلس للتدريس في الجامع الأزهر. وقد اتّصل بسلطان مصر برقوق فأكرمه وأحسن مثواه، ثم ولاّه قاضي قضاة المالكية بالقطر المصري سنة 786/ 1384 فقام بوظيفته أحسن قيام، وعدل في القضاء وأنصف المظلوم من الظالم وسدّ أبواب الفساد، وفي ذلك الوقت قدم أهله من المغرب، وقبل أن يرسوا أصابت السفينة ريح شديدة أغرقتها، فذهب كلّ من فيها وغرق أهله وولده، فكان ذلك من أكبر المصائب التي لحقت مؤلّفنا، فتخلّى بعدها عن القضاء وانعكف على التدريس والتأليف. وخرج للحجّ سنة 789/ 1387، فقضى فريضته ثم عاد إلى مصر، وبقي في القاهرة منقطعًا للعلم، إلى أن طرقه أجله المحتوم سنة 808/ 1406 رحمه اللّه تعالى، ودُفِن بمقابر الصوفية خارج باب النصر من القاهرة.

وهذا العالم الفاضل هو مؤلّف التاريخ الجليل الكبير الحجم والفائدة الذي جمع فيه أخبارًا لم يقدر على جمعها سواه وهو المعروف «بكتاب العبر، وديوان المبتدإ والخبر، في أيّام العرب والعجم والبربر». وقد قسّمه إلى مقدّمة وثلاثة أقسام. فأمّا المقدمة فهي من أجلّ وأنفع الكتب، لما فيها من الفلسفة العمرانية، والآراء الاجتماعية، وقد تُرجِمَت إلى غالب اللغات الإفرنجيّة وغيرها نظرًا إلى أهمّيتها الكبرى.

وحيث كان ابن خلدون ممّن أنبتتهم التربة التونسية، فيحقّ لأبناء هذا القطر أن يتباهوا بمؤرّخهم الجهبذ الذي خلّد لتونس ذكرًا، وكسا سمعتها مجداً .

الفصل الرابع عشر

التنافس التركي الإسباني في تونس[1]

(من سنة 942/ 1535 إلى سنة 981 / 1574)

قدوم خير الدين الغازي

علم خير الدين ما آلت إليه مملكة الحفصيّين من الهرم والاضطراب، فعزم على امتلاكها، وربّما كانت من السلطان سليمان القانوني. فخرج من الجزائر في جيش من الأتراك واستولى على بنزرت. وبلغ الخبر الحسن الحفصي، فهرب من تونس لما كان يتوقّعه من الهزيمة، فدخل خير الدين تونس سنة 1528/935 وخطب بها للسلطان العثماني وسكّن الثائرة وأمّن الناس، فاستتبّ له بها الأمر.

ثم إن الحسن داخل الأعراب في القيام على خير الدين، فأجابوه واجتمعوا لقتال الأتراك، فخرج إليهم خير الدين وأنكى فيهم بمقذوفات المدافع التي لم يعهدوها من قبل حتى طلبوا الأمان فأمّنهم.

الحماية الإسبانية

ولما يئس الحسن من نصرة الأعراب، توجّه إلى إسبانيا مستنجداً بملكها شارل الخامس[2]. فأجاب نداءه وجهّز عمارة قويّة قادها بنفسه، فنزل على حلق الوادي ومنها زحف إلى تونس فدخلها سنة 942/ 1535، وأمر جيوشه بنهب المدينة، فاستباحوها بالقتل والأسر والسبي، حتى قيل إن عدد سكّان تونس كان 180.000 قُتِل منهم الثلث وأُسِر الثلث ونجا الثلث، ومن أفظع ما ارتكبه عساكر الإسبان، أنهم هجموا على جامع الزيتونة وبدّدوا ما كان يوجد فيه من نفائس المخطوطات في المكتبة العبدلية، فأصبحت أثرا بعد عين.

---

(1) انظر بالخصوص:
- ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس، تحقيق محمد شمام، تونس، 1967.
- والوزير السرّاج، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985، (م).

(2) شارلكان (أو شارل الخامس) من أعظم ملوك إسبانيا تولّى من سنة 1516 إلى 1558، وكان ملكه يشمل إسبانيا وألمانيا والنمسا وهولندا وإيطاليا وأمريكا الجنوبية والوسطى.

ونصّب شارل الخامس على عرش الحفصيين مولاي الحسن وشرّك معه في النظر أحد قواد الجيوش الإسبانية.

أمّا خير الدين فإنه لما رأى نزول النصارى بحلق الوادي حاول المدافعة بجنوده، فلما لم ينجح أطلق عنانه قاصداً الجزائر، ثم إن شارل الخامس (شارلكان) قبل مبارحته الحاضرة أمضى معاهدة مع الحسن بتاريخ 6 صفر 942/ 1535، تقضي الترخيص للإسبان بسكنى جميع أنحاء البلاد وإقامة شعائرهم الدينية والتنازل لهم عن مُدُن عنّابة وبنزرت وحلق الوادي، وتعهّد بدفع جباية سنوية قدرها 12000 دوكة[1]، وغير ذلك من الشروط المجحفة التي اعتاد الأقوياء فرضها على الضعفاء، فتحمّل هذا العبء مضطراً وعاد شارلكان إلى بلاده. بيد أن هذه الشروط لم يقبلها السكّان الذين اتّحدوا مع الأمير الحفصي أبي العبّاس أحمد صاحب عنّابة، المعروف باسم حميدة بن الحسن، وتمكّنوا من افتتاح تونس عنوة بعد قتال عنيف، وأمسكوا الحسن وسملوا عينيه، لكنه فرّ وهو أعمى وتوفّي بالقيروان، وقيل في أوروبا سنة 942/ 1535 واستتبّ الأمر لابنه حميدة.

أبو العبّاس أحمد الثاني

لم يكن هذا الأمير بسيّء السيرة، غير أنّ تداعي الدولة الحفصية للسقوط، وتمكّن الإسبان من البلاد، قد منعاه من تدارك الوضع، ففي مدّته استولت الجيوش الإسبانية على المهديّة والمنستير وجربة وطرابلس، وتحصّنوا بهذه الأماكن ومكثوا فيها زمنا طويلا إلى أن افتكّها منهم الغازي درغوث باشا[2] سنة 958/ 1551. وتقدّم هذا القائد بعد ذلك إلى القيروان بدعوة من أهلها، فأزاح عنها السلطة الحفصية الاسميّة ونصّب فيها واليا اسمه حيدر باشا، ثم استأنف غزواته البحريّة.

قدوم علي باشا

رأينا أنّ الغازي خير الدين كان اتّخذ ثغر الجزائر مركزا لعمارته البحريّة، ثم إنه ألحق قسما من البلاد الجزائرية بالممالك العثمانية، فصارت

---

(1) الدوكة: نوع من النقود الإسبانية، قيمة الواحدة تتراوح بين عشرة واثني عشر فرنكا ذهبا.

(2) درغوث باشا: واسمه باللغة التركية «طورغود رايس»، أصله من بلاد الأناضول نشأ صغيرا في الخدمة البحرية مع خير الدين واشتهر في قيادة السفن حتى نال رئاستها العليا. وله غزوات عديدة في البحر المتوسّط، منها هجومه على جزيرتيْ كرسيكا وصقلية واستيلاؤه على موانئ منها. ومات شهيدا وهو محاصر لجزيرة مالطة سنة 973هـ/ 1565م.

ولاية تركيّة يتولاّها مندوب من قِبَل الباب العالي[1]. فلمّا توفّي خير الدين عُيّن علي باشا خلفًا له. وكان هذا الوالي يراقب أحوال المملكة الحفصية، حتى وفد عليه أحد وزراء الأمير أبي العبّاس أحمد وحرّضه على امتلاك تونس، فجهّز علي باشا جيشا وقصدها، ولقيه الأمير الحفصي بباجة وبعد قتال انخذل هذا الأخير، فتقدم علي باشا إلى تونس واستولى عليها سنة 977/ 1569 وأخذ البيعة للسلطان العثماني سليم الثاني ابن السلطان سليمان القانوني ورتّب حراسة البلاد وقفل راجعا إلى الجزائر.

ولّما رأى الأمير الحفصي زوال ملكه، استنجد بملك إسبانيا بعدما كان معاديًا له والتزم بأداء مبلغ جسيم من المال. فوجّه له الإسبان أسطولا عظيما لإعانته على الأتراك، ولّما أرسى هذا الأسطول في حلق الوادي استظهر قائده بمكتوب من حكومته يقتضي فرض الحماية الإسبانية على البلاد ومقاسمة الحكم والجباية. فأنكر الأمير هذه الشروط وأنفت نفسه قبولها، فانتقل من حينه إلى صقلية سنة 980/ 1573 وأقام بها إلى أن توفي، فحُمِل جثمانه إلى تونس حيث دُفِن في زاوية سيدي قاسم الزليجي.

تجديد الحماية الإسبانية

غير أنّ الشروط التي أنكرها أحمد بن الحسن الحفصي قد قبلها أخوه محمد الذي انتصب بالفصبة في تونس سنة 980/ 1573 وقاسمه الحكم الكنت سربلوني الإسباني. وبمجرّد استيلاء الإسبان على البلاد أسرعوا إلى تحصين المدينة، فأقاموا قلعة عظيمة خارج سور تونس اشتهرت باسم الباستيون[2]، وجدّدوا بناء الحصن الكائن بجزيرة شكلي في وسط بُحيرة تونس، كما رمّموا حصون حلق الوادي وأسوارها بالحجارة الغليظة المقطوعة من الحنايا الرومانية، فأصبحت معقلا منيعا.

وقد لاقى أهل تونس في تلك الفترة من جور الجند الإسبان وتعدّيهم بأنواع المظالم، ما حمل السكّان على الفرار إلى البادية، فتفرّقوا أيدي سبا، واختفوا بالكهوف وناهم من الخطب وضروب الهوان ما لا يوصف. وممّا زاد الطين بلّة تطاول المتغلّبين على المعالم الدينية التي أُهينَت وانتُهِكت حرمتها

---

(1) الباب العالي: اسم يطلق على الحكومة العثمانية.

(2) الباستيون: لفظة إسبانية معناها القلعة، وقد كان هذا الحصن يقع خارج باب بحر من مدينة تونس حيث توجد الآن السفارة الفرنسيّة.

حتى قيل إن الخيول رُبطت بجامع الزيتونة وأُلقِي ما فيه من نفائس الكتب في الطرقات، وسيق البعض منها إلى مكتبة الفاتيكان برومة، ولا تزال تشاهد هناك.

اختلال الحماية

بيد أنّ سلطة مُدعَّمَة أركانها على الجور والتعسّف - كما كانت الحماية الإسبانية بالديار التونسيّة - لم يكن من الممكن أن تستمرّ لاغتياظ الرعايا وتوغّر صدورهم عليها. فكان غالب السكّان ينتهزون الفرص للإيقاع بالحفصيّين والإسبان معا، حتى سنحت الظروف بذلك في وقت وجيز بقدوم القوّة التركية. «والعدل إن دام عُمِّر، والظلم إن دام دُمِّر»، كما قيل في المثل.

تدخّل الأتراك

أسلفنا أن الغازي درغوث باشا كان استولى على القيروان وأناب على ولايتها حيدر باشا، فرتّب هذا القائد جيشا منظّما، وانضمّ إليه الجنود الذين تركهم علي باشا والي الجزائر لحراسة تونس. فكثر جمعه وصارت القوّة التركيّة المجتمعة بالقيروان ذات أهمية. فلما فرض الإسبان حمايتهم على بقايا المملكة الحفصية وتدخلوا في شؤون البلاد، عزم حيدر باشا على افتكاك تونس من أيديهم. فتخابر في شأن ذلك مع زميله مصطفى باشا قائد الحامية التركية في طرابلس، واتّفقا على جمع قوّاتهما والسير إلى تونس. فجهّز كلّ منهما عساكره والتقيا بالمحمد ية، ومن هناك أخذا يزحفان على العاصمة، حتى إذا قربا منها علما سرّا بوصول فرقة من الأسطول العثماني إلى المياه التونسية لنفس الغرض الذي كانا يقصدانه. وبذلك قويت عزيمة الجيوش الزاحفة.

سنان باشا

هذا الرجل من أعيان وزراء الدولة العثمانية قد سبقت له شهرة في خدمة الباب العالي بإخلاص ونصح حتى نال الصدارة [الوزارة الكبرى]. فلما فكر السلطان سليم الثاني في الاستيلاء على تونس، لم يَرَ للقيام بهذه المهمة أليق من وزيره سنان فعيّنه قائدا عاما على الجند وأضاف إليه علج علي قبودان رئيسا على العمارة البحرية المتألّفة من نحو ألف سفينة. وكان خروج هذا المدد العظيم من اسطنبول في غرّة ربيع الأوّل سنة 981/ 1574.

الفتـح العثمـاني

ما كادت المراكب التي على رأسها سنان باشا تلقي مراسيها أمام الحصون الإسبانية، حتى سرى خبرها إلى العساكر المُخيّمة قرب مدينة تونس، فتسارع قوادها إلى نصب الحصار على حلق الوادي برّاً، حينما كان سنان ساداً بنفسه البحر. ودارت رحى الحرب بين الجيشين، فاضطرّ الإسبان بعد مدافعة مستميتة إلى التخلّي عن مرساهم المنيع والتجؤوا هاربين مع عميلهم محمد الحفصي إلى قلاعهم بتونس، وتحصّنوا بالباستيون فلحقهم الأتراك إليها، واستمرّ القتال أيّاما متوالية، وأخيراً تمكّن سنان باشا من فتح القلاع عنوةً وتأسير من بها من جنود الإسبان، وذلك يوم 25 جمادى الأولى سنة 981/ 1574. فكانت هذه الواقعة من أعظم الوقائع الحربية لشدّة القوَّتَيْن المتقابلَتَيْن، وكثرة من هلك فيها من الجانبَيْن.

انقـراض الدولـة الحفصيَـة

لقد كان من جملة الأسرى المقبوض عليهم في هذه الواقعة الأمير محمد بن الحسن الحفصي الذي وجّهه سنان باشا إلى الأستانة حيث بقي معتقلا إلى أن قضى نحبه، وبوفاته انقطعت السلالة الحفصية، بعد أن حكمت إفريقية ما يقرب من 350 عاما حسبما مرّ بك؟

﴿ واللّه يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين ﴾.

الباب الثالث

العصور الحديثة

1574 - 1881

الفصل الخامس عشر
الإيالة التونسيّة في العهد التركي
(من سنة 981/ 1574 إلى سنة 1041 / 1630)

نظام الحكومة

لما أتمّ سنان باشا فتح تونس وأعمالها شرع في إقامة نظام يدور عليه سير البلاد، فكانت باكورة أعماله إلحاق الإيالة التونسية بالولايات العثمانية، فأصبحت جزءاً من مملكاتها بإفريقيا الشمالية الممتدّة من الجزائر إلى البلاد المصرية. ثم اعتنى بحراسة البلاد، فرتّب بها 4000 جندي من المتطوّعين المعروفين باسم «الانكشارية»[1] وأناط نظر كلّ مائة منهم إلى ضابط يسمّى «الداي»، وجعل لهم رئيسا وهو «الآغا»، وخصّص لجباية المال مأمورًا يُكنّى «بالباي». أما السفن الحربية فكانت لعهدة «قبودان رايس» وأنشأ بالقصبة «ديوانا» تجتمع به هذه الهيئة لفصل قضايا الجند وتدبير شؤون الولاية. وقد انتخب أعيانا من أهالي البلاد يحضرون بالديوان للمشاركة في النظر.

ولما توطّد الأمن بتونس وجرى العمل بالنظام المتقدّم رجع سنان باشا إلى الأستانة.

تقدّم الدايات

استمرّ الحال على هذا الترتيب إلى أن ثار صغار الجند برؤساء الديوان وفتكوا بهم لجورهم سنة 999/ 1590. فعقد حينئذ الباشا وكبراء العسكر مجلسا أجمع رأيهم فيه على تقديم أحد الدايات للنظر في شؤون الأنكشارية وحفظ النظام في مدينة تونس.

عثمان داي (1598 - 1610)

وهو من أفضل الجند القادمين صحبة سنان باشا، كان ذا حزم وعقل ودين، استقلّ بوظيفة الداي سنة 1598/1007 وشمّر عن ساعد الجدّ لتمهيد الراحة. فسنّ قوانين المساواة بين الرعايا تُعرَف «بالميزان»، ثمّ وجّه عنايته إلى

---

(1) الأنكشارية (وينطق بها الينيشريّة): معناه الجند الجديد، وهي الجيوش غير النظامية التي كانت موجودة بتركيا قبل السلطان محمود.

عمارة البلاد فوطّد أسبابها، وقد أعانه على ذلك قدوم نحو 30.000 مهاجر من جالية الأندلس.

إجـــلاء الأندلســـيّين

مضت قرون من الزمان والمسلمون مالكون لغالب بلاد إسبانيا. بيـد أن استيلاءهم لم يتمكّن إلاّ من الجهات الجنوبيـة مـن شـبه الجزيـرة الإيبيريّـة، أمـا القسم الشمالي، ولا سيما منه ناحية أشتورية، فقد استقلّ به نصـارى الإسـبان حيـث انحـازوا في جبالـه المنيعـة، ثـم بتعـاقب السـنين وظهـور الضعـف علـى المسلمين، تنمّر الإسبان وأخذوا يسترجعون المقاطعات الواحـدة تلـو الأخـرى، وساعدهم على ذلك انقسام المسلمين وتفرّق كلمتهم. فلما حلّ القـرن الثـامن للهجرة لم يبق من المملكـة الإسـلامية سـوى غرناطـة وضواحيهـا. وبقـدر مـا كانت تنفصم عصبية المسـلمين، كـان يـزداد أزر الإسـبان قـوّة والتآمـا، حتـى كـانت الطامّـة الكـبرى سـنة 897/ 1492، إذ حمـل النصـارى علـى المملكـة الإسلامية حملة واحدة، فافتكّوا غرناطة نهائيا من ملوكها بني الأحمـر علـى يـد فرناندو الكاثوليكي صاحب قشتالة، والملك للّه وجده.

وفـود الأندلســـيّين

وعندئذ هاجر خلق عظيم من مسـلمي الأندلـس إلى المغـرب والمشـرق، وبقـي كثـير مـن ضعفـائهم في مواطنهـم مُهَـانين في اعتقـادهم، مضطهديـن في حقوقهم، إلى أوائل القرن الحادي عشـر للهجـرة (السـابع عشـر ميـلادي)، إذ تكالب عليهم الإسبان بتوحّش وأخرجوهم من ديـارهم جميعـا، إلاّ مـن تنصّـر منهم بعد أن ساموهم سوء العذاب وشرّدوهم كلّ مشرّد. فـنزل بعضهـم بعـد مشاقّ لا تحصى بالمغرب الأقصـى لقربـه مـن بلادهـم، وقصـد آخـرون القطـر التونسي، لما كان يبلغهم من كرم أهله وخصب تربته، فوفدوا ملتجئين برقابهم ودينهم إلى هذه الديار سـنة 1607/1016 ومـا بعدهـا وكـان أوّل ورودهـم في عهد عثمان داي، كما أسلفنا فاستبشر بقدومهم، وأنس غربتهـم وحـثّ أهـل تونس على إكرامهم حتى أنساهم فقدان وطنهم.

انتشـار العمـــران

وقد أقطع عثمان داي هؤلاء المنكوبين ما اختـاروا مـن الأراضـي ووزّع علـى محتـاجيهم الأمـوال والنفقـات، فانتشـروا في أكنـاف البـلاد يشـيّدون،

وينشئون المزارع والبساتين، حتى استأنف القطر عمرانه المفقود وثروته الغابرة. فمن المدن التي أسّسوها سليمان وقرنبالية والجديّدة وزغوان وطبربة ومجاز الباب وتستور وقلعة الأندلس وغيرها. وعلاوة على ذلك، استوطن جانب وافر منهم مدينة تونس اتّخذوا بها حارات عُرِفت بهم مثل، حومة الأندلس، وزقاق الأندلس، وأنشأوا أسواقا للصناعات التي جلبوها معهم كصناعة الشاشية ونسيج الحرير ونقش الرخام والجبس والزليج، وقد نقل أهل البلاد عنهم أصول تلك الحِرَف حتى أتقنوها. وبالجملة فقد حصل للقطر من هجرة الأندلسيّين إليه ثروة واسعة وعمران دافق.

وعلى إثر قدوم الأندلسيّين إلى تونس توفي عثمان داي سنة 1610/1019 ودُفِن بزاوية سيدي ابن عروس بالعاصمة. وقد ترك ذريّة صالحة منهم حفيدته المحسنة الكبيرة عزيزة عثمانة، وخلفه في الولاية صهره يوسف.

يوسف داي (1610 - 1637)

انتصب هذا الداي واستقام له الأمر بما بذله سلفه من السعي في ترقية البلاد وتوطيد راحتها، وكان يوسف سديد الرأي عادلا، وفضله مشهور عند التونسيين، ومن آثاره الباقية التي خلّدت له الذكر الجميل: جامعه البهيج المعروف به الكائن قرب ضريح علي بن زياد والمدرسة اليوسفية، وما بالمدينة من أسواق التجارات كسوق الترك والبِرْكَة، وكانت سوقا للرقيق، وسوقَي البشامقية والجرابة، كلّها من إنشاءاته. كما أصلح الحنايا الحفصيّة وجلب عليها الماء لسقايات عديدة وذلك من حسناته، وأحدث أيضا حصونا وجسورا حافلة وثكنات كثيرة لجند الأنكشارية.

وفي عهد هذا الداي حصل خلاف في الحدود بين ولايَتَيْ الجزائر وتونس، ووقع بسببه قتال بين قبائل القطرَيْن، فتغلّب الجزائريون في واقعة السطارة قرب الكاف سنة 1037/ 1627. ثمّ تدارك يوسف الأمر بالصلح حقناً للدماء. وفي تلك المدّة استرجعت حكومة تونس جزيرة جربة التي كانت اغتصبتها ولاية طرابلس.

وفي أيّامه علا شأن الأسطول التونسي وقويت شوكة رؤساء البحر، وفي مقدّمتهم إسطا مراد رايس، وتواترت شكايات ممالك أوروبا من أعمال الغزو في البحر. فالتمست بعض الدول الأجنبيّة تلك المناسبة لنصب نوّاب

(قناصل) لدى حكومة تونس. ولم يزل يوسف داي مُطَاع الأمر محمود الأثر إلى أن التحق بجوار ربّه سنة 1637/1047 ودُفِن بتربته في صحن جامعه.

إسطا مراد (1637 - 1640)

قام بخطّة داي بعد يوسف، وكانت بيده رئاسة البحر كما أسلفنا، وله في مجال الغزو في البحر أخبار مشهورة، قيل إنه جلب للحاضرة في مرّة واحدة 12.000 أسير وقريبا من 90 مركبا بين كبيرة وصغيرة، وهو الذي عمّر مرسى غار الملح[1] بمهاجري الأندلس، وأنشأ فيها قلعة دفاعيّة، وقد كانت قبل ذلك مكمناً لمراكب قرصان الإفرنج. وكان إسطا مراد ذا همّة عالية ونجدة وحزم. ومن عدله عنايته بأهل الذمّة والذبّ عن حقوقهم، ولم تطل مدّته حيث توفي سنة 1050 / 1640.

تقدّم البايات

سبق لنا تعريف النظام الذي أقامه سنان باشا عقب الفتح العثماني، ثم أشرنا إلى الانقلاب الحاصل في هيئة الحكومة بسبب ثورة الانكشارية وما نتج عنه من تقديم خطة الداي واستحواذها على الرئاسة العليا في تدبير شؤون الولاية.

فلما تولّى يوسف داي استنجب أحد صغار الموظفين وهو مراد باي، فأدناه واعتضد به في الشؤون المهمّة من السفر بالعساكر وإخضاع البغاة وتحصيل الجبايات، وفي أثناء مباشرته لتلك المهمّات سعى مراد باي لدى الباب العالي في لقب باشا، فوافاه التقليد المرغوب فيه سنة 1041/ 1630[2]. ومن ذلك الحين توطّدت وظيفة الباي وأخذت أهميّة كبرى، وتحوّل النفوذ شيئا فشيئا من أيدي الداي إلى البايات إلى أن استقلّوا بالأمر تماماً.

---

(1) **غار الملح** : (ويسميه الإفرنج "بورتوفارينا": ميناء صغير يقع في شمال البلاد التونسية، تابع لولاية بنزرت.

(2) في نفس الوقت الذي عبّر فيه مراد باي عن ولائه للخليفة العثماني والباب العالي، سعى إلى إقامة نظام منافس للسلطة التركية التقليدية التي يمثلها الدايات، مستخدمًا لهذا الغرض الدعم الذي كان يحظى به من قبل أبناء البلاد (م).

عزيزة عثمانة

المحسنة الكبيرة والمنعمة الجليلة عزيزة بنت أبي العباس أحمد بن محمد بن عثمان داي. وهذا وجه شهرتها بعثمانة، نشأت هذه الفاضلة منتصف القرن الحادي عشر للهجرة (السابع عشر ميلادي) في وسط عائلة ذات يسر وكرم. وقد اعتنى والدها بتربيتها، فأضاف إليها من حفظها القرآن الشريف، وعلّمها أصول الدين مع ما يتبع ذلك من الآداب وتدبير المنزل، حتى تكاملت وصارت مثالا للعفّة والحنان بفضل تلك التربية الإسلاميّة العالية. ثم زوّجها أبوها بمن يلائم مقامها الرفيع - قيل هو يوسف داي - فكانت خير قرينة لأفضل بعل. وبعد مدّة تاقت نفسها الزكيّة لأداء فريضة الحجّ رغما عن صعوبة الأسفار في ذلك الحين، فحجّت مع حشمها وخدمها واعتمرت. وعند عودتها إلى تونس أطلقت مماليكها وأعتقت عبيدها احتسابًا لوجه اللّه تعالى، ثم استمرّت في الأعمال المبرورة والخيرات الصالحة المذكورة حتى ملأ صيتها الآفاق. ولما أحسّت بدنوّ الأجل الذي لا مرد له وضعت وصيّتها الخالدة.

فبهذه الوصيّة تجرّدت عزيزة عثمانة من جميع ما تكسبه من الأملاك الشاسعة في سبيل مشاريع الخير التي ينجرّ نفعها العميم للضعفاء والمساكين مدى الأحقاب. فأوقفت على مرستان مدينة تونس ما يقوم بنفقاته ولوازمه بأكمل عدّة وأتمّ نظام. كما حبّست على عتق الرقيق ريعا معتبرا، وكذلك على ختن الأطفال الفقراء وكسوتهم وعلى تجهيز الأبكار عند زواجهنّ وغير ذلك ممّا لا يدخل تحت حصر.

وتوفيّت رحمها اللّه سنة 1710/1122 وتربتها بحلقة النعال حذو المدرسة الشماعية [في سوق البلغاجية]، وقد خصّصت شيئا من ريع أوقافها لشراء أزهار توضع على قبرها في كل فصل من فصول العام من ورد وياسمين وبنفسج. ولا غرو أن كانت تحبّ الرياحين فما هي إلاّ زهرة زمانها بل ريحانة تونس بما تركت من ذكر عاطر يتلوه لسان شاكر.

﴿ والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً ﴾.

الفصل السادس عشر

الـدولـة المُـرَاديّـة[1]

(من سنة 1041/ 1631 إلى سنة 1114/ 1702)

مـراد بـاي[2]

يعتبر هذا الباي مؤسّس العائلة المُرَاديّة، وأصله، على ما قيل، من جزيرة كرسيكا وأتى صغيرا إلى تونس، فأسلم على يد سيّده رمضان بـاي، ثـم تقـدّم للولاية بعد وفاة مولاه سـنة 1022/ 1613 فقـام بوظيفتـه أحسـن قيـام، وكـان يوسف داي يستكفي به في مهمّات أمره، ولم يزل مراد باي يتدرّج في المراتب بما فيها من الكفاءات إلى أن تقلّـد لقـب الباشـوية، فتنـازل حينئـذ عـن السـفر بالأمحال لابنه حمودة باي وتوفي على إثر ذلك ودُفِنَ بتربته جوار زاوية أحمد بن عروس، وقام بالأمر بعده ابنه حمّودة.

حمـودة باشـا المـرادي

ويدعى أيضا محمّد باشا. كان نزيه النفس، واسع الصدر، كريمـا محبوبـا عند العامّة والخاصّة. نازل القـيروان سـنة ولايتـه (1041/ 1631) وشـرّد عنهـا أولاد سـعيد[3] الذيـن كـانوا اعصوصبـوا بهـا، ثـم توجّـه بالعسـاكر إلى حامّـة قابس، وكانت ملجأ للمفسدين من الأعراب. فشدّد عليها حتى افتكّها وأوقـع بعُصَاتهـا. وسـار بعـد ذلـك إلى عـدّة جهـات مـن المملكـة، فمهّـدوا راحتهـا وأدخلها في طاعته. ولما عاد إلى الحاضرة، رتّب أوجاق الصبايحيّة بأربع مراكـز من القطر وهي تونس والقيروان والكاف وباجة، ووظيفة هؤلاء الصبايحية تشبه وظيفة الدرك (الجندرمـة) في الأقطـار الأوروبيّـة، وهـي حفـظ الراحـة وتـأمين

---

(1) انظر: محمد بن الخوجة، صفحات من تاريخ تونس (بايات الدولة المرادية)، ص 48 ومـا بعدهـا، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986، (م).

(2) لا ينبغي الخلط بين مراد باي الأوّل مؤسّس الدولة المرادية، المتوفّى سنة 1631، وأصله من جزيرة كرسيكا، وبين الداي اسطا مراد السالف الذكر المتوفى سـنة 1640، وأصلـه مـن مدينـة جنـوة، وقـد خلف يوسف داي عند وفاته سنة 1637 (م).

(3) **أولاد سعيد** : قبيلة من الأعراب الزاحفين على إفريقية في مدّة المعزّ بن باديس في منتصف القـرن الخامس الهجري، ويقيم البعض منهم في جهة النفيضة من ولاية سوسة.

السُّبُل. وفي سنة 1068/ 1657 طلب حمودة من الخلافة العثمانية أن تقلّده رتبة الباشوية، فأتاه الفرمان مؤيّدا له بذلك، فتخلّى حينئذ عن السفر بالأمحال لابنه الأكبر مراد الثاني وعقد لبقيّة أولاده على نواحي الولاية وتخلّى عن الأمر تماماً. فكانت وفاته سنة 1076/ 1666.

ولهذا الباي في تونس ومدنها آثار حميدة منها: جامعه الشامخ البناء المحاذي لمقام الولي أحمد بن عروس، وصومعته البديعة، ومنها مقام الصحابي الكبير أبي زمعة البلوي بالقيروان، ومنها مرستان المرضى بحومة العزّافين من الحاضرة، وأوقف عليه أحباسا جارية، أجزل اللّه عليه الرحمة والثواب.

مراد باي الثاني

استأثر مراد بالسلطة بعد أبيه وكان شجاعا، منصفا. نهض بالعساكر لأوّل ولايته يريد الجريد، فبلغه في طريقه أن عثمان باشا والي طرابلس، ثار عليه جند الانكشارية وقتلوه، فأسرع بالسير إلى طرابلس، وبعد أن شرّد عصابة الجيش الثائر ونصب فيها أحد أبناء المقتول وقفل راجعا إلى مقرّ ولايته. ثم قصد جبل وسلات لمنازلة أهله الباغين سنة 1085/ 1674 فحاصرهم وضيّق عليهم المسالك إلى أن افتتح الجبل عنوة، ثمّ عاد إلى تونس مؤيّدا منصورا. وعلى إثر ذلك قامت عليه طائفة من جند الأتراك واعصوصبت بإحدى الثكنات داخل الحاضرة، فعاجل مراد رؤساءهم بالقتل والنفي وهدّم الثكنة. وبنى بموضعها مدرسة علمية وهي المعروفة باسم المدرسة «المرادية» بسوق القماش في العاصمة.

ومن مآثر هذا الباي القنطرة المنصوبة على وادي مجردة حذو مجاز الباب، وكذلك جامع قابس والمسجد الحنفي بباجة. ولم يزل مراد باي قابضا على أزمة الأمور، ضاربا على أيدي العمال والدايات إلى أن توفي بقصر باردو سنة 1086/ 1675. وترك أبناء تنازعوا السلطة بعده وأوقعوا قلاقل زعزعت عرش بني مراد.

محمّد بن مراد باي

لما توفّي مراد اتّفق أهل الحلّ والعقد على ولاية ابنه مَحمّد باي، وهو الرابع من بين أبناء مراد باي الثاني، ولم يلبث أن حسده عمّه محمّد الحفصي

وأخذ يغري عليّا شقيق مَحمّد على أن يطالب أخاه بالمشاركة في السلطة. ولتحقيق غرضه ركن محمّد الحفصي إلى الداي مامي جمل، فاستعان به على بلوغ أمنيته. وبعد مخابرات طويلة انعقد ديوان الجند الأعلى وكان من قراره خلع محمّد وتقديم الحفصي في رجب سنة 1086/ 1675. وما كاد ينفضّ هذا المجلس حتى خرج محمّد بن مراد قاصداً الكاف وتولّى مكانه عمّه الحفصي. ومن ذلك الحين طرق الخلل الدولة المرادية ودخلها مرض الانقسام وتلاشي العصبية الذي هو علامة الهرم.

محمّد الحفصي

لما وصل مَحمد باي إلى الكاف ضبط أمرها وجعلها قاعدته، وطفق يحتشد الجموع لقتال عمّه المحتال. فانضمّ إليه غالب سكان الإيالة لتعلّقهم به وميلهم إلى شجاعته وسماحته. أمّا محمّد الحفصي فإنه لما أيقن بأن المقاومة لا تفيده، جمع الديوان بالعاصمة وأشهد على نفسه بالخلع وأخبر ابن أخيه مَحمد بذلك واستقدمه لاستلام زمام الحكم. فزحف مَحمد بأنصاره إلى أبواب مدينة تونس واشترط خروج عمّه الحفصي منها وإبعاده عنها. فركب هذا الأخير البحر وقصد الأستانة.

تنازع الأخوَين

وبمجرّد خروج الحفصي، دخل مَحمد باي العاصمة وانتصب للأمر، فبادر بسجن أخيه في قصر، وضيّق عليه. لكن بعد برهة تمكّن علي من الفرار، فركب البحر متوجّها إلى قسنطينه من بلاد الجزائر حيث تزوّج بابنة شيخ الحنانشة[1] سلطان بن منصر، واستعان بصهره لطلب الولاية من أخيه. وقد التفّ حوله كثير من قبائل العرب التابعة للحنانشة، فزحف بهم إلى القطر التونسي ونزل بجبل وسلات. ولما بلغ الخبر إلى محمّد باي نهض مسرعا لقتال أخيه. فحاصره بالجبل إلى أن هجم عليه رجال علي، فأوقعوه في هزيمة شنعاء سنة 1087/ 1676، ونجا مَحمد وتمكّن بعد مشاقّ من الوصول إلى الكاف في نفر من أنصاره.

---

(1) **الحنانشة** : قبيلة عربيّة كبيرة تقيم في ناحية قسنطينة، ومركزها مدينة تبسّة.

علي بن مراد باي

أمّا علي فإنه جدّ السير إلى مدينة تونس، وأخذ البيعة على أهلها، وبعد توطيد مركزه خرج بمحلّته لجباية الأموال، فما بلغ القيروان حتى فاجأه الخبر بأن أخاه استولى على بلاد الجريد، فأقلع في أثره، ولما شارف قفصة نكص مَحمد باي إلى الحاضرة ودخلها في جمع عظيم واستقرّ بها قليلا، و لم يلبث أن علم بقدوم أخيه عليّ. فتلقّاه مَحمد في جموعه بفحص سمنجة[1] وحاربه. وقد تجرّع سكّان القطر في تلك المدّة من تنازع الأخوَيْن غصص الشدائد لجور أنصار الجانبَيْن واختلال الأمن، ولما اتّسع الخرق وآل التشاحن إلى حرب أهليّة، وهي أضرّ الحروب، حاولت طائفة من العلماء والفضلاء إصلاح ذات البين، فتردّدوا بين الفريقَيْن، لكن للأسف لم ينجح مسعاهم، واستمرّت الحرب على قدم وساق بين الأخوَيْن إلى أن قدم عمّهما الحفصي متقلّدا منصب الباشا من الباب العالي، وانتهز فرصة تشاغبهما خارج العاصمة للاستيلاء عليها سنة 1089/ 1678. و لم تزد الحالة بذلك إلاّ تحرّجاً وارتباكاً.

تدخّل الجزائريّين

لّما تحقق مَحمد باي ضعف أنصاره التفت إلى الجزائريّين واستنجد بهم لقتال أخيه، فتقدّمت عساكرهم إلى الكاف وتقابلوا مع محلّة عليّ فهزموها. ثم زحف مَحمد مُقْتَفياً أثر جموع أخيه فنزل صحبة الجزائريّين بالحرايريّة في ضواحي مدينة تونس حيث بلغه أن الداي أحمد شلبي اعصوصب ببعض الجند واستقلّ بأمر العاصمة، فراسل محمّد أخاه عليًّا، ولما حضر اصطلحا على قسمة البلاد بينهما وعزما على قتال الداي الثائر. وبالفعل فقد جمع الأخوان قوّتَيْهما ولقيا الطائفة المغتصبة. فكانت الدائرة على جيشَيْ محمّد وعليّ. وقوي حينئذ شأن أحمد شلبي سوى أن دولته لم تدم طويلا، إذ راسل الأخوَان والي الجزائر، إبراهيم خوجة واستنجدا به ملتزمَيْن له بشروط، فقدم الجزائريّون إلى القطر التونسي للمرّة الثانية واجتمعوا بالأخوَيْن، ثم قصدوا تونس فحاصروها إلى أن تمكّنوا من الداي وشيعته سنة 1092/ 1681 وجُدّدت البيعة إلى الأخوَيْن على قاعدة القسمة السابقة.

---

(1) **فحص سمنجة** (ويُسَمّى اليوم الفحص): هو وطن بولاية زغوان، أرضه منبسطة (سهل) صالحة لزراعة الحبوب.

وفي نفس هذه السنة توفّي محمّد الحفصي بالبلاد التركيّة وجُلبت جثّته إلى تونس ودُفن بتربة أسلافه.

استقلال مَحمد باي

إلاّ أن المقاسمة التي تعاهد عليها الأخوَان لم يُكتَب لها أن تتمّ وبالأجرى أن تستمرّ. فلم تمض سوى أشهر حتى قتل بعض الجنود عليّا سنة 1096/ 1684 وصفا الجوّ لمحمد. وبعد أيّام ارتحل الجزائريّون يجرّون وراءهم غنائم الشروط التي اشترطوها وانفرد مَحمّد باي بولاية تونس. ولهذا الباي مآثر حسنة أنشأها مدة تقلّباته في القطر، منها مساجد [مثل جامعه بمدينة تونس المعروف «بجامع سيدي محرز»][1]، ومدارس للعلم في كلّ من الكاف وباجة والقيروان وقابس والجريد. وله بعض الأسواق بالحاضرة مازالت قائمة الذات.

ثورة ابن شكر

وفي آخر عهد هذا الباي ثار عليه خليفته وصهره محمّد بن شكر واستعان بالجزائريّين فأمدّوه بجيش نزل قرب الكاف سنة 1693/1105، وخرج إليهم محمّد باي في عساكره فهزموه واستولوا على ذخائره، فقفل راجعاً إلى تونس وتهيّأ للقتال. وما كانت سوى أيّام حتى هاجمه الجزائريّون صحبة ابن شكر وخيّموا في الملاّسين[2]، وأخذوا يشنّون الغارة على ضواحي العاصمة، فأيقن محمّد بالغلبة وفرّ إلى داخل البلاد، متردّداً بين المدن التونسية إلى أن ساعفه الحظّ فجمع جيشا قاتل به ابن شكر وجماعته وهزمهم قرب القيروان سنة 1694/1106 وانسحب محمّد بن شكر مفلولا إلى مدينة قابس حيث أدركته المنيّة. ورجع محمّد باي إلى تونس وهادن الجزائريّين وبقي إلى أن وافاه أجله سنة 1696/1108 ودُفِن في ضريح أجداده وخلفه في الأمر أخوه رمضان باي.

رمضان باي

كان هذا الباي ضعيف العزيمة خمولا، ميّالا إلى البطالة واللّهو. وقد فوّض تدبير شؤون البلاد إلى أحد المغنّين من مواليه، فسار فيها بالحيف وأثار على مولاه الخواطر، وكانت أمّ رمضان باي مسيحيّة وتوفّيت على دينها،

---

(1) شرع مَحمد باي في بناء هذا الجامع سنة 1691/1103 فأتمّه أخوه رمضان باي، انظر محمد بن الخوجة، "تاريخ معالم التوحيد"، دار الغرب الإسلامي، بيروت، سنة 1985، ص 185، (م).

(2) **الملاّسين**: قرية صغيرة تقع خارج مدينة تونس من الجهة الغربيّة.

فابتنى لها ابنها كنيسة في باب قرطاجنة، وهي أوّل معبد للنصارى أنشئ بمدينة تونس في العهد الإسلامي، وبعد عامَيْن من انتصابه ثار عله ابن أخيه مراد بن علي وقتله سنة 1110/ 1698 وتولّى مكانه.

مراد باي الثالث

لم تكد تتمّ الولاية لهذا الباي حتى أقبل على سيرته القبيحة الشهيرة بين النونسيّين. وذلك أنّ هذا الظالم المستبدّ قد استباح كلّ المحرّمات من هتك لحرمات والمجاهرة بالفواحش وسفك دماء الأبرياء لمجرّد الظنّ أو التهمة الكاذبة. وكان له سيف يُسمَّى «البالة»[1] لا يكاد يتركه يوماً من إراقة الدماء، وإذا لم يقتل أحداً قال: «إنّ البالة قد جاعت»، ولذلك عُرف في التاريخ باسم «مُراد بوبالة». وغاية ما يقال عن جوره أنه لم يتولّ قطّ من الملوك ولا الأمراء الذين تداولوا على القطر التونسي أظلم من هذا الجائر الغشوم الذي أنزل بأهل تونس من الاعتساف ما لا يقدم عليه أحدٌ من الجبابرة الظالمين!

وفي أوائل سنة 1112/ 1700 وجّه مراد باي رسلا إلى الجزائر بهديّة إلى واليها فردّها عليه وأظهر له العداوة، فاستشاط غضباً وعزم على قتال الجزائريّين. فجمع خيله ورجله وسار إلى قسنطينة وهزم صاحبها. ثم وردت الإمدادات من الجزائر ففتكت بعساكر مراد قرب مدينة سطيف[2] وتخلّص هذا الباي مفلولاً مدحوراً وقصد القيروان وخرّب معالمها الجليلة ولم يترك فيها سوى المساجد وبعض الزوايا. ولبث هذا الجائر يعيث في البلاد فسادا حتى فتك به إبراهيم الشريف بمواطاة كبراء الجند وقيل بإذن من الباب العالي. وعلى كلتا الحالتين فقد استراحت منه البلاد والعباد. وكان مقتله في 13 محرم سنة 1114/ 1702. وبوفاته انقرضت دولة بني مراد، ولله المبدأ والمعاد

إبراهيم الشريف (1702 - 1705)

أصل هذا الرجل من جند الأتراك بالجزائر، قدم إلى تونس مع الثائر محمّد بن شكر، ثم انخرط في خدمة مَحمد باي حتى ترقّى إلى خطّة آغا، فلمّا أوقع بمراد بوبالة كما تقدّم، بايعه الجند وانتصب بتونس وأولى قارة مصطفى دايا ثم عزله، وتقلّد وظيفته وصار يرسم أوامره باسم «إبراهيم الشريف باي داي». وعلى إثر ذلك أتاه لقب باشا من الخلافة العثمانية، فصار يوقّع «الباشا

---

(1) **«البَالة»** : اسم تركي يُطلَق على نوع من السيوف الحادّة الشفرتَيْن.

(2) **سطيف** : مدينة تابعة لولاية قسنطينة تقع في الناحية الشرقية من البلاد الجزائرية.

إبراهيم باي داي». ثم عيّن حسين بن علي تركي خليفة له واستكفى به في حروبه وسياسة أموره.

وفي خلال سنة 1116/ 1704 حصلت له وحشة مع والي طرابلس، فخرج إليه إبراهيم في جيش عتيد وانتصر على الطرابلسيّين انتصارًا باهرًا، وحاصر عاصمتهم وشارف الاستيلاء عليها لولا وقوع طاعون جارف في عسكره ألزمه الرجوع إلى العاصمة، وفشا المرض حينئذ في مدينة تونس وفتك بأهلها حتى بلغ عدد المصابين به 700 في اليوم على ما قيل.

عودة الجزائريّين

لم يلبث إبراهيم الشريف أن نهض في رجاله لمحاربة الجزائريّين، وكان نائبه حسين بن علي يثبّط عزيمته على المبادرة بالقتال لانفضاض أنصاره من حوله، فأبى إبراهيم إلاّ التقدّم، فلما التقى الجمعان قرب الكاف، وقد فرّ عنها غالب العربان، انهزم إبراهيم الشريف وأُسِّر مع أخيه سنة 1117/ 1705. فدخل الجزائريّون الكاف وعاثوا في أرجائها وامتلأت أيديهم من نهبها، وما كاد خبر هذه الهزيمة يرد على تونس حتى جزع أهلها وارتاعوا من هجوم الجزائريّين على مدينتهم وهم فوضى بلا رئيس. فاجتمع كبراء الجند والعلماء والأعيان وتخابروا في انتخاب أمير يقلّدونه أمرهم. فاتّفقوا على تقديم «الكاهية» (النائب) حسين بن علي لما يعلمون من حميد خصاله وحزمه. وقد كان انتهى بعد انهزام إبراهيم إلى زاوية السيجومي جنوب العاصمة، فخرج إليه أهل الحلّ والعقد وألزموه قبول بيعتهم وجمع كلمتهم، ودخلوا به مدينة تونس وقلّدوه الأمر في 20 ربيع الأوّل 1117/ 15 جويلية 1705. ومن ذلك الحين انتقلت الولاية إلى البيت الحسيني واستمرّت في أعضائه كابرا عن كابر [إلى أن انقرضت الدولة الحسينيّة إثر إلغاء النظام الملكي وإعلان الجمهورية يوم 25 جويلية 1957].

الفصل السابع عشر

الدولة الحسينيّة[1]

الفترة الأولى

(من سنة 1117/ 1705 إلى سنة 1235/ 1837)

تمهيد

مؤسّس هذا البيت هو الأمير حسين باي الأكبر، وأصل أبيه علي تركي من مدينة كندية[2]. وفد على الإيالة التونسية في بداية الدولة المراديـة، وانخـرط في الجند ثم تقلّد رئاسة المتطوّعين من الأعراب ولبث علـى هـذه الخطّة إلى أن توفّي سنة 1103/ 1691. ونشأ ابنه حسين في كنف البايات المراديّـين. وتـدرّج في الولايات الرفيعة، كوظيفـة خزنـه دار، وهـي أمانـة أمـوال الجبايـات، وآغـا الصبايحية (الحرس) الترك وغير ذلك إلى أن كان من انتخابه للولاية كما أسلفنا في الفصل المتقدّم.

ولهذا الأمير الفضل في ترتيب أمر الولاية إذ جعلها وراثية يتداولها الأكبر فالأكبر من ذريّته، وبذلك خابت آمال الطامعين في الحكم. وقد انتظمت أمور الإيالة التونسيّة بمهمّة أفراد العائلة الحسينيّة الذين أنشأوا المعالم الدوليّة وشيّدوا المدارس ووضعوا القوانين العدليّة، وبالجملة مهّدوا للرقيّ سبيلاً، حسبما سـتراه مفصّلا في مكانه.

1- حسـين بـن علـيّ (1705- 1735)

تمّت له البيعة بديوان المدفعية أمام باب القصبة في 20 ربيع الأوّل 1117/ 15 جويلية 1705. وافتتح حسين باي أعماله بترميم سور مدينة تونس وتحصين قلاعها واستعدّ للتصدّي للمهاجمين، وما لبـث أن قـدم الجزائريّـون في 40.000 مقاتل وخيّموا بضواحي العاصمة. وقـد كـان الجيـش لا يتجـاوز عـدد جنـوده

---

(1) انظر: أحمد بن أبي الضياف، «إتحاف أهل الزمان بأخبـار ملـوك تونـس وعهـد الأمـان»، الطبعة الأولى، تونس، (1962-1966). وانـظر أيضـا : محمد صالح مزالي «الخلافة علـى العـرش الحسيني»، الدار التونسية للنشر، تونس، 1969 (م).

(2) **كندية** : مدينة تقع في جزيرة كريت (التي يسميها المؤرّخون العرب إقريطش)، وغالب أهلها إمـا يونانيّون أو مسلمون. وقد كانت هذه الجزيرة تابعة للخلافة العثمانية، وهي أعظم جزيـرة في حـوض البحر المتوسّط الشرقي. ثم انفصلت عن تركيا سنة 1898، وأصبحت لها حكومة مركزية تحت مراقبة الدول الأوروبية العظمى. وأُلحِقت فيما بعد ببلاد اليونان.

18.000 جندي، فسعى حسين باي في عقد صلح ولكنه لم ينجح، فدارت الحرب بين الجانبين وفي الآخر أقلع الجزائريّون دون أن يحصّلوا على كبير فائدة ورجعوا إلى بلادهم خائبين، وعاد حسين باي إلى العاصمة ومهّد عافيتها، وصرف عزمه لتنمية أسباب ثروتها.

ولم يكن لهذا الأمير في أوّل أمره ولدٌ، فتبنّى ابن أخيه عليّ بن محمّد وأحسن تربيته وضمّ إليه العلماء وحرّضه على اقتناء المعارف، فلمّا كبر عليّ استعان به في أمور الدولة وولاّه السفر بالأمحال. ثم رُزق حسين باي أبناؤه الثلاثة محمّد الرشيد وعلي ومحمود من جارية أصلها من جنوة.

خروج علي بن محمّد على عمّه

لمّا بلغ عليّ من السنّ ثلاثين عاما أو نحوها منحه عمّه لقب باشا، وأولى ابنه الأكبر محمّد الرشيد خطة السفر بالمحلّة، فاستصغر عليّ الوظيفة المسندة إليه واغتاظ لذلك وخرج مغاضباً إلى جبل وسلات، فلحقه إليه حسين باي في رجاله وشرّده إلى الصحراء سنة 1140/ 1728.

وتقلّبت الأحوال على عليّ باشا إلى أن وصل إلى الجزائر، فأمدّه صاحبها بجيش جرّار لمحاربة عمّه على شروط اتّفقا عليها، وزحف عليّ بهذه النجدة إلى الإيالة التونسية، فلاقى عساكر عمّه في سمنجة وانتصر عليهم سنة 1147/ 1735. ثم دخل تونس وتقلّد شعار الولاية مكان عمّه وصار تابعا لداي الجزائر يؤدّي إليه الجزية.

أمّا حسين باي، فقد نجا مع أبنائه إلى القيروان، وتوالت الحرب من جديد بين العمّ وابن أخيه سنين طويلة حتى كانت سنة 1153/ 1740، وفيها خرج حسين باي للقتال، فاستشهد جنوب القيروان ودُفِن في تربته المشهورة بتونس[1].

مآثر حسين باي

لهذا الباي عناية خاصة بالعمران وأسبابه، وقد تشهد له بذلك أخبار عدله المرويّة وتحريضه لسكّان الإيالة تحريض الأب المشفق لبنيه الصالحين. فبهذه العناية أقبل الناس في أيّامه على العمل وتعاطي وسائل الثروة، كلٌّ

---

(1) تربة الحسينيّين المشهورة هي التربة المعروفة باسم **تربة الباي** الواقعة بالعاصمة في النهج الذي يحمل اسمها «نهج تربة الباي». والتي أنشأها الأمير علي بن حسين باي (1759- 1762)، وهو أوّل من دُفن بها من الأمراء الحسينيّين، أمّا حسين باي فقد دُفن في تربة سيدي الفلاّري التي أنشأها هو ذاته في سنة 1711، وهي تقع بجوار تربة الباي (م).

حسب استعداده واجتهاده، فتنافسوا في الصناعات والتجارة والفلاحة حتى امتلأت أيديهم من المكاسب، وكان حسين باي ينشّطهم على ذلك بتخفيف أثقال الجبايات، ويدرّبهم بسياسته على الاقتصاد وعدم الإسراف، حتى كاد يكون الترف ممنوعا في عصره، وتسابقوا إلى الخصال الحميدة والخلال الشريفة، والناس على دين ملوكهم، كما في المثل.

ومن مآثره العمرانيّة إحياؤه لمعالم مدينة القيروان التي كان خرّبها مراد باي الثالث، ومنها إنشاءاته العلميّة بالعاصمة، كمدرستَيْ الحسينيّة والنخلة، ومدارسه بسوسة والقيروان وصفاقس ونفطة، وهو أوّل من اتّخذ باردو مقرّاً للحكومة وابتنى به قصرا ومسجدا، وأنشأ عدّة جسور وصهاريج لجمع المياه وغير ذلك من أعمال البرّ التي أبقت عاطر ذكره إلى الآن. وقد يفنى البشر، ويبقى الأثر.

علي باشا (1735- 1756)

لمّا استقلّ عليّ باشا بالولاية، حكّم السيف في شيعة عمّه، وابتُلِيَ بذلك أناس كثيرون، وقد كان لهذا الباي أبناء أكبرهم سنّا يونس، كان تقلّب معه في عسره ويسره وأعانه بحزمه على الاستيلاء على الحكم، فلما آلت إليه الدولة أولاه قيادة المحلّة.

وفي سنة 1153/ 1740 سيّر ابنه في جيش لتشريد الجنويّين المقيمين بمرسى طبرقة[1] بقصد صيد المرجان، وكانوا تجاوزوا المساحة المُرخّصة لهم فيها وشرعوا في إنشاء قلعة محصّنة بها، فهاجمهم يونس برجاله وزحزحهم عن البلدة. ثم التفت إلى قرية تامكرت[2] وكانت بها مراكز تجاريّة لبعض الشركات الفرنسيّة، فخرّبها وأجلى عنها سكّانها، فحصلت بسبب ذلك وحشة بين قنصل فرنسا وعلي باشا آلت إلى قطع العلاقات السياسيّة بين الحكومتَيْن. وبعد الاستعداد والتهديد من الطرفين وقع الصلح ورجعت الروابط الودّية إلى معتادها.

أبناء حسين باي

كان أبناء حسين باي نجوا عقب مقتل أبيهم إلى الجزائر طالبين الثأر، فلما كانت سنة 1159/ 1746 خرجوا بجيش أمدّهم به داي الجزائر ونزلوا على

---

(1) **طبرقة** : مرسى على جبل مرتفع، يقع في ناحية عين دراهم بالشمال الغربي من البلاد التونسية، ويوجد في بحرها المرجان الرفيع.

(2) **تامكرت** : قرية كانت تقع حذو طبرقة ويسمّيها الإفرنج «كاب نيغرو» (أي الرأس الأسود).

الكاف، وقد انضمّ إليهم كثير من أبناء القبائل التونسية. غير أن باي قسنطينة الذي كان حليف عليّ باشا تثاقل عن إمدادهم بالذخائر الحربيّة لحصار قلاع الكاف، فاضطرّ محمّد الرشيد ومحمود وعليّ باي إلى الرجوع بلا طائل.

ثورة يونس ومقتل علي باشا

تقدّم لنا أن يونس باي كان بالمنزلة الرفيعة عند أبيه لكفاءته وحزمه، وكان أخواه سليمان ومحمّد يغبطانه على تلك المنزلة لدى أبيهم واختصاصه بأموره، فسعيا به لدى عليّ باشا حتى أوغرا عليه صدره، ومن ذلك الحين دبّت عقارب الشقاق بين الأب والابن وآل الآمر إلى شقّ يونس عصا الطاعة في وجه أبيه. وقد انحاز إليه جانب من رجال الدولة والجند والقبائل سنة 1165/ 1752 وانقسمت العاصمة إلى شقّيْن: القبلي ليونس والجوفي لأبيه. وبعد قتال عنيف بنفس المدينة وهن حزب يونس الذي خرج في جماعة من أتباعه متّجهاً إلى قسنطينة حيث اختفى عند صاحبها، وفيها كانت وفاته. وكفى المؤمنين شرّ النزاع.

وفي الأثناء كان كثير من أعيان تونس يكاتبون محمّد الرشيد وأخيه عليّ باي سرًّا ويحثونهما على القدوم إلى البلاد لانصراف الخواطر إليهما، فاستمدّ الأخوَان جيشا من صاحب الجزائر وزحفا به على الإيالة، وكان وصولهما إلى الكاف سنة 1169/ 1756. ثم عمدا إلى تونس العاصمة وحاصراها أيّاماً حتى امتلكاها ودخلاها مع الجزائريّين. أمّا علي باشا فقد دافع دفاع اليائس بمن بقي معه من أنصاره إلى أن قُتل ودفن بتربته الشهيرة [الكائنة بنهج الكتبيّين] [1]. وصفا جوّ الولاية حينئذ إلى محمّد الرشيد باي.

مآثر علي باشا

كان هذا الباي عالما شجاعاً مهيباً، إلاّ أنه كان جريئا على سفك الدماء، لاسيما فيما يتعلّق بالطاعة، على أن ذلك الوصف لم يمنعه من الشغف بالعلم والانخراط في أهله، ولا عجب فإنه درس كثيرا في صغره وتلقّى علوم العربيّة والبيان على أعلام عصره نخصّ بالذكر منهم الشيخ محمّد الخضراوي المتوفّى سنة 1144/ 1731، وقد ألّف علي باشا كتابا كبيرا شرح فيه «التسهيل» لابن مالك في النحو، وهو شرح مفيد.. كما جمع في قصر باردو مكتبة جليلة جدّا من المخطوطات النادرة، تلاشت بعد قتله، ولم يزل بعضها

---

(1) تحوّلت تربة علي باشا في الوقت الحاضر إلى مقرّ جمعية قدماء معهد نهج دار الباشا (م).

موجودا في خزائن جامع الزيتونة وفي المكتبات العموميّة. وكان بلاطه يضمّ أدباء أجلاّء من بينهم الشاعر اللطيف علي الغراب الصفاقسي المتوفّى سنة 1183/ 1769، صاحب التوريات الرقيقه، والأديب البليغ محمّد الورغي المتوفى سنة 1190/ 1776، المشهور بالقصائد الفخريّة الجيّدة ومحمد العياضي المترجم لعلماء عصره وغيرهم.

ومن مآثر علي باشا الدالّه على حبّه للعلوم المدرسة المعروفة «بالباشيّة» في سوق الكتبيّين، والمدرسة السليمانيّة ومدرستا بير الحجار وحوانيت عاشور بالعاصمة. وأوقف على جميعها خزائن من الكتب. وله غير ذلك من الإنجازات في سبيل تحصين البلاد وريّها، لم يزل نفعها جارياً إلى الآن.

3- محمّد الرشيد باي (1756- 1759)

باشر محمّد الرشيد باي الولاية بتدبير وثبات، خصوصاً بعد ما لحقها من القلاقل ونهب الجزائريّين، وقد اعتضد بأخيه علي باي في مباشرة أحوال الإيالة. وكان هذا الباي حميد الخلال، متواضعا، محبّا للوطن وأهله، مشاركا في العلوم مشاركة حسنة. وله عدّة قصائد نظمها من غربته في الجزائر يتشوّق إلى وطنه، مطلعها:

أمولايَ إنّ النفس لمّا تعوّدت جميلك راحت بالفواضل تنطق

إلى أن يقول:

أتونس بعد الأنس نالتك وحشة فسحى دموعاً بل دماً يترقرق
لئن ردّني ربّي إليها بفضله لأجري لها نهراً كالنيل يدفق

وهي تدلّ على رسوخ قدمه في الفنون الأدبية. إلاّ أنّ مدّته لم تطل، إذ توفّي سنة 1172/ 1759، وترك الولاية من بعده لأخيه الأصغر.

علي باي الثاني (1759- 1782)

سار هذا الباي على خطّة والده وأخيه في ترقية البلاد وعمرانها بتعضيد الفلاحة والصناعة وبثّ العلوم، ممّا أنبت محبّته في قلوب السكّان.

وفي أوائل عهده حصل خلاف مع قنصل فرنسا أدّى إلى قطع العلاقات وإشهار الحرب بين الدولتَيْن. وسبب ذلك أن فرنسا ألحقت جزيرة كرسيكا بمالكها سنة 1768، فلم تصادق تونس على إلحاقها ولا على الاعتراف بالجنسيّة الفرنسيّة لأسارى تلك الجزيرة المقيمين في تونس، وأفضى الخلاف إلى

إعلان الحرب، فوجّهت فرنسا فرقة من أسطولها أطلقت قنابل على مراسي حلق الوادي وبنزرت وسوسة والمنستير. وبعد مخابرات أُبْرِم الصلح في باردو سنة 1184/ 1770 وانجلت الوحشة على ما يرضي الجانبين، ورجع تجّار الفرنسيّين إلى تونس فوجدوا أرزاقهم محفوظة محروسة.

إعانة الدولة العثمانيّة

لما انتهى الخلاف بين تونس وفرنسا، جهّز علي باي خمس مراكب حربية وشحنها بالرجال والعتاد وجّهها إعانةً للدولة العثمانية في حربها مع روسيا سنة 1185/ 1771. غير أن تلك السفن لم تباشر القتال لعدم تمكّنها من دخول بوغاز الدردانيل والوصول إلى إسطنبول. وبعدما وضعت الحرب أوزارها سلّمت المراكب التونسيّة ما كانت تحمله من الإعانة إلى مقرّ الخلافة وحصل المقصود.

مآثر علي باي الثاني

من حسنات هذا الأمير الشاهدة بفضله، عنايته بالعمران ونشر العلم، ومنها مدرسته المعروفة باسم «المدرسة الجديدة» الكائنة قرب تربة أبيه. ومنها إنشاؤه لملجإ الضعفاء والعجّز المعروفة «بالتكيّة»[1]، وقد خصّص فيها قسما للرجال وقسما للنساء، وحبّس عليها أوقافا نافعة. ومن حنانه وتواضعه أنّه لما تمّ بناؤها قاد بنفسه إليها المكفوفين وأطعمهم جبرًا لخواطرهم، جازاه اللّه خير الجزاء. وله غير ذلك من الأعمال الجليلة في سبيل الريّ وجلب الماء الصالح للشراب وضرب الأسوار على المدن، إلى غير ذلك.

ولما طعن في السنّ أشرك علي باي ابنه حمّودة في الحكم (1777) وراسل الدولة العثمانيّة طالبا موافقتها على تقديم ابنه للولاية من بعده، فأسعفته بمرغوبه ووافته بالخلعة والفرمان. وتوفي بعد ذلك بقليل سنة 1196/ 1782.

5- حمّودة باشا الحسيني (1782/ 1814)

ويُكنّى بأبي محمّد، تصدّر للرئاسة وهو لها خليق وبها جدير، وكان والده قد اعتنى بتربيته وتهذيبه وتأهيله لإدارة الملك، فباشر أمورها بدراية واجتهاد. وممّا ساعد حمّودة باشا على القيام بأعباء الولاية أحسن قيام هو انتخابه لأعيان نبغوا في السياسة واستعان برأيهم وحزمهم، نخصّ بالذكر منهم

---

(1) وبمرور الزمن تداعت «التكيّة» الكائنة في شارع باب بنات إلى السقوط، فقامت جمعية الأوقاف بإعادة بنائها سنة 1906 في عهد رئيسها المصلح البشير صفر. وقد حوّل مبنى «التكيّة» في الوقت الحاضر إلى مقرّ وزارة الشؤون الدينيّة (م).

الوزير المخلص يوسف صاحب الطابع، ورئيس الكتبة الشيخ محمّد بن محمّد الأصرم وقائد الجيش سليمان كاهية، والناظر محمّد العربي زرّوق وغيرهم.

الحرب مع البندقيّة[1]

وسببها أن تجّارا تونسيّين استأجروا من بعض بحّارة البندقية سفينة لحمل بضائعهم من الإسكندرية إلى صفاقس فلما كانوا في الطريق عرّج بهم المركب إلى حزيرة مالطة، وحين نزلوا بها قبض عليهم واليها وزجّ بهم في السجن بدعوى ظهور مرض الوباء فيهم وأعدم بضاعتهم بالحرق، فرفع التجّار أمرهم إلى حمّودة باشا الذي طلب من نائب جمهورية البندقية تغريم ما ضاع للتوسيّين على مقتضى القانون التجاري الدولي. وحيث لم تحصل نتيجة من المخابرات، أفضى النزاع إلى إعلان الحرب سنة 1785/1204. وجهّزت تونس مراكبها الحربيّة وعساكرها، ثم تقدّم أسطول البندقية ورمى بالقنابل سوسة وصفاقس وحلق الوادي بلا جدوى. وفي آخر الأمر رضيَت البندقية بدفع الغرامة لتونس وانعقد الصلح على ذلك بين الدولتين.

الاستيلاء على طرابلس

وفي تلك المدّة وفد على تونس علي بن محمّد قرمانلي صاحب طرابلس مشرّداً من ولايته لاستيلاء الثائر عل برغل عليها، فأكرم حمّودة باشا نزوله وأحسن إليه، ثمّ تطاولت أطماع الثائر فامتلك جزيرة جربة التونسية وألحقها بالبلاد الطرابلسية. وعند ذلك جهّز حمّودة باشا جيشا يتألف من 40.000 مقاتل وسيّره إلى طرابلس بقيادة الحاج مصطفى خوجة سنة 1209/ 1794 وأرسل الأسطول التونسي في أربعين مركبا لاسترجاع جربة فافتكّها من حينه، ونزلت العساكر في المنشيّة قرب مدينة طرابلس، فقاتل علي برغل إلى أن انهزم. فاستولى الجيش التونسي علي المدينة وأقرّ بها صاحبها علي قرمانلي، ثم عاد الجيش إلى تونس ظافراً منصوراً.

حرب الجزائريّين

مازال حمّودة باشا من حين استلامه مقاليد الحكم يدبّر في تأليف جيش عتيد مستوفي المعدّات الحربية للهجوم على الجزائر، فلما أكمل استعداده هيّأ محلّة أقحم فيها أعيان فرسانه وسيّرها تحت قيادة وزير الحرب سليمان كاهية،

---

(1) **البندقية** : مرفأ كبير في شمال إيطاليا على بحر الأدرياطيق، وتسمّى باللغة الإيطالية «فينيسية». وقد كانت في القرون الوسطى جمهورية مستقلة ذات سلطة وتجارة عظيمة، أما اليوم فهي مدينة كسائر المدن الإيطالية مشهورة بمبانيها الفنيّة.

فزحف على قسنطينة وألحّ في حصارها حتى أشرف على فتحها، لولا انخذال الأعراب الذين كانوا معه، فتفرّق الجنود التونسيّون وولّوا الأعقاب سنة 1221/ 1806. ولما بلغ الخبر إلى حمّودة باشا هاله الأمر وأوجمه، وعندئذ نهض رجال الدولة وفي مقدّمتهم يوسف صاحب الطابع وهوّنوا عليه الخطب، وجهّزوا في الحين من أموالهم محلّة أخرى وصمّموا على نزال الجزائريّين. وخرج الجيش الثاني بقيادة الوزير يوسف سنة 1222/ 1808، والتقى الفريقان في مكان يسمّى سرّاط قرب الحدود التونسية الجزائرية، وبعد قتال عنيف انتصر التونسيّون انتصاراً باهراً، ورجع الوزير مؤيَّدا إلى العاصمة واحْتُفِل بقدومه، ولم تكن بعد ذلك حرب أخرى بين تونس والجزائر.

ثورة الانكشارية

كان الجيش التونسي يتألّف يومئذ من **الانكشارية**، وهم جنود من أبناء الأتراك يقيمون بالعاصمة في ثكنات معدّة لهم، ومن **المخازنيّة** وهم من أبناء البلاد المنخرطين في سلك الجند، تتمثل وظيفتهم في تأمين السُّبُل والمحافظة على الراحة، ومن **المزارقيّة** المعروفين بهذا الاسم لحملهم «المزاريق»، وهم المحاربون من قبائل الأعراب تحشدهم الحكومة في الجيش كلما دعت الحاجة إلى ذلك.

فلما كانت سنة 1226/ 1811، خرج فريق من الأنكشارية على الباي واعتصموا بقلعة القصبة، معلنين الثورة، فقاتلهم حمودة باشا أيّاما انهزموا في آخرها وأطفأ بذلك لهيب نار الفتنة.

علاقات تونس بالخارج

كانت علاقات الإيالة التونسية في عهد حمّودة باشا مع الدول الأجنبيّة طيّبة، وقد حدثت في أيّامه الثورة الفرنسيّة سنة 1203/ 1789. ثم تقلّد الحكم نابليون بونابرت، فكانت بينه وبين حمّودة باشا اتّصالات ومهاداة. وقبلت تونس ممثل دولة الدنيمارك، وجدّدت معاهدات التجارة والسلم مع كلّ من إسبانيا وهولندة والولايات المتحدة الأمريكية.

خصال حمّودة باشا

كان هذا الباي عزيز النفس، ثاقب الفكر، ومع ذلك لا يستغني عن مشورة رجال دولته ولا يأنف من الردّ عليه، وكان يكره الإسراف في غير مصلحة مهمّة حتى نُسِب إلى الشحّ والتقتير. وله في حبّ الوطن وهداية أهله إلى طرق النجاح أخبار مشهورة، منها أنّه كان لا يتباهى إلاّ بصنع البلاد من

لبس منسوجاتها ومصنوعاتها، و لم يلبث أن اقتفى النـاس أثـره في ذلـك. ومـن الآثار المرويّة عنه أنه كان يقول: «الحلية للنساء لا للرجال، وزينة الرجـل مالـه وأعماله». ويقول: «لا أبغض أحداً من أهل بلادنا إلاّ البطّال الذي لا نفع فيـه للوطن، وأحبّ الناشط ولو يرعى البقر». وبالفعل فقد أقبل الناس في أيامه على الفلاحة والتجارة والصناعة وكثر العمران وظهرت الثروة بين السكان.

وأخبـار هـذا الأمـير منشـورة مشـكورة، وهـي سَـمَر شـيوخ البـلاد وعجائزها، و لم تزل البلاد في أيامه ينمو عمرانها ويعظم شـأنها إلى أن فُجعَـت بوفاته ليلة عيد الفطر من سنة 1229/ 16 سبتمبر 1814. فحزن القطـر لفقَدانـه ودُفِن في تربة أبيه، رحمه اللّه تعالى وتقبّل صالح أعماله.

6- عثمـــان بـــاي (سـبتمبر - ديســمبر 1814)

هو ابن علي باي الثاني، بُويِع ليلة وفاة أخيه حمّودة باشا بمواطـأة بعـض رجال الدولة، وكان ابن عمّه محمود بن محمّد الرشيد هو المترشح للولاية على العادة الجارية في البيت الحسيني من تقديم الأكبر فالأكـبر سنّا، فكظـم محمـود باي غيظه وبقي يتربّص إمكـان الفرصـة. على أن عثمـان لم يكـن في الحقيقـة صاحب سياسة، ولا خبرة له بإدارة الإيالة، فإنه أبعـد عنـه غـالب أهـل الـرأي والنجدة واشتغل بخاصّة نفسه فنفرته القلوب، و لم يلبـث أن ظهـر الانحـلال في أمره، فانتهز محمود باي المناسبة واعتضـد بابنـه حسـين وبكبـار رجـال الدولـة المنكسرة خواطرهم، فدبّروا مؤامرة سريّة أسفرت عن قتل عثمان في داره ليلـة عاشوراء سنة 1230/ 21 ديسمبر 1814. واستتبّ الأمر لابن عمّه.

7- محمـــود بـــاي (1814- 1824)

تقلّد أمر الولاية عن كِبَر سنّ، وكان المباشر لشؤونها في الواقع هو ابنـه الأكبر ووليّ عهده حسين.

ولأوّل انتصابـه ثـار بعـض جنـود الأنكشـارية وأرادوا إحـداث الهـرج، فبادر الباي برجاله لمقاتلتهم وتفريق شملهم.

أمّا بالنسبة إلى إدارة الإيالة، فقد أقرّ محمود باي، منذ أن اعتلـى العـرش أهل المناصب العالية على رتبهم، ومن جملتهم الوزير يوسف صـاحب الطـابع، عميد الدولة في مـدة حمـودة باشـا، وقـد أجمعـت القلـوب علـى محبّتـه لخيراتـه وإخلاصه ورفقه بالرعيّة. غير أن بعـض كبـار الموظفـين كـانوا يحسـدونه علـى تلك السمعة، فسعوا لدى الباي واتّهموه بنوايا واهية لا صحّة لها، حتى أوقعوه في حبال مكرهم فقتل ظلما سـنة 1230/ 1815. وهـذا شـأن أربـاب المنـاصب العالية في نظام الحكم المطلق.

الصلـح مـع الجزائـر

استهلّ عام 1236/ 1820 بحادث عظيم في تاريخ المغرب العربي، وهو إبرام صلح نهائي بين تونس والجزائر بمساعي الدولة العثمانية التي وجّهت رسولا لإتمام هذه الهدنة، فأبرم الصلح بين الطرفين، واسترجعت تونس ما أُخذ منها من التراب. وبفضل ذلك زالت الشحناء القديمة بين البلدين الشقيقين وفرح السكان فرحا كبيرا. «وكفى اللّه المؤمنين القتال».

مسـاعدة الدولـة العثمانيّـة

وعلى إثر انعقاد هذا الصلح صادف أن ثار اليونانيون على الدولة العثمانية، وكانوا داخلين في ممتلكاتها. فجهّز محمود باي فرقة من الأسطول التونسي تتألّف من تسعة مراكب حربية ووجّهها بقيادة حسونة المورالي إعانة للدولة العثمانية سنة 1237، فشاركت تلك السفن في إخماد ثورة اليونانين مشاركة حسنة.

عمـران تونـس

لقد ارتقت تونس في عهد هذا الباي واتسع نطاق عمرانها، ويكفيك شاهدا بذلك كثرة المعالم القائمة الذات في داخل العاصمة وقد أحصتها الحكومة وقتئذ، فكان بها 17 جامعا للخطبة و 300 مسجد و20 مدرسة و115 كُتّابا للمبتدئين، عدا الزوايا والسبابيل والتكايا والمرستان والثكنات وغير ذلك من المباني العائد نفعها على عموم السكان.

ولم يزل هذا الأمير الجليل رافلا في حلل الهناء والثناء إلى أن توفي في رجب سنة 1239/ مارس 1824 وخلفه ابنه ووليّ عهده حسين باي.

8- حسـين بـاي الثـاني (1824- 1835)

تقلّد هذا الباي الحكم يوم توفّي والده، وكان حازما مقداما عارفًا بأحوال الإيالة لمباشرته أمورها في مدّة أبيه. وقد انتخب لمساعدته رجالا مدرّبين حنّكتهم التجارب، من بينهم وزيره الأكبر شاكر صاحب الطابع ووزير القلم وباش كاتب محمّد الأصرم وباش حانبه عبد الوهاب الشارني والقايد محمود الجلّولي وغيرهم من أهل الحميّة.

واقعـة نـاورين (Navarin)

تقدم أن اليونانيين كانوا أعلنوا الثورة على الدولة العثمانية طالبين الاستقلال، فلم تنجح مساعيهم، ثم إن الدول العظمى إنجلترا وفرنسا وروسيا انتصرت لليونان وأشهرت حربا على تركيا لإرغامها لمنح اليونانيين

الاستقلال، وأرسلت كل واحدة من هذه الدول أسطولها إلى مياه اليونان. واستعانت الدولة العثمانية بقوات الولايات الإسلامية، فكان أسطولها مُعزَّزا بسفن حربية من مصر ومن تونس، جهّزها حسين باي، ولقي الأسطول الأوروبي الأسطول العثماني في ميناء ناورين من بلاد اليونان سنة 1242/ 1827، فكانت الدائرة على السفن الإسلامية وأُغرِق معظمها غدراً، ولم ينج إلاّ عدد قليل من المدافعين، ونال اليونانيّون عقبَ ذلك استقلالهم. واللّه وليّ الأمور يديرها كيف شاء.

استيلاء فرنسا على الجزائر

على إثر واقعة ناورين حصل نزاع بين فرنسا وداي الجزائر، حسين باي، وآل الخلاف إلى إعلان الحرب بين البلدين، ونزلت الجيوش الفرنسية بمدينة الجزائر، فاستولت عليها سنة 1246/ 1830. ثم احتلت فرنسا بقية البلاد الجزائرية شيئا فشيئا، وكان باي تونس خلال كلّ هذه المدّة سالكا طريق الحياد غير أن كثيرا من أعيان الإيالة المجاورة وفدوا على تونس واتّخذوها موطنا لهم، فأوسع لهم حسين باي الكنف وأحلّهم محلّ الغبطة والأمان.

إصلاحات داخلية

باشر حسين باي الثاني كثيرا من الإصلاحات الملائمة لعصره، منها إبطال قَيْس مزارع الحبوب قبل الحصاد وتعويض ذلك بضريبة العُشُر، ومنها ترتيب الجيش التونسي ترتيبا نظاميّا. وابتنى لإقامته ثكنة المركاض، وأبطل فرقة الانكشارية. وبهذه المناسبة أمر الباي موظّفيه وأرباب الرتب العسكريّة بترك زيّهم التقليدي وارتداء اللباس النظامي، وهو يقرب من الزيّ الأوروبي، مقلّداً في ذلك التغيير الواقع في الأزياء الرسمية بالدولة العثمانية.

وتوفي حسين باي في محرم سنة 1251/ 20 ماي 1835 وخلفه أخوه ولي عهده مصطفى باي.

9- مصطفى باي (1835- 1837)

كان سليم الصدر، حليما، جرى على سُنن أخيه في الاعتناء بالجيش النظامي. وهو أوّل من صاغ الأوسمة للضباط جزاءً لهم على خدمتهم وسمّاها «نياشين الافتخار»، وجعلها مُرصّعة بالحجارة الكريمة ومنقوشا عليها اسم الباي. إلاّ أن مدّة ولايته لم تطل لأنه توفي في 10 رجب سنة 1253/ 10 أكتوبر 1837، وتولّى بعده ابنه أحمد.

شجرة نسب الأمراء الحسينيين
(1957 - 1705)

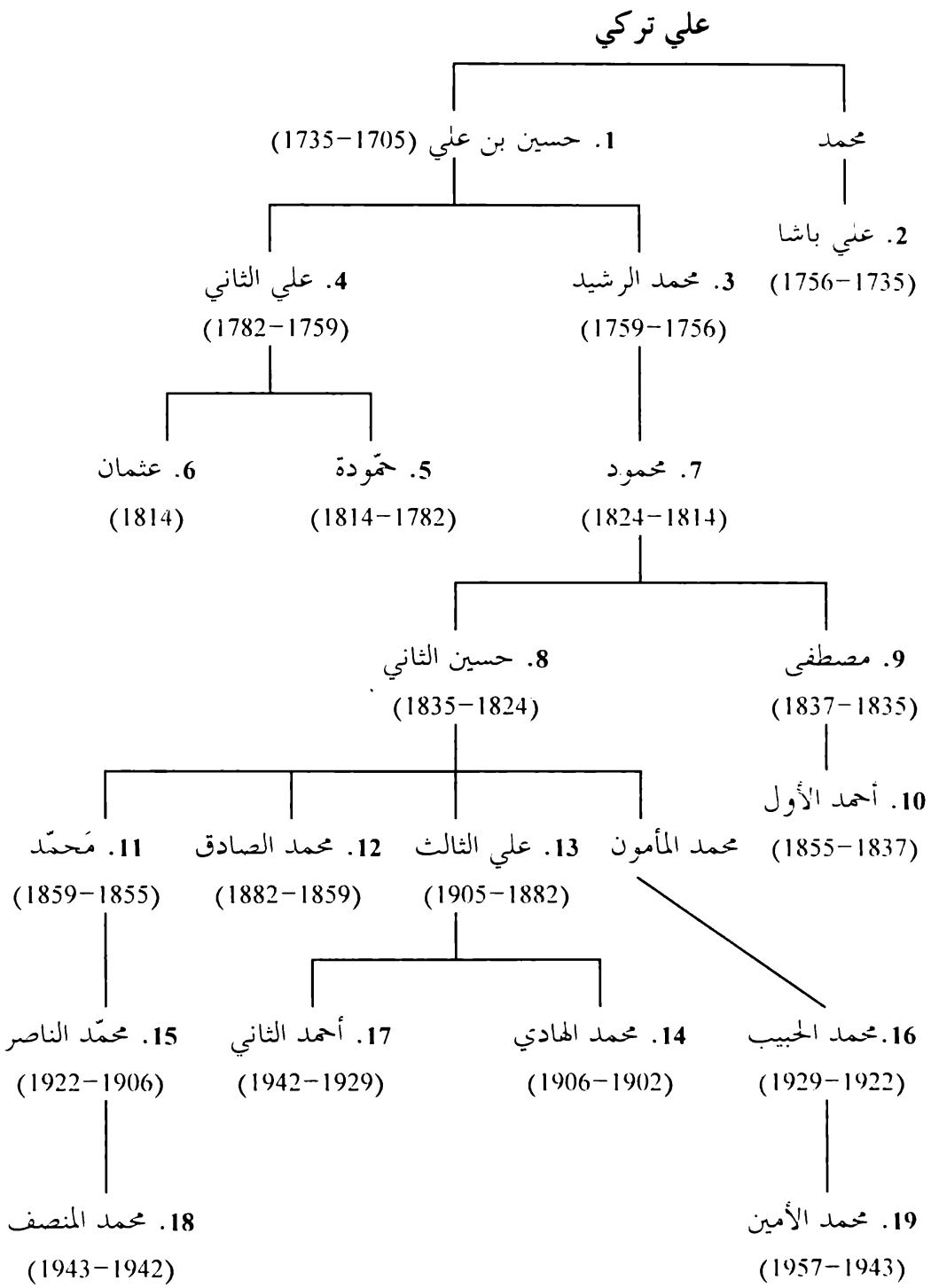

يوسف صاحب الطابع

هو الوزير الشهير أبو المحاسن يوسف خوجة صاحب الطابع، أصله من مسلمي البغدان[1] أُتِي به إلى تونس صغيرا بصفة مملوك وانخرط في خدمة الأمير حمودة باشا الحسيني باي الأمحال، فلما لاحت عليه علامة النجابة والإخلاص سمّي في رتبة الطبع واشتهر من ذلك الحين باسم هذه الخطّة. وما زال يندرج في مراقي الوظائف السامية، وقد اتّسعت أمامه أبواب الشهرة والسمعة، حتى صار أمين سرّ الأمير وسمير نجوته وعمدة الدولة في المهمّات والبعثات السياسية. ثم وقعت به تلك النكبة الشنعاء في 11 صفر سنة 1230 بسعاية سفلة الوشاة وسماسرة السوء.، فذهب ضحيّة لإخلاصه وصدق سريرته. «وكلّ ذي نعمة محسود».

وكان لهذا الوزير الشهم ثروة طائلة أنفق جميعها في فعل الخير وأوجه البرّ. على أنه لم يحصّل على تلك الثروة من وظيفته بل اكتسبها من كدّ يمينه بالتجارة خارج الإيالة التونسية حين كان سُكّان القطر لا عناية لهم بالتجارة خارج بلادهم.

فمن آثار هذا الوزير عدد وافر من المساجد التي أوقف عليها من ماله الخاصّ أحباسا جسيمة، ومن أشهرها الجامع الحافل المعروف باسمه الكائن ببطحاء الحلفاوين بحاضرة تونس. وقد ضمّ إليه مدرسة جليلة للعلم، كما أحيى سائر ما اندرس من الكتاتيب القرآنية بالعاصمة وغيرها. وله قنطرة جميلة الشكل بطريق ماطر، وابتنى حصن باب الخضراء بمدينة تونس اشتهر باسمه، وكانت له عناية بإجراء الماء في سقايات وسبابيل عديدة داخل العاصمة وخارجها. وله حبس معتبر على مستشفى صفاقس وغير ذلك من المنافع مما لا يدخل تحت حصر.

فبهذه المعالم والآثار ذاع صيته في القطر واشتهر شهرة الشمس في رابعة النهار، فهو مصداق قول من قال:

آثاره تنبيك عن أخباره ... حتى كأنّك بالعيان تراه

قابله اللّه برحمته وأسكنه فسيح جنانه.

---

(1) **البغدان** : ولاية عظيمة كانت تابعة للدولة العثمانية وهي اليوم من مشمولات دولة رومانيا وتسمّى **ملدافيا**، وفيها كثير من المسلمين.

الفصل الثامن عشر

الدولة الحسينيّة[1]

الفترة الثانية: أمراء الإصلاح

(من سنة 1253/ 1837 إلى سنة 1298/ 1881)

10- المشير الأوّل أحمد باي (1837 - 1855)

ما كاد يعتلي العرش حتى شمّر عن ساعد الجدّ ونهض بالإيالة التونسيّة نهوضا لم يسبق له نظير. ولأوّل انتصابه أرسلت إليه الدولة العثمانية الخلعة مع أمر «خط شريف»، يقضي بتعيينه مشيرًا، وأوسمة تقلّدها في موكب مشهود.

الإصلاحات الداخلية

تنظيم الجيش

أقبل أحمد باي على إصلاح الجيش النظامي، فصرف كامل عنايته لترتيب الجند على النمط الحديث، إذ جمع تحت الراية التونسية ما ينيف على 30.000 جندي موزّعين إلى عشر آلايات من المشاة وفرقة من الخيالة وأربع آلايات من المدفعية، وأسكن جميعهم في ثكنات ابتناها لهذا الغرض، كما أنشأ «مدرسة حربية» في باردُو لتخريج الضبّاط سنة 1256/ 1840. وقد جلب إليها أساتذة من أبرع ضباط تركيا وفرنسا وإيطاليا، فكانت تلك المدرسة النواة الأولى لنشر الثقافة العصريّة في البلاد، وانتخب لها جماعة من أعيان المدرّسين لتدريس اللغة العربية والعلوم الشرعيّة أمثال الأديب الكبير محمود قابادو والكاتب الضليع محمّد التطواني والشيخ محمّد البشير التواتي، وغيرهم من علماء العصر، فكانوا أكبر معين للتلامذة على تعريب مؤلفات تركيّة وإفرنجية في عدّة علوم، لاسيما منها فنون الحرب، تجاوزت الأربعين تصنيفا [مازالت موجودة في دار الكتب الوطنية بتونس]. وقد أخرجت هذه المدرسة في أقرب وقت ثلّة من الرجال العارفين، منهم القائد رشيد والجنرال حسين والفريق رستم وغيرهم.

---

(1) أحمد بن الضياف، «إتحاف أهل الزمان...»، المصدر المذكور، **الجزء الرابع**: المشير الأول، أحمد باي والمشير الثاني محمّد باي، تونس، 1963، **والجزآن الخامس والسادس**، المشير الثالث محمّد الصادق باي، تونس، 1964 (م).

البحريـــة التونســـية

ووجّه أحمـد بـاي اهتمامـه أيضـا إلى الأسـطول، فاشـترى عمـارة قويّـة تحتوي على اثنتي عشرة باخرة حربيّة وعلى بارجـة مـن الطـراز الكبـير تُسـمَّى «الحسينيّة». ثـم أحـدث مرسـى حربيّـا بغـار الملـح أنفـق عليـه أمـوالا طائلـة، وأضاف إليه دار صناعة [ترسخانة] لإنشاء السفن بحلق الـوادي، وأحكـم بهـا معامل لصنع الأسلحة وإصلاحها ومستودعات شحنها بالذخائر الحربية وآلات الدفاع.

الحالـة الماليّـة

غير أنّ هذه التجهيزات العظيمـة بـالنظر إلى حالـة البـلاد قـد أثّـرت في ميزانية الدولة وأضعفـت إيراداتهـا، فـاضطرّت الحكومـة إلى إحـداث ضرائـب جديدة على الصادرات والواردات ومكوس على البضـائع المبتاعـة لسـدّ عجـز ميزانيّتها. وفوق ذلك احتكرت الدولة بيع موادّ مختلفة كالملح والدخان والجلـد والصابون، وقاولت أشخاصا على التزام تلك المغارم مقابل مال يدفعونه مسبقا لصندوق الحكومة، وقد لحق السكان ضيم كبير من تصرفات وجـور الملـتزمين وأعوانهم.

تشـييد المحمّديـــة

وفي مطلع سنة 1259/ 1843 شرع المشير أحمـد بـاي في تشـييد مدينـة على بعد 14 كم من تونس سمّاها «المحمّدية» فابتنى بها قلاعا وأسواقا وجامعـا ومدرسة ومساكن لخاصّته ورجال دولته، إلى غير ذلك من المباني الأنيقة، أنفق عليها مبالغ وافرة، ولما تم إنشاؤها اتّخذهـا مقـرّا لحكومتـه عـوض بـاردو، و لم تزل أنقاض هذه المدينة قائمة تشهد بعظمة بانيها.

إبطـال الرقيـق

ومن الإصلاحـات الـتي أجراهـا هـذا البـاي إبطـال بيـع الرقيـق بالإيالـة التونسية، وأمر بغلق سوق العبيد بالحاضرة وهو «سـوق البرْكـة»، ومنـع علـى السكان الاتجار بالعبيد سنة 1262/ 1846. كما أصدر أمرا آخر في عتـق جميـع المماليك الموجودين في البلاد، وقد شكرته علـى هـذا العمـل الـدول الأوروبيـة بواسطة قناصلها.

زيارة أحمد باي لفرنسا

كان قد قدم إلى تونس أبناء لويس فيليب، ملك فرنسا عهدئذ، فاحتفل أحمد باي بقدومهم وبالغ في إكرامهم وهاداهم بما يناسب، فالتمسوا منه زيارة بلادهم لتأكيد المودّة بينه وبين فرنسا. فقبل المشير هذه الدعوة وعزم على السفر، فاستخلف على الإيالة ابن عمّه ووليّ عهده مَحمّد باي نائبًا عنه، وبارح حلق الوادي في 16 ذي القعدة 1262/ 5 نوفمبر 1846 على متن باخرة حربيّة مصحوبا بخاصّة رجال دولته ونزل بمرسى طولون فزار دار صناعتها ثم توجّه إلى باريس فتلقّاه لويس فيليب بالحفاوة والتبجيل وتأنّق في إكرامه، وأطافه في معالم باريس ومتاحفها ومنتزهاتها، واستعرض أمامه حامية العاصمة. ثم عاد أحمد باي إلى تونس مبتهجًا بما شاهد من مظاهر الثروة وقوّة العلم وغزارة العمران.

حرب القرم[1]

سبب هذه الحرب أن روسيا كانت تحاول من قديم الزمان إضعاف الدولة التركية للاستيلاء على الأستانة وعلى مضيق الدردانيل. فلما كانت سنة 1270/ 1854 أشهرت حربا على تركيا، فرأت بعض دول أوروبا، وعلى الأخصّ إنجلترا وفرنسا من المصلحة مساعدة الأتراك ضدّ روسيا. ولما ابتدأ القتال بالقرم أرسلت كلتا الدولتين جنودا لمعاضدة تركيا. كما سارعت بقية الممالك الإسلامية إلى الإعانة. فجهّز أحمد باي جيشا من تونس يتركب من 14000 جندي بسائر ما يلزمه من المهمّات الحربية، وسيّره إلى الأستانة بقيادة أمير الأمراء رشيد [خريج المدرسة الحربية بباردو]، فشارك هذا الجيش في الحرب مشاركة فعلية خلّدت له بين المحاربين ذكرا جميلا لما أظهره من البسالة والتجلّد، مع الانضباط والانقياد، وانتهت هذه الحرب بانتصار الدولة العثمانية على روسيا.

مآثر أحمد باي الأوّل

علاوة على ما مرّ بنا من النُّظُم القانونية والمؤسسات العسكرية، فإنّ لهذا الأمير الجليل اليد الطولى في العمران وبثّ العلم. فهو أوّل من وضع ترتيبا

---

(1) القرم (Crimée): شبه جزيرة كبيرة تقع في شمال البحر الأسود امتلكها المسلمون مدّة طويلة وأسّسوا بها إمارات صغيرة ثم اغتصبتها روسيا فضمّتها إلى مملكتها سنة 1198/ 1783، وقاعدتها مدينة سيباستبول.

للتعليم بجامع الزيتونة، وعمّر خزائنه بالكتب. ومن إنجازاته معمل نسيج «الملف» الذي أنشأه قرب طبربة، ومنها تجديد باب البحر الفاصل بين الحارة الإفرنجية والمدينة العربية بالعاصمة، عدا القلاع والحصون والثكنات.

وغاية ما يقال عن مآثر أحمد باي، أنه حاول إبراز القطر التونسي من هيئة ولاية إلى مملكة متّجهة نحو الاستقلال. وكانت وفاته في 12 رمضان سنة 1271/ 30 ماي 1855. رحمه اللّه وتقبّل سعيه بالجميل.

11- مَحمّد باي (1855- 1859)

هو المشير الثاني مَحمّد بن حسين بن محمود باي. سافر بالمحلّة في مدّة مصطفى باي وتقلّد ولاية العهد في أيام ابن عمّه أحمد باي، ولما استتبّ له الأمر أقرّ سائر رجال الدولة في مناصبهم، فكان مصطفى خزنه دار وزير العمالة والمال، ومصطفى آغا وزير الحرب، وخير الدين وزير البحر ورافو وزير الخارجية.

وفي أوّل عهده رجع الجنود الذين كان وجّههم أحمد باي لإعانة الدولة العثمانية في حرب القرم، فاحتفلت البلاد يوم عودتهم سنة 1272/ 1855 وأطلقت المدافع، وكان نزولهم في موكب حافل مشهود.

إنجازات الأمير الجديد

ضريبة المجبى

أسلفنا أنّ التجهيزات الحربية التي قام بها المشير الأول حتّمت على الحكومة توظيف مكوس جديدة. فلما تولّى مَحمّد باي بادر إلى صرف الجنود الذين وجدهم في الثكنات و لم يُبْقِ منهم سوى من يتولّى الحراسة العامّة وحفظ قصره. وعلى إثر ذلك ألغى غالبَ الضرائب والرسوم المحدثة لموازنة إيرادات الحكومة بمصروفاتها وعوّضها بضريبة أخرى تُعرَف «بالمجبى» وقدرها 36 ريالا (ما يعادل 21 فرنكا ونصف ذهبا) يدفعها كلّ سنة الرجال القادرون من سكان الإيالة. وقد جاء في الأمر الصادر بذلك سنة 1272، أن هذه الضريبة مؤقّتة تبطل متى تحسّنت الحالة المالية، غير أن السكان استمرّوا في دفعها مُكْرَهين و لم تسقط فيما بعد.

قانون عهد الأمان

ومن حسنات هذا الأمير التي ازدان بها عصره وخلّدت ذكره، منحه قانونا أساسيّا لسائر سكّان البلاد على اختلاف مذاهبهم في حريّة التديّن،

ومساواتهم في الحقوق العامة، وسُمّي هذا القانون «عهد الأمان»، وهو مبني على إحدى عشرة قاعدة أصولية كانت أساسا للمحاكم الجنائية التي أنشئت فيما بعد، وتقرّر العمل بهذا القانون بحضور نوّاب الدول الأوروبية وكبار الموظفين والأعيان في 20 محرم سنة 1274/ 10 سبتمبر 1857، وأقسم الباي في ذلك الموكب على إجراء العمل بمقتضاه، واستبشر الناس بصدوره، لما فيه من ضمان الحرية والكفالة بحفظ المال والعرض.

المجلس الشرعي

واعتنى محمّد باي بشأن المحكمة الشرعيّة، فرمّم ديوان الجند القديم ونصّب به المجلس الشرعي سنة 1273/ 1856، وجعل الحكم في القضايا يوميّا في مجلس يشارك فيه القاضيان المالكي والحنفي والمفتيان.

المجلس البلدي

أنشأ هذا الباي مجلسا بلديّا في مدينة تونس سنة 1275/ 1858 وانتخب أعضاءه من أعيان الحاضرة برئاسة الجنرال حسين، تولّى هذا المجلس تنظيم المدينة وإصلاح طرقاتها وتنويرها.

الحياة العلميّة

وقد اشتهر في دولته كثير من العلماء الأجلاّء نخصّ بالذكر منهم شيخ الإسلام محمّد بيرم الرابع والعلاّمة أحمد بن الخوجة وقاضي الجماعة الطاهر بن عاشور (الجدّ) والأديب محمود قابادو وغيرهم...

وكان مَحمّد باي أوّل من أدخل الطباعة للإيالة التونسية لنشر المطبوعات الرسميّة، وكانت تُستَعْمَل قبل ذلك الطباعة الحجريّة، وهو الذي أمر بجلب ماء زغوان في قنوات الحديد إلى العاصمة، وقاول مهندسين على ذلك، فجُلِب الماء ووُزِّع على حارات المدينة ودُورِها وأُشفِي به الغليل.

وتوفي محمّد باي في 26 صفر سنة 1276/ 22 سبتمبر 1859، تغمّده اللّه تعالى برحمته، وتولّى بعده أخوه وولي عهده محمّد الصادق.

12- محمّد الصادق باي (1859/ 1882)

كان عاقد النيّة على الإصلاح ومباشرة الأمور بنفسه، لولا شدّة ميله إلى بعض المقرّبين إليه ممّن لا خبرة لهم ولا يهتمّون إلا بمصالحهم الشخصيّة، فكانوا حجر عثرة في طريق الإصلاح الذي نواه، واغتنموا شدّة ميل الباي إليهم، فسعوا بينه وبين أنصار الإصلاح والقادرين عليه من أفراد حاشيته، حتى

انتفت الثقة بين التابع والمتبوع وانفرد أولئك الأغرار بالباي وخلا لهم الجوّ برهة ريثما تبيّن عجزهم وتفاقم الاضطراب، وتقطّعت بهم الأسباب.

وكان الصادق باي في أوّل أمره قد ألقى مقاليد السلطة بين يدَيْ وزيره الأكبر مصطفى خزنه دار. فلما رأى هذا الوزير التغلّب على هوى الأمير من أولئك الذين سبق الإيماء إليهم، عرف العاقبة الوخيمة التي تسير إليها البلاد، فاهتمّ بنفسه وأراد أن يجمع لها من الثروة ما يستظهر به على الأيّام. واتّبع هذه الطريقة غيره من أرباب الدولة، فكان همّ كلّ منهم أن يأمن على نفسه بثروة يُعِدّها لتقلّبات الزمان. فامتدّت الأيدي إلى الأموال بحق أو بغير حقّ، حتى أصبحت البلاد على شفا الهلاك، لولا أن قيّض اللّه لها خير الدين الذي نهض بها من تلك الوهدة حسبما تراه من سرد الحوادث الواقعة في عهد هذا الباي.

تطبيق عهد الأمان وإعلان الدستور

تقدّم لنا أن الباي السابق قد منح البلاد نظاما يقتضي المساواة في الحقوق ويكفل احترام الأشخاص طبقا لأحكام عهد الأمان. لكن هذا المشروع لم يقم منه إذ ذاك إلاّ الأساس فلما اعتلى الصادق باي العرش أمر بتطبيق أصول عهد الأمان ضمن دستور يضبط قواعد نظام الحكم وتنظيم السلطات في البلاد [وهو دستور سنة 1861]. وعلى هذا الأساس أنشئت مجالس أهليّة لفصل القضايا بين الخصوم على مقتضى قوانين جنائية حُرِّرت لهذا الغرض. كما تقرّر تكوين مجلس أكبر يتألّف من ستين عضوا للنظر في شؤون البلاد والشورى في المسائل السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

وعقب وضع الدستور، سافر الصادق باي إلى مدينة الجزائر لمقابلة إمبراطور فرنسا نابليون الثالث الذي تلقّاه بالحفاوة والترحيب وأكرم نزله وهنّأه بالإصلاحات السياسية التي أجراها.

الحالة المالية

بيد أن تلك المؤسّسات القانونية، ما إن دخلت حيّز التطبيق حتى تسرّب إليها الانحلال، فتعطّل نموّها الطبيعي بسبب اضطراب المالية التونسية وسوء إدارتها. وقد رأينا أن مَحمد باي كان وظّف ضريبة المجبى على السكان لسدّ عجز ميزانية الدولة، فلم يُغْن ذلك شيئا، نظراً إلى كثرة المصاريف المتزايدة يوماً فيوماً. فاقترضت الدولة أوّلا 28 مليون فرنك بفائدة فادحة من بعض الأوروبيّين، ثم عقدت قرضا ثانيا بفرنسا قدره 35 مليون فرنك تلاشته الأيدي قبل وصوله، بحيث لم يبلغ منه إلى الخزينة إلاّ النزر القليل. وأراد الباي

تدارك الأزمة المالية فقرّر -رغم معارضة المجلس الأكبر- مضاعفة معلوم المجبى بإشارة من بعض وزرائه، ورفعه من 36 إلى 72 ريالا، في سنة 1864/1280.

ثـورة سـنة 1864

ما إن انتشر خبر ارتفاع ضريبة المجبى في القطر حتى ثـار السكان على الحكومة [سنة 1864]، لاسـيما منهـم أبنـاء القبـائل في البادية، فـإنهم تجمّعـوا وأشهروا السلاح ومنعوا السابلة. وكان المقدّم فيهم علي بن غذاهـم مـن قبيلـة ماجر. وبعد أن قاومتهم السلطة بالقوّة، اضطرّت إلى تخفيف المجبى وإرجـاعهـا إلى أصلهـا، فخمـدت الثورة شيئاً ما.

تعـاقب المصـائب

وعلى إثر سكون الفتن الداخلية داهمت البلاد مصائب أخرى أثّرت في عمرانها وكانت سببا في تناقص الأنفس والأموال والثمرات. ففـي أوائـل سنة 1282/ 1865 ظهر مرض الكوليرا (الهـواء الأصفـر) وانتشـر بسـرعة في سـائر الأنحاء فهلك به خلق كثير، ثم تلته حمّـى التيفـوس سـنة 1284/ 1867، فلاقـى أهل الأرياف من ويلهـا الشـدائد، لاسـيما وقـد أعقبـت تلـك النوائـب مجاعـة عظمى وارتفاع في أسعار المعاش لتعطيل وسائل الفلاحة وتشاغل أربابها بما هو أهمّ، فتعرّض السكّان في آن واحد للمجاعة والأوبئة، مما كانت نتيجته خـراب جهات عامرة من القطر.

اللجنـة الماليـة الدوليـة

وضروري أن حاصلات البلاد في تلك المدّة كـانت يسـيرة، وإيـرادات الجباية قليلة جدّا. فتحتّم على الحكومة طرق أبـواب الاقـتراض مـرارا. وبمـا أن الإيرادات السنوية لا تكفي للقيام بمصالح الإدارة ودفع فوائـد الديـون، أعلنـت الدولة التونسية عجزها المالي. وعندئذ تقرّر تشكيل لجنـة ماليـة مختلطـة برئاسـة الوزير المباشر خير الديـن، تتولّـى قبـض مداخيـل المملكـة سـنة 1286/ 1879. وبعد تصفية الحسابات وتعديل الديون، كان مجمل ما **على تونـس 125 فرنـك ذهبـاً** لحسـاب المُقرضـين الأجـانب، وتعهـدت اللجنـة بتسـديد الفـائض إلى مستحقيه في كل عام. وبذلك استقام حال الحكومة وأخذت روح الأمل تدبّ في النفوس بعد اليأس.

وزارة خـير الديـن باشـا

ما زال خير الدين، منذ تقلّد خطّة وزيـر مباشـر - وهـي وظيفـة محدثـة دعت إليها الضرورة - يواصل عمله الإصلاحي ويسـعى بكـلّ جهـده لمـا فيـه

النجاح حتى انتخبه الباي للوزارة الكبرى بعد إقصاء مصطفى خزنه دار عنها سنة 1290/ 1873، وهذه الرتبة تمثل رئاسة الوزراء والخارجية والداخلية والمالية في شخص واحد.

إصلاحات خير الدين

ومنذ ذلك الحين تصدّى خير الدين لإتمام التنظيمات التي شرع فيها من أوّل نشأته السياسية. فاهتمّ بتوثيق علاقات الإيالة التونسية مع الدول الأوروبية، وإبرام المعاهدات بما يوافق مصالح الطرفَيْن. وأنشأ مجلسا مختلطا بتونس للتقاضي بين الأهالي والأجانب في المسائل المالية، وشرع في توحيد الأحكام الجاري بها العمل في البلاد، وإنشاء مجلس صحّي بالعاصمة لمراقبة الأمراض المعدية. كما أحدث إدارة للأوقاف العامة بنظام مُحكم سنة 1291/ 1874 [وعهد بها إلى الشيخ محمّد بيرم الخامس المعروف بأفكاره الإصلاحية].

ثم التفت إلى الفلاحة، فسنّ لها قانونا ملائما لمصالح البلاد، ورغّب السكان في غراسة الزيتون والنخيل بتوزيع الأراضي الدولية على صغار الفلاحين وتخفيف الجباية. وقد عمد إلى أراض شاسعة بناحية صفاقس كانت عائلة سيالة واضعة يده عليها فأرجعها إلى الدولة ووزّعها قطعا متناسبة على من يغرسها زيتوناً من الأهالي. كما وزّع أيضا على صغار الفلاحين مساحات شاسعة من الأراضي الزراعية التي كانت الدولة تملكها في شمال البلاد مثل: الفحص وزغوان ومجاز الباب، ووظف عليها كراءً سنويا طفيفا مساعدةً لضعفاء المالكين.

ومن مشاريعه في نشر التعليم، تأسيس المدرسة الصادقية سنة 1293/ 1875، ورصد الأوقاف ذات الإيرادات الوافرة عليها، وهي أوّل معهد تونسي فيه العلوم العصرية [بعد المدرسة الحربية بباردو]، وقد جلب إليها مدرّسين من فرنسا وتركيا وإيطاليا مع المعدّات اللاّزمة لدراسة الجغرافيا والكيمياء والطبيعة وسائر العلوم الرياضية.

كما قام بترتيب برامج التعليم بجامع الزيتونة [سنة 1876]، وإنشاء المكتبة الصادقية الملاصقة للجامع الأعظم. وسعى من ناحية أخرى إلى إحياء الصناعات التقليدية، وتطوير التجارة الوطنية بوسائل مختلفة ومسالك عديدة، حتى أصبح الشعب التونسي، بفضل مساعي هذا المصلح الكبير وتنشيطه، يرفل في حلل الهناء والأمان.

غير أن قيام خير الدين بمثل هـذه الإصلاحـات لم يكـن يخلـو مـن إثـارة عقبات ومعارضات، لاسيما من قِبَل مصطفى بن إسماعيل الذي نال من الحظوة الفائقة لدى البـاي، مـا وصـل بـه إلى تقلّـد الوظـائف السـامية كـوزارة البحـر ووزارة الشورى، على ما فيه من عدم الكفاءة وقلّة الخـبرة بـالأمور السياسـية، فـاضطرّ خـير الديـن إلى التخلّـي عـن منصبـه بعـد أن عُـرِف بمزايـاه الشـريفة وإحلاصه في العمل الوطني سنة 1294/ 1877، وتقـدّم بدلـه للـوزارة الكـبرى مصطفى بن إسماعيل[1].

ومن ذلك الحين اضطرب حبل الحكومة في الداخل والخـارج، وكـثرت المشـاكل بسبب دسـائس قنـاصل الـدول الأجنبيّـة وطمـع بعـض الحكومـات الأوروبية. فأصبحت البلاد كمثل مراكب فقدت ربّانها وسط الخضمّ تلاطمها الأمواج وتقاذفها الرياح من كلّ جانب فلا تدري أيّ ساحل تقصد.

(1) لم يُعيَّن مصطفى بن إسماعيل وزيراً أكبر مباشرةً إثر استقالة خير الدين، بـل عُيّـن في هـذه الخطـة لفترة انتقالية قصيرة الوزير محمّد خزنه دار. (م)

أحمد بن أبي الضياف

أصل هذا العالم النحرير من قبيلة أولاد عون، وُلِد بحاضرة تونس سنة 1219/ 1804 ونشأ في حجر أبيه الشيخ بالضياف، كاتب الوزير يوسف صاحب الطابع، الذي اعتنى به وأحسن تربيته، فتلقّى العلم على أساتذة عصره كالشيخ محمّد بيرم الثالث والشيخ إبراهيم الرياحي وغيرهما. ولما امتلأ بالعلم حوضه أولاه الأمير حسين باي الثاني خطة العدالة على صغر سنّه، ثم رقّاه إلى خطة الكتابة بديوان الإنشاء سنة 1242/ 1826، فقام بأعبائها أحسن قيام. ولم يزل على هذه المنزلة إلى أن آلت الدولة إلى المشير الأول أحمد باي، فعرف ما للرجل من الكمال، وقرّبه وجعل بيده قلم دولته ورقّاه إلى أسنى الرتب، وكان يعتمده في سفارته للدولة العليّة العثمانية، واستصحبه في زيارته لفرنسا، لما يعلم من أمانته وفصاحته. وبقي على وظيفته الجليلة مع خلفه مَحمّد باي، إلى أن اعتلى العرش المشير الثالث محمّد الصادق باي فعينه عضوا في المجلس الأكبر وفي مجلس الشورى الخاص سنة 1277 / 1860، واعتمده في شرح القانون الأساسي المسمّى بعهد الأمان، فأحكم دعائمه وقواعده.

ولم يزل على هذه الحال يتدرّج في الوظائف السامية إلى أن كبر سنّه وأقعدته الشيخوخة، فطلب الإعفاء من مباشرة الخدمة، فأعفته الدولة وأجرت له جراية كافية، إلى أن وافاه الأجل المحتوم، فارتحل إلى جوار ربّه عزّ وجلّ سنة 1291هـ/ 1874م، برّد اللّه ثراه.

وكان رحمه اللّه حسن المحاضرة، عزيز النفس، كريم الأخلاق، ذا عفّة ووقار، لم يُحفَظ عنه شيء يشينه، وله شعر جيّد. أما مأثرته الخالدة فهي التاريخ الكبير الذي وضعه للقطر التونسي وتراجم رجاله وسمّاه «إتحاف أهل الزمان، بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان». ولا غرو أن جاء هذا الكتاب شاملا للحوادث التاريخية حافلا بالمباحث العمرانيّة والفلسفية، فإن مؤلّفه كان أبرع كتاب في ذلك العصر، ومن نبغاء هذا المصر.

الباب الرابع

العهد المعاصر

الفصل التاسع عشر

تونس في عهد الحماية الفرنسيّة[1]

(من سنة 1298/ 1881 إلى سنة 1362/ 1943)

تدخّل فرنسا

لقد تفاقم الوضع في تونس إثر تخلّي خير الدين عن الوزارة الكبرى (1877)، وممّا زاد الطين بلّة اختلال الحالة الماليّة، وتحرّش القبائل في داخل البلاد لظهور علامات العجز على الحكومة، ومازالت الحال تزداد تحرّجاً وارتباكاً، إلى أن حصل تشاجر بين عربان جبال خمير في الشمال الغربي من البلاد، وبين بعض الأهالي في الحدود الجزائرية التونسية. فرأت الحكومة الفرنسيّة أن تتدخّل في الشؤون التونسيّة لردع المعتدين وتأمين الراحة [حسب زعمها]. ولهذه الغاية ساقت من التخوم الجزائريّة جيشا يتألّف من 30.000 جندي، فقصد مدينة الكاف واحتلّها ثم تقدّم في داخل التراب التونسي نحو الوسط والجنوب. ومن ناحية أخرى أرسلت فرقة من الأسطول أرست في ميناء بنزرت وأنزلت 8000 جندي بقيادة الجنرال بريّار، اتجهوا إلى العاصمة التونسية وحاصروا ضاحية باردو حيث مقرّ إقامة محمّد الصادق باي.

نصب الحماية الفرنسية

لقد كان من نتائج هذه الحملة العسكرّية احتلال فرنسا للبلاد التونسيّة وفرض حمايتها عليها، وقد اعترف محمّد الصادق باي بالحماية. ووقّع على المعاهدة التي عرضها عليه الجنرال بريّار غداة حصاره للقصر السعيد بباردو، وذلك في 12 جمادى الثانية 1298/ 12 ماي 1881.

ومن ذلك الحين ارتبط تاريخ تونس بالأحداث الواقعة في البلاد، وانحصرت المهمّة في الإصلاحات التي تقترحها فرنسا على الباي وإعادة تنظيم الإدارة التونسيّة.

ويكفينا الإشارة هنا إلى سقوط مصطفى بن إسماعيل من الوزارة الكبرى وتعويضه بمحمد خزنه دار، وقد أقام عليها نحو السنة، إلى أن توفي محمّد الصادق باي في 16 ذي الحجة سنة 1299/ 28 أكتوبر 1882 واعتلاء أخيه علي باي العرش الحسيني.

---

(1) انظر، أحمد القصّاب، «تاريخ تونس المعاصر»، تعريب حمادي الساحلي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1986. (م)

نظـام الحمايـة

يستند نظام الحماية الفرنسيّة إلى معاهدة باردو التي ينصّ فصلها الرابع على أن فرنسا يمثلها في تونس مقيم عام يكون الواسطة بينها وبين الحكومة التونسية. كما ينصّ الفصل الخامس على أن علائق تونس الخارجية تكون لسفراء فرنسا في الخارج[1]. ثم أُبْرِمَت بين البلدين اتفاقية المرسى في 25 جمادى الأولى سنة 1300/ 8 جوان 1883، وبمقتضاها التزمت الحكومة التونسية بإجراء الإصلاحات الداخلية، من إدارية وعدلية ومالية، التي تراها فرنسا صالحة[2].

وبقيت الشؤون الداخليّة تحت سلطة سموّ الباي الذي له الولاية على الرعايا التونسيّين، وبيده السلطة التشريعية وختم سائر القوانين والأوامر، وهو عنوان الحكم والسيادة[3].

13- علـي بـاي الثـالث (1882- 1902)

سافر في مدّة ولايته للعهد مرّات بالجيوش داخل البلاد للمحافظة على الأمن، فاكتسب بذلك معرفة تامّة بمصالح الدولة، وكان كريم الأخلاق، رقيق القلب، له مشاركة طيّبة في العلوم العربية والفقهية، وكان وزيره الأكبر الشيخ محمّد العزيز بوعتّور. وفي بداية ولايته أمضى على اتّفاقيّة المرسى المتقدّم ذكرها. وعقدت الدولة التونسيّة قرضا قدره 120 مليون فرنك من فرنسا بواسطة مقيمها العام بتونس بول كمبون، لتصفية الديون القديمة، وفي جمادى الأولى سنة 1300 / أفريل 1883 أُنشِئَت وظيفة الكاتب العام للحكومة التونسية لتنسيق شؤون الإدارة التونسية ومراقبة سيرها، [وأُسنِدَت إلى موظّف سامٍ فرنسي برتبة وزير]. كما أُحدِثَت في داخل القطر مراقبات مدنية في أهمّ المدن التونسية لمراقبة تصرّف نوّاب الإدارة المحليّة التونسيّين.

وفي السنة ذاتها أنشئت عدّة إدارات مركزية بتونس وعُيّن على رأسها

---

(1) يعتبر الوزير المقيم العام في نفس الوقت ممثّل الجمهورية الفرنسية ووزير خارجية الباي والأميرال قائد البحريّة الفرنسية وزير البحريّة التونسي، ومن المفارقات أنّ المقيم العام الفرنسي الذي يحضر اجتماعات مجلس الوزراء التونسي، باعتباره وزيرا لشؤون الخارجيّة، هو الذي يرأس هذا المجلس الذي يضمّ عضوين تونسيّين فحسب، هما: الوزير الأكبر ووزير القلم والاستشارة، وسائر المديرين الفرنسيين والكاتب العام للحكومة الفرنسي أيضا، بالإضافة إلى القائد العام للقوات الفرنسية وأميرال البحريّة الفرنسيّة، وهذا هو عين السيادة المزدوجة. (م)

(2) وبالموافقة على هذه الاتفاقية، فقدت تونس استقلالها الداخلي، بعدما فقدت استقلالها الخارجي بمقتضى معاهدة باردو. (م)

(3) لكنّ هذه القوانين والأوامر لا تصبح نافذة المفعول، إلاّ بعد أن يضع عليها المقيم العام تأشيرته. كما أن قرارات الوزراء التونسيين لا تدخل حيّز التنفيذ إلاّ إذا وقّع عليها الكاتب العام للحكومة الفرنسي الجنسيّة. (م)

مديرون فرنسيون برتبة وزراء، وهي: إدارة المال العامة وإدارة الأشغال العمومية وإدارة العلوم والمعارف، وبعد ذلك بقليل إدارة الفلاحة والتجارة وإدارة البريد والبرق والهاتف. [أما عدد الوزراء التونسيين فقد انخفض إلى اثنين هما: الوزير الأكبر ووزير القلم والاستشارة، ويرأس مجلس الوزراء المقيم العام الفرنسي].

وفي شهر شوّال 1302/ جويلية 1885 أُنشِئ «دفتر خانة» لتسجيل الأملاك العقاريّة، ويرجع نظره إلى المحكمة العقاريّة المختلطة التي تتألّف من قضاة تونسيّين وفرنسيّين [برئاسة قاضٍ فرنسي للنظر في النزاعات القائمة بين التونسيّين والأجانب في الميدان العقاري].

وبعد حياة طويلة[1] توفي علي باي مأسوفاً عليه يوم 3 ربيع الأول سنة 1320 / 11 جوان 1902 وخلفه ابنه الأكبر محمّد الهادي.

14- محمّد الهادي باي (1902 - 1906)

كان شهما، جوادا، ربّاه أبوه أحسن تربية، وغذّاه بلبان أخلاقه. وفي بداية عهده زار رئيس الجمهورية الفرنسية إيميل لوبي البلاد التونسية، فقام الباي في العام الموالي بردّ الزيارة وقوبل بمظاهر الحفاوة الملوكيّة.

غير أن مدّة هذا الأمير الصالح لم تطل حيث أنّه توفي صغيرا يوم 24 ربيع الأول سنة 1324/ 11 ماي 1906 وخلفه ابن عمّه محمّد الناصر.

15- محمّد الناصر باي

هو محمّد الناصر ابن المشير الثاني مَحمّد باي. افتتحت ولايته بإصدار مجلّة العقود والالتزامات، بمقتضى أمر عليّ مؤرّخ في 28 شوال 1324 / 15 ديسمبر 1906، وهو أوّل نصّ من نصوص القانون المدني التونسي الحديث.

كما دخل لأوّل مرّة نوّاب تونسيّون في المجلس الشوري المتمثلة مهمّته في المصادقة على ميزانية الدولة التونسيّة [التي تُعِدّها مصالح وزارة الشؤون الخارجيّة الفرنسيّة]. وكانت هذه الهيئة محصورة في نوّاب الجالية الفرنسيّة بتونس.

وفي سنة 1909/1327، أُحدِثت «الحالة المدنيّة» بتونس لتسجيل الولادات والوفيات في المجلس البلدي لمدينة تونس، وجرى العمل بها بعد ذلك في كامل البلاد.

---

(1) علي باي الثالث مولود في 26 جانفي 1818. (م)

ومن أهمّ الأحداث التي جدّت في عهد محمّد الناصر باي هجوم القوات الإيطاليّة على الإيالة الطرابلسيّة التابعة للدولة العثمانيـة، فتمكّنـت إيطاليـا مـن الاستيلاء على المدن الساحلية في أكتوبر 1909. وقد أثار هذا الهجوم الوحشـي شعور كامل الأمّة التونسيّة التي أظهـرت مـن العطـف والتضـامن إزاء الأشـقاء الطرابلسيّين، ما كدّر صفو العلاقات القائمة بين أبناء البلاد والجاليـة الإيطاليّـة المقيمة في تونس. ومـن أجـل ذلـك حصلـت عـدّة مصادمـات بـين التونسـيين والإيطاليين. وممّا زاد الطين بلّة أن مجلس بلدية مدينة تونس قرر تسجيل مقـبرة الزلاّج الإسلاميّة ووضع اليد عليها، فتحمّس أبناء البلاد لذلك وتظـاهروا يـوم 7 نوفمبر 1911 لمنع عملية التسجيل، فتدخـل أعـوان الشـرطة لصـدّ المعـترضين بالقوّة، فآل الأمر إلى انتفاضة شعبيّة أمام المقبرة، وفي أثنائهـا ألقـى المتظـاهرون الحجارة على قـوّات الأمـن، فاسـتعمل أعـوان الشـرطة السـلاح وأصيـب مـن الأهالي جماعة بالرصاص فقضوا نحبهـم وجُـرِح كثـير منهـم. وبسـببها نصبـت السلطة حالة الحصار وحُكِم على نفر من المتظاهرين بالإعدام وعلى فريق آخـر بالسجن والنفي. وأُبْعِد بعض الشباب المثقف إلى الخارج[1].

الحـرب العالميّـة الأولـــى

ما كادت كارثة طرابلس تهدأ شـيئاً مـا حتـى اندلعـت الحـرب العالميّـة الأولى بين الحلفاء: إنجلترا وفرنسا ثم إيطاليا، وبين ألمانيا والنمسا ثم تركيـا، في رمضـان 1332/ أوت 1914، وكـان مـن أثـر هـذه الحـرب أن دخلـت البـلاد التونسيّة إلى جانب الحلفاء وساهمت بأبنائها الذين شـاركوا في ميـادين القتـال وأبلوا البلاء الحسن، إذ بلغ عدد المقاتلين منهم زهاء الخمسة وستين ألفـا، قُتِـل منهم نحو الاثنَيْ عشر ألفا[2].

وأثناء الحرب ثار بالناحية الجنوبية الشرقية من القطر التونسي خليفة بـن عسكر، وقد انضمّ إليه عدد كبـير مـن المجـاهدين الطرابلسيّين، فاسـتولى علـى مركز الذهيبات وجنين وأمّ السويق وقد اندلعـت ثـورة خليفـة بـن عسـكر في أوائل شهر أوت 1915، وامتدت غاراته إلى المراكز العسكريّة في جنوب البـلاد مثل بئر قصيرة ورمادة. وقد قاومته الجيـوش النظاميّـة ودامـت مطاردتـه إلى أن خمدت الثورة، فافتُكّ منه ما كان استولى عليه وقُتلت جماعتـه وعـاد الأمـن إلى نصابه.

---

(1) لم يتمّ إبعاد زعماء حركة الشباب التونسي (وفي مقدّمتهم علي باش حانبة وعبد العزيز الثعـالبي) إثر حوادث الزلاّج، بل إثر حركة مقاطعة الترامواي في شهر مارس 1912. (م)

(2) انظر حول هذا الموضوع بالخصوص، عبد العزيز الثعالبي **تونس الشهيدة**. (م)

وبانتهاء الحرب في 11 نوفمبر 1918 عادت البلاد إلى حياتها العادية واستأنفت سيرها نحو التقدّم والرقيّ، وقد عوّض غبريال ألابتيت[1] المقيم العام بتونس بخلفه لوسيان سان الذي قدم الحاضرة في أوائل سنة 1920.

وفي شهر أفريل من السنة الموالية أُنشئت وزارة العدليّة التونسية للفصل بين السلطات، ومنذ ذلك الحين أبطل العمل بالأحكام التي كانت تصدرها الإدارة، وأحدثت محاكم جهوية في كامل البلاد، وقد عيّن على رأس هذه الوزارة طاهر باشا خير الدين، ابن الوزير الأكبر السابق خير الدين الطائر الصيت [فأصبح عدد الوزراء التونسيّين ثلاثة].

وفي سنة 1922 زار رئيس الجمهورية الفرنسية ميلران البلاد التونسية، فاستقبله سموّ الباي بكل حفاوة وتبجيل[2]، وبعدها بقليل توفّي سيدي الناصر يوم 10 جويلية 1922، مأسوفًا عليه من سائر الأمّة التونسيّة، لما خصّه اللّه من صفات التواضع والحنان والخوف من اللّه تعالى وخلفه ابن عمّه سيدي محمّد الحبيب.

16- محمّد الحبيب باي (1922 - 1929)

وهو ابن محمّد المأمون ابن حسين باي الثاني، افتتح عهده بصدور إصلاحات إداريّة وسياسيّة جديدة، منها تأسيس مجلس كبير منتخب من الدرجة الثانية برئاسة المقيم العام لتعويض المجلس الشوري السالف الذكر. كما أنشئت مجالس محلية في جهات البلاد الخمس ومجالس الأعمال، وذلك بمقتضى الأمر العليّ المؤرخ في 19 ذي القعدة 1340 / 13 جويلية 1922.

أما المجلس الكبير فإنه يتركّب كسالفه من قسمَيْن اثنين: قسم تونسي وقسم فرنسي[3]، يتفاوض كلّ قسم بانفراده، وتتمثل مهمّة هذا المجلس في دراسة الميزانية التي تعرضها عليه الحكومة وله حقّ اقتراح إنجاز مشاريع جديدة [بشرط استنباط موارد جديدة في الميزانية لهذا الغرض]. كما يبدي المجلس رأيه

---

(1) دام ألا بوتيب (Alapetit) على رأس الإقامة العامة من 1907 إلى 1918، ثم عوّضه إيتيان فلاندان (Flandin) (1918 - 1920) ثم لوسيان سان (Lucien Saint) من 1920 إلى 1929. (م)

(2) لم يُشر المؤلف إلى الأزمة السياسية التي اندلعت بين القصر والإقامة العامة في شهر أفريل 1922، أي قبيل زيارة رئيس الجمهورية الفرنسية في الشهر الموالي. ذلك أن الأمير محمّد الناصر باي قد هدّد بالتنازل عن العرش، إن لم تستجب الحكومة الفرنسية للمطالب الوطنية التي قدّمها الحزب الحرّ الدستوري التونسي إثر تأسيسه سنة 1920. ولم يتراجع الباي عن قرار التنازل عن العرش، إلا بعد أن وعد المقيم العام لوسيان سان بالنظر في تلك المطالب بعد زيارة الرئيس الفرنسي. وبطبيعة الحال، فإنه لم يبرّ بوعده. (م)

(3) يتركّب المجلس الكبير من قسمَيْن: قسم تونسي يضمّ ممثّلي السكان التونسيين والجمعيتين التونسيّتين التجارية والفلاحية، أمّا أعضاء القسم الفرنسي الذين يمثلون الجالية الفرنسية بتونس فيُنتخبون بالاقتراع العام والمباشر. (م)

في القروض العموميّة، وله حقّ النظر في الاتّفاقات التي تعقدها الحكومة مع الخوصّ. وإذا حصل نزاع بين القسمَيْن، يعرض النزاع على لجنة تحكيميّة لتسوية الخلاف، تتركّب من أعضاء ينتخبون بالتساوي بين القسمين. وكان الغرض الأصلي من إنشاء المجلس الكبير هو تمكين النوّاب التونسيّين وممثلي الجالية الفرنسية المنتخبين، من التعبير لأولي الأمر عن رغائب سكّان البلاد والسهر على تحقيقها باتّفاق مع السلط المركزيّة.

وممّا يستحقّ الذكر أيضا إنشاء حجرتين تونسيّتين مُنتخبتين: الحجرة الفلاحية والحجرة التونسيّة، وقد تمّ تأسيسهما في شعبان 1342/ مارس 1924.

ولم يزل سيدي محمّد الحبيب باي معظّما محبوباً[1] إلى أن لبّى داعي ربه يوم 13 شعبان 1346/ 11 فيفري 1929 وخلفه ابن عمّه أحمد باي.

17- أحمد باي الثاني (1929 - 1942)

هو أحمد بن علي بن حسين باي الثاني تولّى والأزمة الاقتصاديّة ضاربة أطنابها في جميع أنحاء العالم. أما في البلاد التونسية التي لا تعيش إلاّ من محصول فلاحتها، فإنها قد أضرّتها بصورة خاصّة، لاسيما وقد ظهرت الأزمة في سنين تتابع جدبها لقلة نزول الأمطار، فكان ذلك سبباً في تعطيل أسباب الزراعة وموت المواشي وفناء ذخائر الفلاّحين، فقاسى السكان آلام الشدّة والبؤس. وتجاه هذا الوضع التجأت الحكومة إلى اتخاذ بعض الوسائل لمقاومة الأزمة وإيقاف تيّارها. وفي شهر أفريل 1931 زار تونس رئيس الجمهوريّة الفرنسية غسطوف دومارغ بمناسبة مرور خمسين سنة على نصب الحماية. وعقب قدومه بقليل عُيِّن مارسال بيروطون مقيما عاما بتونس في جويلية 1933.

وقد أصدرت الحكومة أمرا عليّا مؤرّخا في جمادى الثانية 1352/ أكتوبر 1933 في توقيف بيع الأملاك العقارية المرهونة في ديون ناشئة عن الضائقة المالية. وعُيّنت آجال واسعة للمدينين لتسديد ما عليهم، وبذلك خفّت وطأة الأزمة شيئاً ما.

وفي مطلع سنة 1935 أُنشئ ديوان لضمان البضائع التونسية من الغشّ والتقليد، وذلك بوضع علامة خاصّة على المنتجات الصناعية (مثل الشاشية والزربيّة) لتكون ضمانا لها وإثبات أصلها، وحسن صنعها.

---

(1) لاشكّ أن المؤلف قد استعمل هذه العبارة على سبيل المجاملة، لأن محمّد الحبيب باي لم يكن «محبوباً» قطّ من قِبَل الشعب التونسي إذ كان أداة طيّعة بين يدَيْ المقيم العام. فهو الذي وقع على الأمر الذي يسمح للتونسيّين المسلمين بالتجنّس بالجنسية الفرنسية، وهو الذي ناصب العداء لزعيم الحزب الدستوري الشيخ عبد العزيز الثعالبي، بعدما كان يتودّد إليه عندما كان وليّا للعهد، حتى اضطرّ الشيخ إلى مغادرة البلاد التونسية في سنة 1923 ولم يرجع إليها إلاّ في جويلية 1937. (م)

تحـرّج الحالــة

وقد كان من مظاهر الأزمة المستفحلة في عموم ميادين البـلاد أن طلـب الوطنيّون التونسيّون من الحكومة اتّخاذ إجراءات إصلاحـات أساسيّة في هيئـة الحكم والإدارة.

وفي صائفة عام 1934 عمّ القلق ونشـأ بـين أهـالي العاصمـة وكثـير مـن المـدن التونسيّة تظـاهر في الشـوارع وإضـراب عـن العمـل وغلـق دكـاكين التجارة[1]. وفي أثناء ذلك [ألقي القبـض علـى زعمـاء الحركـة الوطنيـة يـوم 3 سبتمبر 1934]، فحصلت مشادات عنيفة بـين أعـوان الأمـن والمتظـاهرين أدّت إلى استعمال السلاح وقتل البعض منهم وجـرح عـدد كبـير مـن أبنـاء البـلاد، فقرّرت حكومة الحماية نصب الأحكام العرفية وتعطيل الصحف الوطنية ونفي زعماء الحزب الدستوري إلى أقصى الجنوب [في محتشـد بـرج البـوف]، بتهمـة إثارة الشغب، و لم تمنع هذه التدابير مـن اسـتمرار تظـاهر الأهـالي والإلحـاح في المطالبة بالإصلاحات السياسيّة.

وقد عُيّن أرمان غيون مقيما عاما جديـداً (1936) عوضـا عـن مارسـال بيرءطون، [فأطلق سـراح زعمـاء الحـزب الدسـتوري الجديـد في مـارس 1936 وأجرى اتصالات سياسية بهم باسم حكومة الجبهة الشعبية اليساريّة الفرنسـية. لكن المحادثات التي جرت بين تلك الحكومة وبين قـادة الحـزب الدسـتوري قـد فشلت بسبب تعنت غلاة الاستعماريّين]. فاستؤنفت حركة المظـاهرات بشـدّة في عدّة مدن ومراكز منها المتلوي في ناحية قفصـة والمـاتلين في ناحيـة بـنزرت. وتصـدّت القـوّات المسـلّحة للمتظـاهرين وكـم مـرّة اسـتحالت المظـاهرات إلى معارك دموية كما حصل في بنزرت في شهر جانفي 1938 وفي العاصمة يـوم 9 أفريل من نفس السنة. وآل الأمر إلى نصب حالـة الحصـار في مراقبـات تونـس وسوسة والوطن القبلي.

والأسـباب الأصليّـة لهـذه المظـاهرات وهـذا الهيجـان، واتّجـاه الفكـر التونسي إلى المطالبة بالإصلاحات، أن الشعب التونسي قد تنبّه وحصل له وعي ورشد لم يتّسم بهما من قبل. وذلك ناشئ عن يقظة في نخبة كبيرة من الشباب المثقّف بـالعلوم العصريّـة، وقـد ارتقـى فصـار يطـالب [بالحريّـة والاسـتقلال]، لاسيما وقد فتحت حكومة الحماية باب التجنّـس بالجنسـيّة الفرنسـيّة في وجـه

---

(1) تأزّم الوضع في البلاد إثر الانشـقاق الـذي جـدّ في صفـوف الحـزب الحـرّ الدسـتوري التونسـي، وانبعاث الحزب الحرّ الدستوري الجديد خلال المؤتمر الوطـني المنعقـد بمدينـة قصـر هـلال في 2 مـارس 1934. (م).

سائر العناصر المقيمة في البلاد. فرأت تلك النخبة المثقّفة أنّ مثل هذه الإجراءات تمسّ بالذاتيّة التونسيّة وتقضي عليها إن عاجلاً أو آجلا بالفناء. لذلك تحرجّت خواطر الشعب التونسي الذي أخذ يطالب بالاعتراف بذاتيته أوّلا وبالإصلاحات لحفظ كيانه ومركزه السياسي والإداري ثانيا، لاسيما وأنّ عدد السكّان قد أخذ يتزايد يوماً فيوماً، بحيث أصبح من المتحتّم على أولي الأمر الاهتمام بمساعدة الشعب ومسايرته في رغائبه المعقولة.

الحرب العالمية الثانية

وفي هذه الأثناء كانت العلاقات السياسيّة بين الدول الأوروبية يتعكّر سيرها أكثر فأكثر، وتوتّرت الحالة إلى أن آلت أخيرا إلى إعلان فرنسا وأنجلترا الحرب على ألمانيا وإيطاليا في 30 سبتمبر 1939. لكن مقابلات الجيوش والمعارك الدامية لم تبدأ في الحقيقة إلاّ في منتصف السنة الموالية. ففي شهر جوان ألقت طائرات إيطالية قنابل على بنزرت وتونس، لكن لم تحصل منها مضرّة كبيرة. ثم إن المرشال بيتان الذي تولّى رئاسة الدولة الفرنسيّة، طلب عقد هدنة صلح مع ألمانيا في 25 جوان 1940، وفي الأثناء عُيّن الأميرال إستيفا مقيما عاما بتونس. وفي 3 جمادى الثانية 1361 / 19 جوان 1942 توفّي سيدي أحمد باي الثاني واعتلى العرش وليّ عهده محمّد المنصف باي.

18- محمّد المنصف باي (1942 - 1943)

ومحمد المنصف ابن سيدي الناصر المتقدّم هو الملك الكريم الموصوف بصدق اللّهجة والمتشبّع بروح الإخلاص والغيرة، وقد حاول حماية شعبه في أصعب فترة عرفتها البلاد وكان طوال مدّته مظهراً للرأفة بأفراد شعبه كبيراً وصغيراً.

اعتلى الأريكة التونسيّة والعالم بأسره يخوض حربا ضروسا وفي أوّل عهده أنزلت الحكومة الأمريكية قوّة عظيمة في المغرب والجزائر، بقيادة الجنرال إزنهاور. وقابلت جيوش المحور ذلك بالمثل واستولت على جانب كبير من البلاد التونسيّة في 9 نوفمبر 1943، ومن ذلك الحين ابتدأت في التراب التونسي معارك ضارية بين قوّات الحلفاء (أنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة) وجنود المحور (ألمانيا وإيطاليا). وقد تجمّعت في البلاد التونسية ذات الرقعة الضيّقة في آن واحد خمسة من أكبر جيوش في العالم، وكانت الحرب بين الفريقين سجالا تارة لهؤلاء وأخرى لهؤلاء، ولاقى التونسيّون أثناءها ضروبا من آلام الجوع والعراء والتشرّد، علاوة على الخسائر الحاصلة في المنازل والمحلات من التخريب والهدم، لا تدخل تحت وصف. ودامت الحال على ذلك ستة أشهر متوالية (من

نوفمبر 1942 إلى ماي 1943) وتضرّر عدد من المدن التونسيّة أضرارا فادحة (تونس وبنزرت وسوسة وصفاقس)، كما تضرّرت كثير من القرى والأرياف أضرارا متفاوتة بالقذف الجويّ واعتداءات الجنود على اختلاف أجناسهم.

وفي النهاية أسفرت العمليّات الحربيّة عن استيلاء قوّات الحلفاء على كامل البلاد التونسيّة وطرد جنود المحور عنها يوم 7 ماي 1943. وقد تباشر السكّان بانتهاء الحرب على أرض بلادهم وابتهجوا بذلك لولا ما دهاهم من خلع ملكهم المحبوب من قِبل قوّات الحلفاء بسبب وشايات مغرضة لم يقم عليها أدنى برهان فتمّ نفي المنصف باي [إلى مدينة الأغواط في جنوب الجزائر يوم 14 ماي 1943 ثم إلى مدينة تنّس الواقعة في الساحل الجزائري، ولمّا وضعت الحرب العالمية أوزارها نُقِل إلى مدينة بُو بجنوب فرنسا سنة 1945]. فاستاء الشعب وامتعض من هذا الإرهاق الممقوت. وأقام سموّه في منفاه إلى أن وافاه الأجل المحتوم يوم الأربعاء 27 شوال 1367/ غرّة سبتمبر 1948، ونُقِل جثمانه إلى تونس حيث دُفِن في مقبرة الزلاّج عملاً بوصيّة منه في محفل مشهود قلّ ما يكون له مثيل.

19- محمّد الأمين باي (1943 - 1957)

ومن حسن طالع هذه الأمّة ورأفة الأقدار بها أن خلف محمّد المنصف باي على العرش الحسيني الميمون ابن عمّه وولي عهده محمّد الأمين باي ابن محمّد الحبيب باي، الذي ارتقى إلى أريكة الملك في 11 جمادى الأولى 1362 / 15 ماي 1943. وكأنّ العناية الربّانية عيّنته للأخذ بناصر الأمّة التونسيّة في سيرها نحو النهوض، فسلك بها حثيثا سُبُل الهدى والرشاد، وحَنا عليها بعطف نادر، حنوّ الأبْ الرؤوف بالأولاد ورسم لها منهجا قوميّا للإصلاح، وبعث فيها نهضة جديدة تبشّر بالنجاح، وقد تسابقت القلوب إلى محبّته، وتعلّقت المهج بسدّته، فبارك اللّهم بفضلك في حياته الغالية إلى أن يبلغ المنى، وأنله من العزّ غاية المدى، إنك سميع الندا، مجيب الدعا.

آمين !

سبتمبر 1953

[هنا ينتهي كتاب العلاّمة حسن حسني عبد الوهّاب ويليه الملحق الذي أعدّه المحقّق حول تاريخ الحركة الوطنية التونسيّة، تعميماً للفائدة].

الفصل العشرون
تاريخ الحركة الوطنية التونسيّة
(1881 – 1945)

تكملة حمادي الساحلي

1- انبعاث الحركة الوطنية (1881 - 1918)

المقاومة المسلّحة (1881 - 1887)

اتّخذت المقاومة الوطنيّة للاحتلال الفرنسي في أوّل الأمر شكلا مسلّحا، إذ نسيت القبائل خلافاتها القديمة وأجمعت كلمتها على مواجهة العدوّ بحدّ السلاح بقيادة عامل نفّات علي بن خليفة. واندلعت الثورة في مدينة صفاقس اعتباراً من آخر جوان 1881، ثم امتدّت إلى قابس والوسط والجنوب والغرب. وطلبت السلط الفرنسيّة الإمدادات من فرنسا والجزائر فارتفع عدد الجنود الفرنسيّين إلى 50.000 رجل، وتمكّنت القوّات الفرنسيّة من احتلال صفاقس وقابس بعد مقاومة مستميتة، ثم احتلّت تونس وسوسة والقيروان والكاف بلا قتال. لكن المقاومة المسلّحة قد تواصلت في أقصى الجنوب طوال سنة 1882، بقيادة علي بن خليفة الذي نقل مقرّ قيادته إلى طرابلس. وحاولت السلطة الفرنسية إخضاعه بالإقناع، لكنه رفض التصالح، واستمرّ رجاله في شنّ الغارات على العدوّ، انطلاقاً من الحدود التونسيّة الطرابلسيّة، إلى أن استشهد القائد علي بن خليفة في 14 نوفمبر 1884. ومع ذلك فقد تواصلت المقاومة المسلحة إلى حدود سنة 1887، و لم يستتبّ الأمن إلاّ في سنة 1890، بعد ما تبخّرت الآمال التي كان يعلّقها المجاهدون على مساعدة الخلافة العثمانيّة.

الحركة المطلبية الأولى (1885)

بعدما فشلت المقاومة المسلّحة، حاول أعيان الحاضرة القيام بحركة احتجاجيّة، غداة الزيارة الأولى التي أدّاها الشيخ محمّد عبده إلى تونس من 6 ديسمبر 1884 إلى 4 جانفي 1885. فقد خرجت مظاهرة عظيمة بقيادة الشيخ محمّد السنوسي من العاصمة إلى ضاحية المرسى، وقابل وفد من المتظاهرين

الأمير علي باي، لإبلاغه مطالب سكّان مدينة تونس المتمثلة فيما يلي:
- إلغاء قرار الزيادة في معاليم استهلاك الماء الصالح للشراب.
- إلغاء القرار المتعلّق بمطالبة السكّان بدفع الأداءات البلدية المتأخّرة.
- المطالبة بإجراء دفن أموات المسلمين على مقتضى الأحكام الإسلاميّة.

ثم اتّسع نطاق هذه الحركة التي اتخذت شكلا جماعيا، إذ وقّع على العريضة الاحتجاجيّة ما يناهز الثلاثة آلاف تونسي. فخشي المقيم العام الفرنسي أن تتحوّل حركة الاحتجاج إلى حركة مناهضة لنظام الحماية ذاته. وقرّر أوّلا التراجع في القرارات التي أثارت غضب التونسيين، ثم توجّه نحو زعماء الحركة، فاتخذ ضدّهم قرارات بالنفي والعزل.

ولم يمض على نفي زعيم حركة الاحتجاج محمّد السنوسي إلى قابس، سوى شهرَيْن، حتى وجّه رسالة إلى الحكومة، طالباً العفو ثم تحوّل بين عشيّة وضحاها من مُعَارِض إلى مُتعاوِن مع حكومة الحماية.

الحركة الثقافية والفكريّة

لمّا فشلت الحركة المطلبيّة، اتّجه قادة الفكر في تونس اتّجاها جديدا يرمي إلى نشر التعليم والدفاع عن الشخصية التونسية، والتعريف بالحضارة العربية الإسلامية. وقد تزعّم هذه النزعة خريجو المدرسة الصادقية بقيادة البشير صفر الذي وجد كامل الدعم لدى رجال الإصلاح بجامع الزيتونة وعلى رأسهم الشيخ سالم بوحاجب. ولم تعارض حكومة الحماية هذا الاتجاه، بل ساعدت أصحابه على إصدار جريدة أسبوعيّة تنطق باسم الحركة الإصلاحيّة، وهي جريدة "**الحاضرة**" التي صدر عددها الأوّل يوم 8 أوت 1888 وقد كان منهاجها يتمثل في الدعوة إلى الأخذ بأسباب التمدّن الغربي ونشر التعليم، مع اجتناب الخوض في المسائل السياسية.

وتطبيقا لهذا المنهج أسّس جماعة الحاضرة في سنة 1896 جمعية ثقافية أطلقوا عليها اسم "**الجمعيّة الخلدونية**" التي بادرت منذ انبعاثها إلى تنظيم دروس باللغة العربية في التاريخ والجغرافيا والرياضيات والفيزياء والكيمياء، إلى جانب المحاضرات العامة. كما أنشأت مكتبة عامّة زاخرة بالكتب والمجلات العربية والفرنسية.

وفي سنة 1905 أسّست مجموعة أخرى من قدماء الصادقيين، في

مقدمتهم علي باش حانبة، جمعية ثقافية ثانية أطلقوا عليها اسم "**جمعية قدماء تلامذة المدرسة الصادقية**" وقد اتّجهت الجمعيّة في أوّل عهدها إلى الكتّاب ورجال الفكر الفرنسيّين ودعتهم إلى إلقاء محاضرات باللغة الفرنسية، ثم ما لبثت أن فتحت المجال في وجه علماء الزيتونة المعروفين بأفكارهم الإصلاحيّة، فأمكن بذلك تفادي القطيعة بين الزيتونيّين والمدرسيّين.

حركة الشباب التونسي (1906- 1912)

اعتباراً من سنة 1906 اتّجهت الحركة الوطنية إلى تقديم بعض المطالب إلى حكومة الحماية. فقد ألقى البشير صفر رئيس الجمعية الأوقاف في حفل تدشين مأوى العجّز بتونس يوم 24 مارس 1906، بمحضر المقيم العام، خطابا دعا فيه إلى وجوب اتخاذ إجراءات حازمة للتّخفيف من آثار الأزمة الاقتصادية التي يعانيها الشعب التونسي، مثل تشجيع الصناعات التقليدية والفلاحة وحماية اليد العاملة التونسية ونشر التعليم المهني والزراعي، الخ... ورغم ما اتّسم به ذلك الخطاب من اعتدال، فقد أثار استنكار غلاة الاستعمار، وآل الأمر إلى إعفاء البشير صفر من مهامّه على رأس جمعية الأوقاف وتعيينه عاملا على سوسة، لإبعاده عن العاصمة.

فتزعّم حركة الشباب التونسي المحامي علي باش حانبة الذي أصدر يوم 7 فيفري 1907 جريدة «التونسي» الناطقة باللغة الفرنسيّة لإبلاغ صوت الوطنيين التونسيين إلى الحكومة الفرنسية ورغم اعتدال الجريدة التي كانت تدعو إلى تطبيق سياسة المشاركة فقد أثارت سخط الاستعماريّين الذين شنّوا عليها حملة شعواء. فرأى بعض المسؤولين في فرنسا تنظيم مؤتمر عامّ بباريس لتمكين ممثلي الرأي العام التونسي من الإعراب عن رغائبهم. وقد انعقد هذا المؤتمر من 6 إلى 8 أكتوبر 1908 واستمع إلى البحوث التي قدمها سبعة أعضاء من حركة الشباب التونسي، حول بعض المواضيع الحيويّة مثل نشر التعليم وتنظيم الأوقاف الإسلامية والفلاحة والقضاء وتعليم البنت المسلمة الخ...

وإثر رجوع الوفد إلى تونس قامت الحركة بنشاط حثيث وازداد نطاق إشعاعها اتّساعاً وتسارع نسق الأحداث. ففي سنة 1909 انعقد أوّل اجتماع تونسي عمومي بتونس للاحتجاج على محاولة فصل اليهود التونسيّين عن العدلية التونسية، وانتظمت إثر الاجتماع مظاهرة عظيمة شارك فيها حوالي

10.000 مواطن. وفي سنة 1910 أضرب طلبة جامع الزيتونة للمطالبة بإصلاح التعليم في معهدهم، وقد خطب علي باش حانبة في المضربين وأعرب عن مساندته المطلقة لحركتهم. وبذلك تمّ التلاحم بين حركة الشباب التونسي وبين الحركة الزيتونية.

وفي يوم 7 نوفمبر 1911 حصلت مواجهة مسلّحة بين الجماهير الشعبية والجنود الفرنسيين، احتجاجًا على محاولة انتهاك حرمة مقبرة «الزلاّج» الإسلاميّة. وأسفرت تلك المواجهة عن قتل وجرح عدد كبير من المتظاهرين وتقديم أكثر من 800 تونسي إلى المحاكم وإعلان حالة الحصار وتعطيل الصحف الوطنية.

ورغم الإجراءات القمعية، فقد بلغت حركة الشباب التونسي ذروة نشاطها في سنة 1912، ولذلك استغلّت السلطة الاستعماريّة قضية مقاطعة الترامواي في مدينة تونس للقضاء على الحركة.

وفي فجر يوم 13 مارس 1912 ألقي القبض على سبعة من زعماء الحركة، أُبْعِد أربعة منهم إلى الخارج وسُجِنَ الثلاثة الآخرون في تونس. وبعد مدّة قليلة رفع قرار الإبعاد والسجن، فرجع المنفيون والمعتقلون إلى ديارهم ما عدا علي باش حانبة الذي قرر الاستقرار نهائيّا في الأستانة لمقاومة الاستعمار من الخارج، بعدما تيقّن من فشل سياسة المشاركة.

وفي سنة 1913 غادر تونس محمّد باش حانبة للالتحاق بشقيقه علي وببقية الوطنيين التونسيين المقيمين في الخارج. وبعد إعلان الحرب تحوّل في سنة 1916 إلى جونيف حيث أصدر "**مجلّة المغرب العربي**" الناطقة باللغة الفرنسية، للدفاع عن القضية التونسية بوجه خاصّ، وقضايا المغرب العربي بوجه عامّ.

أما في تونس فقد ركدت الحركة الوطنية طوال مدّة الحرب العالمية الأولى (1914– 1918)، و لم يقم الوطنيون بأيّ نشاط مناهض لفرنسا، باستثناء بعض الاضطرابات التي جدّت خلال سنتَيْ 1914 و1915 في الجنوب. فخلا الجوّ للسلطة الاستعمارية لتطبيق سياستها الرامية إلى استعباد الشعب التونسي والقضاء على شخصيّته العربية الإسلامية. واشتدّت وطأة الاستعمار طيلة الحرب، وانتهج الوطنيّون سبيل الحذر، وجنحوا إلى الهدوء والسكينة، في انتظار ما ستسفر عنه الحرب من نتائج، معتقدين أن الحلفاء بعد انتصارهم المُحقّق لن يتردّدوا في منح الشعوب المُوَلّى عليها الحريّة التي دفعت ثمنها غاليا

أثناء الحرب.

2- نشاط الحركة الوطنية في العشرينات (1920 - 1929)

- نشاط الشيخ الثعالبي في باريس (1919 - 1920)

ما إن وضعت الحرب العالمية أوزارها حتى قام الوطنيّون بإعادة تنظيم صفوفهم وضبط مطالبهم. وقرّروا في آخر الأمر أن يعهدوا بمهمّة الاتصال في باريس بالحكومة الفرنسية وبممثلي الحلفاء، إلى عناية الشيخ عبد العزيز الثعالبي الذي أصبح زعيم الحركة الوطنية بعد وفاة علي باش حانبة سنة 1918. فتحوّل الثعالبي خلال شهر جويلية 1919 إلى باريس حيث قام بنشاط حثيث، تمثل في إلقاء المحاضرات والخطب ونشر المقالات في الصحف للتعريف بالقضية التونسية، والاتصال بزعماء الأحزاب الفرنسية وقادة المنظمات الإنسانية، والاجتماع بالجالية التونسية في فرنسا.

وإلى جانب ذلك، سخّر جهوده لوضع كتاب "**تونس الشهيدة**" الذي صدر باللغة الفرنسية في مطلع سنة 1920، فأحرز منذ ظهوره نجاحا باهرا، وزاد في حماس الوطنيّين التونسيّين الذي تبنّوا ما ورد فيه من مطالب وبالخصوص:

- إنشاء مجلس تشريعي تكون الحكومة مسؤولة لديه.
- إنشاء مجالس محلية وبلديّة مُنتخَبَة.
- إقامة سلطة قضائية مستقلّة عن السلطة التنفيذية.
- نشر التعليم وتعميمه.
- ضمان الحريات العامة لكافة المتساكنين.

وفي شهر فيفري 1920 وجّه الثعالبي خطابا إلى رفقائه في تونس، أعلمهم فيه بأنه ليس في الإمكان في الظروف الراهنة المطالبة بإلغاء الحماية، وحثّهم على إنشاء حزب سياسي للمطالبة بدستور.

- تأسيس الحزب الدستوري

استجابةً لدعوة الشيخ الثعالبي عقد الوطنيّون عدّة اجتماعات، وبالخصوص الاجتماع المنعقد بتونس يوم 14 مارس 1920 والاجتماع المنعقد بالمرسى يوم 3 جوان 1920، وقد اتفقوا على القرارات التالية:

1- إعلان تأسيس «الحزب الحرّ الدستوري التونسي»

2- توجيه وفد دستوري إلى باريس برئاسة الأستاذ أحمد الصافي لتقديم المطالب الوطنية إلى الحكومة الفرنسية (وقد تحوّل هذا الوفد إلى العاصمة الفرنسية يوم 6 جوان 1920)

3- تشكيل وفد يضم 40 شخصية تونسية برئاسة الشيخ الصادق النيفر المدرس بجامع الزيتونة لمقابلة الناصر باي يوم ثاني عيد الفطر (18 جوان 1920) بقصره بالمرسى وإبلاغه العرائض المتضمّنة لمطالب الحزب. (وقد تمّت المقابلة في الوقت المحدّد).

4- الموافقة على المطالب الثمانية التي ستقدم إلى الباي وإلى الحكومة الفرنسية.

وقد تمثّل ردّ فعل الحكومة الفرنسية في إلقاء القبض على الشيخ عبد العزيز الثعالبي في باريس ونقله يوم 28 جويلية 1920 إلى تونس حيث اعتقِل في السجن العسكري بتهمة التآمر على أمن الدولة، ولم يفرج عنه إلاّ يوم أول ماي 1921، بعد أن ختم قاضي التحقيق البحث الجاري حول قضيّته بعدم سماع الدعوى.

- نشاط الحزب الدستوري

لقد قام رجال الحزب الحر الدستوري التونسي بنشاط مكثّف لتركيز هياكل الحزب، والتعريف بمطالبه، والدعوة لفائدته، سواء عن طريق الخطب والمحاضرات أو بواسطة الفصول المنشورة في الصحف، وقد حظيت الحركة الدستورية من أوّل وهلة بتأييد كافة الفئات الاجتماعية ومساندة الأمير محمّد الناصر باي وأفراد عائلته وحاشيته وفي مقدّمتهم ابنه الأكبر محمّد المنصف باي.

ولكن لم تمض مدّة طويلة حتى ظهرت خلافات بين الشقّ الملتفّ حول الثعالبي والمتمسّك بالمطالب الواردة في كتاب «تونس الشهيدة» والشقّ المعتدل الذي يتزعّمه حسن قلاتي ويدعو إلى قبول الإصلاحات الهزيلة التي أعلنها المقيم العام لوسيان سان.

وانتهى الأمر بانفصال الشقّ المعتدل عن الحزب الدستوري في آخر سنة 1921، وبتكوين «الحزب الإصلاحي» الذي لم يستطع استقطاب الجماهير الشعبية، وسرعان ما أصبح اسما بلا مُسمّى، إلى أن اخلّ من تلقاء نفسه في سنة 1928.

- أزمـــة أفريـــل 1922 وركـــود الحركـــة الوطنيـــة

وقد تعزّز جانب الحزب الدستوري بتأييد الناصر باي الذي لم يـتردّد في إعلام المقيم العام بتبنّيه للمطـالب الوطنيـة، مهـدّدًا بالتنـازل عـن العـرش إذا لم تستجب الحكومة لتلك المطالب. فتدخّل لوسيان سان بكلّ ثقله لإرغام البـاي على التراجع عن قـراره، مستعملا الـترغيب والـترهيب، وذلـك إثـر المظـاهرة الشعبية العظيمة التي نظمها الحزب بالمرسى يوم 5 أفريل 1922.

وبعد ذلك بقليل توفي الباي يوم 10 جويلية 1922 وخلفه الحبيـب بـاي الذي بادر إلى الإعراب عن ولائه للحكومة الفرنسيّة. فاغتنم المقيم العـام هـذه الفرصة لإصدار مجموعة من الأوامر القمعية والمناهضة للحركـة الوطنيـة، منهـا الأمر المؤرخ في 20 ديسمبر 1923 والقـاضي بمنـح الجنسيّة الفرنسـية لـلراغبين فيها من المواطنين التونسيين. وقد اضطر الشيخ عبد العزيز الثعالبي زعيم الحزب الدستوري إلى مغـادرة البـلاد التونسـية منـذ يـوم 26 جويليـة 1923. فركـدت الحركـة الوطنيـة و لم يصمـد أمـام سياسـة القمـع إلاّ عـدد قليـل مـن الوطنيّـين الأحرار.

- حركـــة مَحمّـــد علـــي الحـــامّي (1924 - 1925)

لقد نشطت الحياة السياسية من جديد في سنة 1924 إثر رجوع المنـاضل محمّد علي الحامّي من الخارج وسعيه إلى بثّ روح الحمـاس في الطبقـة الشـغيلة وحثّها على النضال من أجل الدفاع عن حقوقها المهضومة. وقد تمكّن من حمل الشغالين التونسيين على الانفصـال عـن المنظمـة النقابيـة الفرنسية س.ج.ت، وإنشـاء منظمـة نقابيـة وطنيـة تحمـل اسـم «جامعـة عمـوم العملـة التونسـية» فاغتنمت السـلطة الاستعمارية الإضرابـات الـتي نظّمتهـا هـذه الجامعـة لإلقـاء القبض على قادتهـا وفي مقدّمتهـم الزعيـم النقـابي محمّـد علـي، وإحالتـه علـى المحكمة الفرنسية التي حكمت عليه بالنفي بتهمة «المسّ بأمن الدولة والتبـاغض بين الأجناس».

فخلا الجوّ للمقيم العام لتطبيـق سياسـته القمعيّـة وإصـدار مجموعـة مـن الأوامر في سنة 1926 لتشديد الخناق على الصحافة الوطنية ومنع الاجتماعـات العامـة والتظـاهر في الشـوارع، فاسـتتبّ «الأمـن الفرنسـي»، وأصبـح الحـزب الدستوري في حاجة إلى مراجعة طُرُق عملـه، في انتظـار ظهـور زعمـاء شـبّان قادرين على بعث الحركة الوطنية من جديد.

3- انتعاش الحركة الوطنية في الثلاثينات (1930 - 1939)

- انتشار الوعي الوطني من جديد (1930 - 1933)

بعد الركود الذي شهدته الحركة الوطنية في آخر العشرينات، بدأ الوعي الوطني ينتشر، بتأثير عدة عوامل منها: ظهور آثار الأزمة الاقتصادية العالمية في تونس منذ مطلع الثلاثينات واستفزازات السلطة الفرنسيّة التي أقدمت على تنظيم المؤتمر الإفخارستي المسيحي بتونس في شهر ماي 1930، للمسّ بكرامة التونسيّين المسلمين، وقرّرت تنظيم احتفالات عظيمة في سنة 1931 للاحتفال بخمسينيّة الحماية. فقام عدد من المثقفين التونسيّين الشبان بحملة في جريدة «صوت التونسي» الناطقة بالفرنسيّة، للتشهير بالاستعمار وفضح مخطّطاته الأثيمة. واستجابةً لطلب المقيم العام، دعا صاحب الجريدة الشاذلي خير الله المحرّرين إلى التخفيف من لهجتهم. فانفصل عدد من الوطنيّين الأحرار وبادروا إلى إصدار جريدة وطنيّة جديدة ناطقة بالفرنسية منذ أول نوفمبر 1932 بعنوان «لاكسيون تونيزيان» (العمل التونسي)، بإدارة المحامي الشابّ الحبيب بورقيبة.

وقد تجلّى تأثير جماعة «العمل التونسي» بالخصوص في قضيّة التجنيس التي أصبحت في صدارة القضايا الوطنية منذ مطلع الثلاثينات. إذ شنّت الجريدة حملة شعواء على قانون التجنيس، لما يمثله من خطر يهدّد الهويّة التونسية العربية الإسلامية، ودعت إلى منع دفن المتجنّسين بالجنسية الفرنسية في المقابر الإسلامية، فكثرت المصادمات بين الجماهير الشعبية وقوّات الأمن في عدد من المدن مثل تونس وبنزرت والمنستير، بمناسبة وفاة بعض المتجنّسين، واضطرّت السلطة الفرنسية في آخر الأمر إلى تخصيص أماكن لدفن المتجنّسين خارج مقابر المسلمين، فكان ذلك أكبر انتصار تحرزه الحركة الوطنية منذ انبعاثها.

- انبعاث الحزب الدستوري الجديد (2 مارس 1934)

لما رأت اللجنة التنفيذية للحزب الدستوري ما أحرزه هؤلاء الشبّان من نجاح، عقدت مؤتمرا وطنيا عامّا في تونس يومي 12 و13 ماي 1933. وبعد المناقشة قرّر المؤتمر في نهاية أشغاله ضمّ أعضاء هيئة تحرير «العمل التونسي» إلى اللجنة التنفيذية، وهم: الدكتور محمود الماطري والحبيب بورقيبة والطاهر صفر ومَحمّد بورقيبة والبحري قيقة.

لكن الوئام لم يدم طويلا بين الشبّان والشيوخ، إذ سرعان ما احتدّ الخلاف حول طُرُق العمل، إلى أن أفضى إلى انفصال جماعة «العمل التونسي» عن اللجنة التنفيذيّة وانعقاد مؤتمر خارق للعادة يوم 2 مارس 1934 بمدينة قصر هلال، لم يحضره أعضاء اللجنة التنفيذيّة، وانتهى المؤتمر بالموافقة على قرار يقضي بفصل أعضاء اللجنة التنفيذية عن الحزب، وانتخاب هيئة جديدة تُسمّى «الديوان السياسي» وتتركّب من: الدكتور محمود الماطري (رئيس) والحبيب بورقيبة (كاتب عام) والطاهر صفر (كاتب عام مساعد) ومحَمّد بورقيبة (أمين مال) والبحري قيقة (أمين مال مساعد).

المواجهة بين الحزب الدستوري الجديد والسلطة الفرنسيّة

أدرك المقيم العام الجديد بيروطون (1933 - 1936) من أوّل وهلة ما يمثله الحزب الدستوري الجديد من خطورة على الحضور الفرنسي في تونس. فأمر بإلقاء القبض على قادته يوم 3 سبتمبر 1934 واعتقالهم في أقصى الجنوب التونسي.

وما كاد خبر هذا الاعتقال ينتشر حتى عمّت الاضطرابات كامل البلاد وتواصلت سنتين متواليتين، إلى أن اضطرّت الحكومة الفرنسية إلى إقالة الطاغية بيروطون في شهر مارس 1936، وتعويضه بمقيم عام معروف بأفكاره التحرّرية: أرمان غيّون. وفي الأثناء أسفرت الانتخابات في فرنسا عن فوز الأحزاب اليساريّة المنضوية تحت لواء «جبهة شعبية». فقرّرت الحكومة الفرنسية الجديدة برئاسة الزعيم الاشتراكي ليون بلوم تغيير سياستها في تونس والإفراج عن القادة الدستوريّين. ثم شرعت في إجراء مفاوضات مع الكاتب العام للحزب الدستوري الجديد، الحبيب بورقيبة. إلاّ أن حكومة الجبهة الشعبية قد تعرّضت لضغوط الاستعماريّين في باريس وتونس، فلم تتمكّن من اتّخاذ أيّ إجراء لتلبية المطالب الوطنية التونسيّة. وعندئذ عقد الحزب الدستوري الجديد مؤتمره الوطني الثاني بتونس في آخر أكتوبر 1937 وقرّر سحب الثقة من الحكومة الفرنسية والاستعداد للكفاح.

وبعد بضعة أشهر من التوتّر نظّم الحزب الدستوري الجديد يوم 8 أفريل 1938 مظاهرات عظيمة في كامل البلاد التونسية ولاسيما في تونس العاصمة للمطالبة بالإفراج عن الموقوفين الدستوريّين وبحكومة وطنية وبرلمان تونس. ومن الغد 9 أفريل 1938 جرت حوادث دامية بمدينة تونس، إثر إيقاف زعيم

الشباب علي البلهوان، وأسفرت عن عدد كبير من القتلى والجرحى في صفوف المتظاهرين التونسيين. وفي فجر يوم 10 أفريل 1938 ألقت السلطة الاستعمارية القبض على قادة الحزب وفي مقدمتهم الزعيم الحبيب بورقيبة، وأعلنت الأحكام العرفية وملأت السجون والمحتشدات بالمناضلين، وانتشر الجيش الفرنسي في البلاد يعيث فيها فسادا.

ورغم ذلك فقد تواصلت المقاومة السريّة بقيادة الدكتور الحبيب ثامر، واتخذت أشكالا متنوّعة، من توزيع المناشير، إلى تنظيم المظاهرات في الشوارع، إلى القيام بأعمال التخريب، ودامت هذه الحالة حتى بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية في سبتمبر 1939، وانهزام فرنسا في جوان 1940.

الحركة الوطنية أثناء الحرب العالمية الثانية (1939 - 1945)

لقد انتعشت الحركة الوطنية إثر اعتلاء المغفور له محمّد المنصف باي المعروف بمواقفه الوطنية، العرش الحسيني يوم 19 جوان 1942، إثر وفاة سلفه أحمد باي. فما إن تسلّم مقاليد الحكم حتى بادر بتوجيه رسالة إلى المارشال بيتان رئيس الدولة الفرنسية للمطالبة بإدخال إصلاحات سياسيّة جوهريّة على نظام الحكم في تونس، منها إنشاء مجلس تشريعي تونسي وتكوين حكومة تونسية مسؤولة لديه.

وفي الأثناء نزلت جيوش المحور في تونس يوم 9 نوفمبر 1942 وسرعان ما أصبحت البلاد مسرحا للعمليّات الحربيّة بين المحور والحلفاء. وأعلن المنصف باي من أوّل وهلة حياد بلاده وامتنع عن الموافقة على التدابير الموالية للمحور، التي اقترحها عليه المقيم العام الأميرال أستيفا، المُنفِّذ لأوامر حكومة فيشي. إذْ كان همّ العاهل التونسي أوّلا وبالذات الدفاع عن السيادة التونسيّة والسهر على صيانة مُقوّماتها. فقد تدخّل لدى السلطة الفرنسية للإفراج عن المساجين السياسيين يوم أول ديسمبر 1942. وفي أوّل جانفي 1943 شكّل وزارة تونسية جديدة برئاسة محمّد شنيق ومشاركة بعض الوطنيين التونسيّين، دون استشارة المقيم العام.

وبفضل هذه الإجراءات، استأنف الحزب الدستوري الجديد نشاطه بقيادة الدكتور الحبيب ثامر. فأعاد تنظيم هياكله وأصدر جريدة يوميّة ناطقة باسمه «إفريقيا الفتاة»، وأنشأ جمعيات الإسعاف ولجان الهلال الأحمر التونسي

لمساعدة المنكوبين. وتطوّعت الشبيبة الدستوريّة لمساعدة السلطة التونسية على حفظ الأمن وتنظيم التموين ومقاومة الاحتكار.

وفي 8 أفريل 1943 عاد الزعيم الحبيب بورقيبة من المنفى إلى أرض الوطن مرفوع الرأس، موفور الكرامة. لكن لم يمض على رجوعه شهر واحد حتى انهزمت قوّات المحور في البلاد التونسية ودخلت قوّات الحلفاء إلى العاصمة يوم 7 ماي 1943. فكان أوّل ما قامت به السلطة الفرنسيّة خلع ملك البلاد الشرعي محمّد المنصف باي يوم 14 ماي 1943 بدعوى تعاونه مع المحور، وإبعاده إلى الصحراء الجزائرية وتعويضه بوليّ عهده محمّد الأمين. كما حاولت القضاء على الحركة الوطنية. لكن بفضل تدخّل القنصل الأمريكي وضعت حكومة الحماية حدّا للتتبعات المُوَجَّهة ضد الزعيم الحبيب بورقيبة الذي كان قد دعا الشعب التونسي - وهو ما زال في السجن - إلى عدم التعاون مع المحور والوقوف إلى جانب الحلفاء.

وبعدما استأنف الحزب الدستوري نشاطه، انعقد مؤتمر عامّ في شهر فيفري 1945 شارك فيه ممثّلون عن الحزب الدستوري الجديد والحركة المنصفية وعلماء جامع الزيتونة وبعض الوطنيين المستقلّين وتمّ الاتفاق على المطالبة بالحكم الذاتي وإرجاع المنصف باي إلى العرش.

لكنّ السلطة الفرنسيّة لم تغيّر موقفها من القضية التونسية، بل شدّدت الخناق على الصحافة الوطنية واستمرت في انتهاج سياسة القمع والاضطهاد تجاه المناضلين الدستوريّين وفي الأثناء تأسّست الجامعة العربية بالقاهرة في 22 مارس 1945، فقرّر الحزب الدستوري الجديد إيفاد زعيمه الحبيب بورقيبة إلى مصر لإبلاغ مطالب الشعب التونسي إلى قادة الدول العربية والتعريف بالقضية التونسية. وقد وصل إلى القاهرة يوم 16 أفريل 1945، وخلفه على رأس الحزب الدستوري الجديد الزعيم صالح بن يوسف.

الفصل الحادي والعشرون
الحركة الاستقلالية في تونس والكفاح التحريري

1- استئناف الكفاح الوطني (1946 - 1950)

واصل الحزب الدستوري الجديد نضاله بعد هجرة رئيسه إلى مصر. فبادر إلى تنظيم هياكله وتكثيف نشاطه، وشجّع على بعث منظمات مهنيّة وطنيّة تربط ربطا وثيقا بين المطالب الاجتماعية والمطالب السياسية. و هكذا تأسّس الاتحاد العام التونسي للشغل في 20 جانفي 1946، بقيادة الشهيد فرحات حشاد، والاتحاد التونسي للصناعة والتجارة والاتحاد العام للفلاحة التونسيّة. كما اتحد الحزب الدستوري الجديد ضمن جبهة وطنيّة مع الحزب الدستوري القديم والمنظمات النقابية والمهنية والحركة المنصفيّة ومدرّسي جامع الزيتونة وأعضاء المجلس الكبير.

وفي 23 أوت 1946 (26 رمضان 1365 - ليلة القدر) عقد ممثّلو الجبهة الوطنيّة مؤتمرا عامّا بالعاصمة وصادقوا بالإجماع على ميثاق وطني، طالبوا فيه بالاستقلال التام وإرجاع المنصف باي إلى العرش. وقبل اختتام المؤتمر اقتحمت الشرطة محلّ الاجتماع وألقت القبض على 46 شخصًا من الحاضرين وزجّت بهم في السجن. فأعلن الشعب التونسي الإضراب العام في كامل البلاد وتضامنت جميع الفئات الاجتماعيّة مع المعتقلين، واضطرّت الحكومة إلى إطلاق سراح المساجين بعد ما قضوا شهرا في السجن المدني بتونس.

وفي سنة 1947 عمدت الحكومة الفرنسية إلى إجراء إصلاحات هزيلة وكلّفت بتطبيقها وزارة تونسيّة برئاسة عميد المحامين الجديد مصطفى الكعّاك، فرفض الشعب هذه الإصلاحات باعتبارها لا تستجيب لا من قريب ولا من بعيد لقرارات مؤتمر ليلة القدر.

أمّا المنصف باي، ملك البلاد الشرعي، فقد نُقِل في سنة 1945 من الجزائر إلى مدينة بُو في جنوب فرنسا حيث أدركته المنيّة يوم أوّل سبتمبر 1948. فنُقِل جثمانه الطاهر إلى تونس يوم 5 سبتمبر ونظّم له الحزب الدستوري والمنظمّات القوميّة جنازة وطنيّة لم يسبق لها مثيل، ودُفِن في تربته بمقبرة الزلاّج، مع أبناء شعبه.

2- المفاوضات التونسيّة الفرنسيّة الأولى (1950 - 1952)

رجع الزعيم الحبيب بورقيبة من المشرق في سبتمبر 1949 وطالب بإجراء مفاوضات مع الحكومة الفرنسية لتمكين الشعب التونسي من ممارسة حقّه في الاستقلال. وإثر الاتّصالات التي جرت لهذا الغرض بين الحكومة الفرنسية والأمين باي، تمّ يوم 17 أوت 1950 تأليف وزارة جديدة برئاسة السيد محمّد شنيق وبمشاركة الأستاذ صالح بن يوسف، الكاتب العام للحزب الدستوري الجديد، مكلّفة بالتفاوض مع فرنسا حول «التعديلات الأساسيّة التي من شأنها أن تقود البلاد في مراحل متتابعة نحو الاستقلال الداخلي».

لكن الإصلاحات الزهيدة التي أُعلِنت يوم 8 فيفري 1951، إثر مفاوضات جرت بتونس قد خيّبت آمال الوطنيين.

وفي أواخر أكتوبر 1951، استؤنفت المفاوضات التونسيّة الفرنسيّة في باريس، وقد طالب الوفد التفاوضي التونسي برئاسة الوزير الأكبر محمّد شنيق منح البلاد التونسية الاستقلال الداخلي حالاً. فأجاب وزير الخارجية الفرنسيّة روبار شومان بمذكّرة مؤرّخة في 15 ديسمبر 1951، أكّد فيها بالخصوص أن العلاقات بين تونس وفرنسا ينبغي أن ترتكز على مبدإ «السيادة المزدوجة»، وألحّ على ضرورة تمثيل الجالية الفرنسيّة في الهيئات النيابيّة التونسيّة. واستخلص الزعيم الحبيب بورقيبة من تلك المذكرة عدم جدوى الحوار المباشر بين تونس وفرنسا قائلاً بالخصوص: «إن جواب السيد شومان سيفتح عهدا من القمع والمقاومة، مع ما يتبع ذلك حتمًا من دموع وأحزان وأحقاد».

3- المعركة الحاسمة (1952 - 1954)

اندلعت المعركة الحاسمة يوم 18 جانفي 1952 إثر الشكوى التي قدّمتها الحكومة التونسيّة إلى منظمة الأمم المتحدّة ضدّ الحكومة الفرنسيّة. وقد قرّر المقيم العام الجديد دي هوتكلوك منع مؤتمر الحزب الدستوري الجديد الذي كان مقرّرا عقده في ذلك اليوم، كما أمر في نفس اليوم بإلقاء القبض على الزعيم الحبيب بورقيبة وإبعاده إلى مدينة طبرقة صحبة الزعيم المنجي سليم مدير الحزب. وتمّ أيضا اعتقال عدد كبير من المناضلين الدستوريين، وبعض الشيوعيين، وكان ذلك إيذانا باندلاع المعركة.

فما إن انتشر خبر إيقاف بورقيبة حتى أعلن الاتحاد العام التونسي للشغل الإضراب العام، فأغلقت الدكاكين أبوابها وانتظمت المظاهرات الشعبية في العاصمة وفي كامل البلاد. وقد تصدّت لها الشرطة المعزّزة بالجيش، لتشتيت

المتظاهرين، فأسفرت المواجهة عن عـدد كبير مـن القتلى والجرحى مـن بين المتظاهرين، ولقي بعض رجال الشرطة والجيش مصرعهم.

ورغم قرار المنع، فقد عقد الحزب بصورة سريّة في العاصمة يوم 18 جانفي 1952 مؤتمره الوطني برئاسة الزعيم الهادي شاكر ووافق المؤتمر بالإجماع على لائحة تطالب بإلغاء معاهدة الحماية والاعتراف باستقلال تونس التام.

وتواصلت المقاومة في الأيّام الموالية واتخذت أشكالا متنوّعة حسب تطوّر الظروف في الداخل والخارج. فاتّخذت في أوّل الأمر شكل مظاهرات وإضرابات ومصادمات مع رجال الأمن، ثم شكل عمليات تخريب واغتيال. وتحوّلت فيما بعد إلى حرب عصابات ومقاومة مسلّحة في الجبال والأرياف، فكان ردّ السلطة الاستعماريّة متمثلا في تنظيم حركة إرهاب مضاد بواسطة منظمة إرهابيّة شبه رسميّة تدعى «اليد الحمراء»، وقد عمدت هذه المنظمة إلى اغتيال عدد كبير من القادة والمناضلين الوطنيين في مقدّمتهم الزعيم النقابي فرحات حشاد الذي استشهد يوم 5 ديسمبر 1952، وعضو الديوان السياسي الهادي شاكر الذي اغتالته اليد الحمراء يوم 13 سبتمبر 1953. ومن ناحية أخرى أقدم المقيم العام على إقالة وزارة محمّد شنيق يوم 26 مارس 1952، رغم إرادة الباي، وعوّضها بوزارة صوريّة برئاسة العميل صلاح الدين البكوش. كما أمر بإبعاد الزعيم الحبيب بورقيبة في نفس اليوم إلى رمادة في أقصى الجنوب التونسي، ثم إلى جزيرة جالطة حيث بقي في عزلة تامّة أكثر من سنتَيْن.

واضطرّت الحكومة الفرنسيّة في آخر الأمر إلى إعفاء الطاغية دي هتكلوك من مهامّه في 23 فيفري 1953، وتعيين بيار فوازار على رأس الإقامة العامّة. فانتهج المقيم العام الجديد سياسة المهادنة والمراوغة، وتمكّن من استمالة الباي وإقناعه بتأليف وزارة جديدة برئاسة محمّد صالح مزالي (2 مارس 1954). وكان أوّل عمل قامت به هذه الوزارة إجراء إصلاحات وهميّة، قابلها الرأي العام بالرفض، رغم تزكية الباي لها، ولم تضع حدّا للمقاومة المسلّحة التي تواصلت في المدن والقرى والجبال. ولم يستطع الجيش الفرنسي الذي مُنِي بهزيمة نكراء في ديان بيافو بالهند الصينية (ماي 1954)، التغلّب على المجاهدين الذين كانوا يكبّدونه من حين لآخر خسائر فادحة، بل أصبح يخشى انتشار الثورة المسلّحة وامتدادها إلى الجزائر.

وفي هذا الظرف بالذات تقلّد منصب الوزير الأوّل بفرنسا في 18 جوان 1954 الرئيس بيار منداس فرانس المعروف بأفكاره التحرريّة. فما إن فضّ

مشكّل الهند الصينية حتى تحوّل إلى تونس يوم 31 جويلية 1954، وألقى بين يدي الأمين باي في قصر قرطاج خطابه الشهير الذي أعلن فيه رسميّا اعتراف الجمهوريّة الفرنسيّة «باستقلال الدولة التونسيّة، الداخلي».

4- من الاستقلال الداخلي إلى الاستقلال التام (1955 - 1956)

وإثر هذا الخطاب تألّفت وزارة جديدة برئاسة السيد الطاهر بن عمار وبمشاركة أربعة أعضاء من الحزب الدستوري الجديد (المنجي سليم - محمّد المصمودي - الهادي نويرة - الصادق المقدّم). وبعد مفاوضات طويلة وشاقّة تمّ التوقيع يوم 3 جوان 1955 على اتّفاقيات الاستقلال الداخلي.

ويوم غرّة جوان 1955 رجع الزعيم الحبيب بورقيبة إلى أرض الوطن، فخصّه الشعب باستقبال منقطع النظير. ولكن لم تمض سوى ثلاثة أشهر على ذلك اليوم المشهود، حتى ظهرت بوادر الانشقاق في صفوف الحزب الدستوري الجديد. ففي شهر سبتمبر 1955 عاد إلى تونس الزعيم صالح بن يوسف، الكاتب العام للحزب، وبادر بالتعبير عن معارضته للاتفاقيات التونسيّة الفرنسيّة التي اعتبرها «خطوة إلى الوراء»، داعيًا الشعب إلى استئناف الكفاح.

ورغم مصادقة المؤتمر الوطني المنعقد بصفاقس في 15 نوفمبر 1955 على السياسة الواقعية التي انتهجها الديوان السياسي، فقد انضمّ عدد كبير من مناضلي الحزب الدستوري الجديد إلى صالح بن يوسف الذي فُصِل من الديوان السياسي وعُوِّض بالسيد الباهي الأدغم بصفة كاتب عام للحزب. ونشبت منذ ذلك الحين معارك حامية الوطيس بين أنصار بورقيبة وأنصار صالح بن يوسف، كادت تتحوّل إلى حرب أهلية. فاغتنم رئيس الحزب فوز الأحزاب اليساريّة في الانتخابات التي جرت في فرنسا في جانفي 1956، للمطالبة بإجراء مفاوضات جديدة مع الحكومة الفرنسيّة لمراجعة بنود الاتفاقيات التونسيّة الفرنسيّة التي تعارض حقّ تونس في الاستقلال التام.

وعلى هذا الأساس جرت مفاوضات في باريس بين ممثلي الحكومتين التونسيّة والفرنسيّة في أواخر شهر فيفري 1956 وأفضت بسرعة إلى التوقيع على بروتوكول 20 مارس 1956 الذي نصّ بصريح العبارة على إلغاء معاهدة الحماية المبرمة في 12 ماي 1881 وإعلان استقلال البلاد التونسية استقلالاً تامّا.

ملحق

العلاّمة حسن حسني عبد الوهّاب

[1884 - 1968]

سيرته الذاتيّة وآثاره العلميّة(*)

الاسم : حسن حسني عبد الوهّاب - وهو اللقب العائلي - نسبة إلى جدّي عبد الوهاب بن يوسف التجيبي الذي كان يدير الحرس الأهلي للبلاد، وهم "الحوانب"، ويرأس التشريفات في مدّة البايات الحسينيّين من عهد باي محمود بن محمد الرشيد بن حسين بن علي [1814 - 1824] إلى أيام المشير أحمد باي الأوّل [1837 - 1855].

وتقلّب بعده ابنه والدي: صالح بن عبد الوهّاب، في عدّة وظائف. وكان في عصره من الأفراد التونسيين القلائل، إذ أنّه تعلّم بجامع الزيتونة، ودرس بعد ذلك اللغة الفرنسيّة بمكتب الرهبان الواقع بنهج جامع الزيتونة الآن (نهج الكنيسة سابقاً)، حتى أتقنها جيّداً، فأضافه الفريق حسين، وزير الخارجية إليه وصار الوالد يصاحبه كمترجم في السفارات المتنقّلة التي كانت ترسلها الدولة التونسيّة إلى أوروبا، كلّما حصل خلاف مع الممالك الإفرنجيّة (إيطاليا قبل الوحدة وفرنسا وأنجلترا وغيرها) في عصر كانت فيه رحلة التونسيّين إلى تلك البلاد قليلة جدّا، من 1869 إلى 1880. وكان الوالد المرحوم مُولَعا بفنّ التاريخ (والعرق دسّاس، كما في الحديث النبوي)، وله تأليف في أخبار مملكة المغرب الأقصى لم يطبع بعد.

وتقلّب الوالد بعد الحماية [1881] في جملة وظائف منها عامل الأعراض (قابس) والمهدية. وتوفّي في آخر سنة 1904.

أما ابنه حسن حسني، فإنه وُلِدَ آخر شعبان 1301 (21 جوان 1884) بنهج عبد الوهّاب رقم 25. ووالدته: حنيفة بنت علي بن مصطفى آغة قيصرلي، كان أبوها معينا أوّل للوزير خير الدين باشا [1873 - 1877].

وأوّل دراستي كانت في كتّاب نهج المُوَحّد -بين نهج الوادي ونهج بوخريص- حسب العادة المتّبعة حينئذ لصغار التونسيّين ثمّ تحوّلت إلى المدرسة

(*) هذه "السيرة" حرّرها المؤلف بنفسه كما يظهر ذلك من السطور الأولى وقد أثبتناها بخذافيرها في الكتاب تعميماً للفائدة (الناشر)

الابتدائية بالمهديّة، وتلقّيت هناك حفظ الربع الأخير من القرآن الكريم، كما ابتدأت تعلّم اللغة الفرنسيّة.

ولمّا انتقل الوالد من المهديّة إلى تونس دخلت أوّل مكتب فرنسي لائكي بالحاضرة بنهج السويد. ونلت الشهادة الابتدائية فالتحقت بالمدرسة الصادقيّة وزولت بها العربية والترجمة. ثم قصدت باريس وانتظمت في سلك تلاميذ "مدرسة العلوم السياسيّة" وتابعت التعلّم بها، ومن أساتذتها دي منتاي.

وفي الأثناء كنت أحضر محاضرات الحكيم شاركو في تحليل الأخلاق والنحائز والطبائع. وتوفي الوالد في آخر سنة 1904، فعدت إلى البيت في حضرة تونس، وانخرطت بعد ذلك في سلك موظفي إدارة الفلاحة والتجارة في قسم أملاك الدولة آخر سنة 1905.

وبعد خمس سنين عُيِّنْتُ رئيسا لإدارة غابة الزياتين سنة 1910. وفي أثناء الحرب الكبرى الأولى التحقت بإدارة المصالح الاقتصاديّة في سنة 1916 بصفة رئيس قسم وفارقتها لرئاسة خزينة المحفوظات (الأرشيف العام) في سنة 1920. وقد استفدت كثيراً من هذا العمل، حيث أُتيح لي الاطّلاع على مجرى أحداث التاريخ التونسي منذ الفتح التركي وبعده، ولا يخفى أنّ خزينة المكاتيب الدولية -كما كانت تسمّى- هي من محاسن مؤسّسات الوزير خير الدين حين مباشرته لشؤون الدولة التونسيّة. وأهمّ عمل قمت به هناك هو أنّي وضعت لها جهازا تامّا لفهرست محتوياتها في جذاذات محفوظة في صندوق خاصّ، وهو المعمول به الآن، ولم يكن ذلك موجوداً بها.

وفي سنة 1925 عُيِّنتُ عاملا (والياً) على المثاليث، ومقرّ الإدارة جبنيانة. وكانت تلك الناحية تابعة لولاية صفاقس، ولم يعتن بمصالحها منذ أحقاب توالت عليها، فسعيت جهدي في إقرار أهاليها بالأرض لتعميرها وبإيجاد عدّة مكاتب ابتدائيّة، وإحداث طرق مُعبَّدة،، وتزويد القرى بالماء الصالح للشراب، وتنوير مركز العمل ليلاً.

وفي آخر سنة 1928 نُقِلت والياً إلى المهديّة الفاطمية، فاجتهدت في نشر التعليم في القرى والمداشر، وكنت أُلقي كلّ أسبوع محاضرات في التاريخ الإسلامي وبخاصة في أحداث تلك الجهة في محلّ ناديها ونادي الشبيبة وأوقفت كتبا كثيرة على مكتبة المدينة الفاطميّة.

وفي سنة 1935 سُمِّيت والياً (عاملا) على الوطن القبلي (نابل وناحيتها)، فاهتممت بمصالحها العمومية بقدر الجهد. وأوقفت كذلك من الكتب العربية كثيراً على مركز الولاية وعلى القرى الكبيرة والصغيرة.

وفي سنة 1939 عدتُ للحضرة التونسيّة بصفة وكيل بالإدارة المحليّة والجهويّة، يعني شؤون الإدارة الداخليّة للبلاد. وفي أثناء مباشرتي لهذا المنصب أُحِلتُ على التقاعد لبلوغي السنّ القانونية، بعد أربعة وثلاثين عاما من العمل المنهك. لكن الإدارة المركزية أبت إلاّ أن تعيّنني رئيسا لجمعيّة الأوقاف[1]، فاجتهدت في الذبّ عن مصالحها ومنع أيدي الطمع من الامتداد إلى أملاك الأوقاف وأراضيها الخصبة.

وبمجرّد انتهاء الحرب الكبرى الثانية من البلاد التونسية انتُخِبتُ وزيراً للقلم والاستشارة، وهو وظيف يشمل الإشراف على إدارة الشؤون الداخلية للبلاد، والقيام بتحرير المهمّ من المكاتيب الدولية ومخاطبة ملوك الخارج، وذلك في 13 ماي سنة 1943. فشغلت هذا المنصب مع آخر البايات الحسينيّين، محمد الأمين [1943 - 1957].

وتخلّيت نهائيا عن هذا المنصب في شهر جويلية 1947، ومن ذلك الحين انقطعت عن الأشغال الإدارية، وأقبلت على العمل في تأليفي الكبير «كتاب العمر» وكذلك السفر إلى الخارج.

ولمّا نالت البلاد التونسيّة الاستقلال [1956]، وفارق الموظفون الفرنسيّون المصالح الإدارية، دُعيت من جانب الحكومة التونسية الجديدة لرئاسة ما سُمّي بالمعهد القومي للآثار والفنون سنة 1957، وباشرت هذه المهمّة إلى عام 1962[2]. فأقبلت على القيام بها بجدّ نادر مدّة خمس سنوات متوالية. وقد هيّأت بعض الشباب للمعاضدة حيث لم يبق من الموظفين الفرنسيين أحد؟ ويسّر اللّه في تلك الفينة أن نُقِلت مصلحة الآثار من محلّها القديم "ساباط سوق الفكّة" [بنهج جامع الزيتونة] إلى دار حسين التي كانت مقرّا لقائد الجيش الفرنسي ولأركان حربه بساحة القصر [قرب باب منارة]. وبعد ترميم الدار كما يجب، اتّخذت بقسمها الأعلى مكاتب الإدارة، وبقسمها الأسفل متحفا للفنون الإسلاميّة، ولم يكن لهذه الفنون أدنى حظّ بين الآثار التونسيّة.

ومن مِنَنِ اللّه أن أسّستُ مدّة رئاستي لمعهد الآثار خمسة متاحف، منها أربعة للأعلاق الإسلامية وهي: متحف علي بورقيبة في رباط المنستير، ومتحف

---

(1) وذلك سنة 1942. (م)

(2) منذ أن أنهت وزارة التربية القومية في تلك السنة مهامّ صاحب الترجمة على رأس المعهد القومي للآثار والفنون، لازم بيته وتفرّغ للمطالعة والبحث إلى أن وافته المنية يوم 9 نوفمبر 1968 بعد يومَيْن من حصوله على جائزة الدولة التقديرية للآداب والفنون. (م)

أسد بن الفرات في رباط سوسة، ومتحف إبراهيم بن الأغلب في القيروان، ومتحف دار حسين المتقدّم الذّكر. ثمّ أنشأتُ مستودعا للآثار الكلاسيكية في قرطاجنّة...

وفي تلك المدّة نشرت في مختلف الجرائد والمجلاّت فصولا كثيرة، وحرّضت الباحثين عن الآثار لإخراج ما كتبوه بالعربية والفرنسية، كما قدّمت لمصنّفاتهم ببعض تمهيدات تاريخيّة وفلسفيّة، وبمقدّمات مناسبة، وهي نحو العشرة مؤلّفات في شتّى الأغراض الأثريّة. فهذه خلاصة حياتي الإداريّة.

* * *

أمّا حياتي العلميّة:

فقد تمّ لي المشاركة في غالب مؤتمرات المستشرقين ابتداءً من عام 1905 بعاصمة الجزائر، وقدّمت فيه بحثا عن الاستيلاء العربي لصقليّة، وتعرّفت هناك بثلّة من العلماء المشاركين عرباً كانوا أو إفرنجا منهم: محمد فريد بك [نائب رئيس الحزب الوطني المصري مصطفى كامل]، والشيخ عبد العزيز شاويش المشهور، وهو تونسيّ الأصل، وصارا من حينئذ من أكبر الأصدقاء، وجورج براون الأنكليزي وكذا المستر بيفن وأمر دروز وفولارس ونولدكي الألماني، وكوديرا وريبيرا وميشال أسين بالاثيوس، وثلاثتهم من إسبانيا، ولويس ماسينيون ووليام مرسي وصديقي المرحوم محمد بن أبي الشنب وغيرهم كثير جدًا. وامتدّت علاقتي بجميعهم بعد ذلك.

وفي سنة 1908 شاركت في مؤتمر كبنهاكن عاصمة الدانمارك. ومن وجوه العلماء الذين تعرّفت بهم هناك أوّلا: جلالة الملك غستاف أدولف، والبارون ماكس أوبنهايم الألماني، وغولزيهر العالم النمساوي المشهور، والأب لامنس والأب لويس شيخو اليسوعيَّيْن. وقد قمت بمعارضتهما فيما قدّما من البحث، حيث وصفا النبيء العربي الكريم بما لا يليق به وافتريا عليه، والملاحظ أنّي كنت المسلم الوحيد في حضور هذا المؤتمر. ولهذا تجاسرا بإبداء الطعن على الإسلام جهاراً. وكان البحث الذي عزمت على تقديمه هناك باللغة الفرنسية: «مختلف العناصر التي يتكوّن منها الشعب التونسي»، وقد طُبع بعد ذلك بتونس سنة 1917، فعدلتُ عن إلقاء بحثي لمعارضتهما، وكان لمعارضتي للرّاهبَيْن المتقدّمَيْن رنّة كبيرة بين المؤتمرين، وتأييد من جانب عظيم منهم.

وفي عام 1922 شاركت في مؤتمر باريس للمستشرقين الفرنسيّين ثمّ في المؤتمر المنعقد في رباط الفتح بالمغرب سنة 1927، ثمّ في مؤتمر كمبريدج

بأنكلترا، وإسطنبول ومونيخ في ألمانيا. وفي جميعها كنتُ النائب عن الحكومة التونسيّة. ودُعيت لحضور الندوات العلمية التي دارت بالبندقيّة في معهد كونت شيني، وكذلك ملتقى فلورنسة في إيطاليا للتقارب بين المدنيات والأديان برئاسة الأمير الحسن المغربي الشرفية، وغير ذلك...

ونُبْتُ عن الحكومة التونسية في مؤتمر الموسيقى الشرقيّة المنعقد بالقاهرة في أفريل سنة 1932. وقد كنتُ تعرّفتُ قبل ذلك في سنة 1914 بالأمير أحمد فؤاد (نجل الخديوي إسماعيل) في نابولي بإيطاليا قبل أن يصير ملكا لمصر.

وفي نظري أنّ الملك فؤاد كان - بلا نزاع - من أجلّ ملوك المسلمين، ومن أقواهم عزيمة وحبًّا لجمع كلمة العروبة والرّغبة الصادقة في الدفاع عن الحضارة الإسلامية، مع الذكاء الوقّاد الذي خصّه اللّه به، والثقافة الواسعة. ولا يخفى أنّه من حين استقرّ أبوه إسماعيل باشا في إيطاليا - بعد التنازل عن الملك - انخرط الأمير أحمد فؤاد في المدارس الحربيّة هناك، ودرس بها إلى أن نال بكدّ يمينه رتبة أمير ألاي [عقيد] في الخيالة بلا محاباة ولا مراعاة لأصالته. وكان يحسن اللغة الإيطالية كأحد أبنائها، وكذلك اللّسان الفرنسي، مع نبرة إيطاليّة واضحة للسامع.

وقد سألني مرّة - تغمّده اللّه برحمته - ونحن نتغدّى على مائدته بقصر القبّة، بمحضر وزيره الأكبر محمد محمود، عن حالة المغرب، وتقسيماته، ونظامه الإداري. فأخذت في الوصف بما يناسب المقام، واشتغلت بالكلام عن الطعام. فالتفت إليّ وقال: - حمّلتك مشقّة الكلام كثيراً فلا تأكل إلاّ قليلاً.

فأجبته بقولي :

- يا أفندينا، موائد الملوك إنّما هي للشرف لا للعلف.

فانبسط منها كثيراً.

وسألني مرّة أخرى: كيف وجدت مصر ؟

فكان جوابي: يا أفندينا: سُئِلَ أبو العبّاس المقّري المغربي مصنّف كتاب "نفح الطيب" عمّا شاهده بمصر حين زارها فأجابه «من لم يزر مصر لا يعرف عزّ الإسلام». وأنا أقول بقوله ولا أحيد عنه.

ولا ننسى أنّ الملك فؤاد كانت له مواقف حاسمة للحصول على استقلال مصر، وكذا الدفاع عن العروبة جملة، وليس هنا محلّ بسطها وشرحها. رحمة اللّه عليه وجزاه الجزاء الأوفى، وفي المثل المطروق: «النار تترك الرماد».

وهو الذي عيّنني عضوا دائما في "مجمع اللغة العربيّة" لأوّل تأسيسه آخر سنة 1932، وأنا اليوم آخر من بقي من الأعضاء الأوّلين للمجمع. وكنّا في

البداية عشرين عضوا لا غير: عشرة من المصريّين وخمسة من الشرقيّين، وخمسة من المستشرقين. وقد شاركت بقدر الاستطاعة في الأبحاث والمناقشات الدائرة في المجمع منذ التأسيس ولاسيما عندما أُثيرت الدعوة إلى إبدال الحروف العربيّة بغيرها.

أمّا اللغات التي أحسنها فهي: أوّلا وبالذات العربية لغة أهلي وقومي، ثمّ الفرنسيّة، وقليل من الإيطاليّة وكذا من التركيّة.

وأمّا عنايتي بالثقافة وبثّ وسائلها داخل البلاد التونسيّة، فقد درّست التاريخ العام وخاصّة التاريخ التونسي في الخلدونية من سنة 1910 إلى سنة 1924 بعد المرحوم البشير صفر، وكذا في المدرسة العليا للغة والآداب العربية بسوق العطّارين من سنة 1913 إلى آخر سنة 1924.

ومنحتني جامعة العلوم بالقاهرة لقب الدكتوراه الفخريّة في سنة 1950، كما منحتني ذلك اللقب جامعة العلوم الجزائريّة، وقد دُعيتُ للحضور بنفسي سنة 1960، فلم أُجبْ حيث كانت حرب التحرير قائمة على ساق حينئذ. وسُمِّيتُ عضوا مشاركا في المجمع الفرنسي للنقائش والفنون الجميلة منذ سنة 1939، وكذلك في المعهد المصري، وعضوا مراسلا للمعهد التاريخي الإسباني منذ أربعين عاما، وعضوا في كلّ من المجمع العلمي العربي بدمشق منذ تأسيسه، وكذلك في المجمع العلمي العراقي في بغداد.

أمّا أسفاري :

فإلى جميع القارّة الأوروبيّة بما في ذلك روسيا، حيث دُعيتُ من مجمعها العلمي، فزرت علاوة على موسكو، جمهورية أزبكستان (تاشقند وهي بلاد الشاش قديمًا) وسمرقند، حيث ضريح الصحابي الفاتح قثم بن العبّاس بن عبد المطلب ابن عمّ الرسول، وبخارى حيث ضريح الإمام محمّد بن إسماعيل البخاري.

وفيما عدا ذلك تجوّلت في ممالك الشرق الأدنى، وفي سائر أقطار أوروبا جنوباً وشمالاً وشرقاً وغرباً. كما طُفْتُ في جميع أقطار شمال إفريقيا من المحيط الأطلنطي إلى السويس.

وحججت ثلاث حجّات، أولاها في سنة 1935. وتعرّفت مليّا بالملك المرحوم عبد العزيز آل سعود، وقد أنابتني في المرّة الثانية الدولة التونسية لتقديم رسالة من الباي أحمد الثاني [1929 - 1942] مع أوسمة مرصّعة بالحجارة الكريمة، وهدايا أهليّة معتبرة. فقبلني [العاهل السعودي] بحفاوة زائدة؛ وأقمت ضيفا على حكومة المملكة العربية السعوديّة. واستفدت من محادثات الملك

بكثير من أخباره وقيامه بالدعوة لأسرته وفتوحه وتوحيده للمملكة العربيّة الشماليّة.

[وكانت حجّتي الأخيرة في خلال سنة 1944 وأنا وزير للقلم والاستشارة في عهد آخر الملوك الحسينيّين محمد الأمين باي].

وفي إحدى تلك الحجّات، تعرّفت بالمستعرب الأنكليزي المسلماني عبد اللّه فيلبي، ولا أنسى أنه كان أفادني كثيراً عن جولته في الربع الخالي والأحقاف من الجزيرة العربية، تلك الجولة التي قطع معظمها في سيّارة على الجمال. وقد أدرج فيها كتابا مفيدا جدّا، وهو عمدة الباحثين عن خفايا الجزيرة وجهاتها المجهولة.

وإني لأعتذر كثيرا، إذ أني أطلت في ذكر حياتي وملابساتها، وما هي بأحسن من غيرها:

ولكنّ البلاد إذا اقشعرّت وصوّح نبتها رُعِيي الهشيم

ويعلم اللّه كم يخجلني أن أكون مثل بعض الأحباب، وهو الآن من الأموات [المرحوم حمّودة بوسنّ]، كان يكتب على بطاقة زيارته أسماء كلّ الجمعيات التي كان مشتركا فيها، ويرسم بآخر البطاقة: انظر محوله، لأنّ وجه الورقة غير كافٍ لاحتواء أسماء جميع الجمعيات والمؤسّسات التي هو عضو فيها.

ولو أردت إحصاء أحبابي في الشرق والغرب للزمني دفتر خاص ذو صفحات عديدة. وفيما ذكرت كفاية، بل ربّما كان من التطويل المُمِلّ.

وما أُنزِّهُ نفسي، فإنّ النفس أمّارة بالسوء. وإليه سبحانه أضرع أن يتغمّدني برحمة منه، وأن يستر عيوبي، ما ظهر منها وما بطن، بفضله تعالى وكرمه.

مؤلّفات حسن حسني عبد الوهّاب باللغة العربيّة:

- بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق، تونس، 1912[1].
- خلاصة تاريخ تونس، طبعة أولى، 1918، وثانية 1930 وثالثة 1953[2].
- المنتخب المدرسي من الأدب التونسي، طبعة أولى بتونس، 1908، وطبعة ثانية بالقاهرة، 1944[3].

---

(1) صدرت طبعة ثانية بإشراف محمد العروسي المطوي، تونس، 1970. (م)

(2) صدرت طبعة رابعة من الخلاصة بتونس سنة 1968. (م)

(3) صدرت طبعة ثالثة منقحة ومزيدة، بعنوان "مجمل تاريخ الأدب التونسي"، تونس، 1968. (م)

- الإرشاد إلى قواعد الاقتصاد، تونس، 1919.
- شهيرات التونسيات، طبعة أولى، 1934، وثانية 1966.
- الإمام المازري، تونس، 1955.
- ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية: ج 1، تونس 1965، ج 2 تونس، 1966[1].

نشريّات مُحقّقة :

- رسائل الانتقاد، لمحمد بن شرف القيرواني، دمشق، 1912.
- أعمال الأعلام (قسم إفريقية وصقلية) لابن الخطيب، بلرمو، 1910.
- وصف إفريقية والأندلس، لابن فضل الله العمري، تونس، 1920.
- كتاب يفعول، بحث لغوي للصاغاني، تونس، 1924.
- التبصّر بالتجارة للجاحظ، دمشق، 1923، والقاهرة 1925، وبيروت 1966.
- الجمانة في إزالة الرطانة، لمجهول، القاهرة، 1953.
- آداب المعلمين، لمحمد بن سحنون، تونس، 1934[2].
- رحلة التجاني، تونس، 1958.

مصنّفات وأبحاث باللّغة الفرنسيّة :

- الاستيلاء الإسلامي على صقليّة، تونس، 1905.
- امتزاج العناصر التي يتألّف منها الشعب التونسي، تونس، 1917.
- تقدّم الموسيقى العربية بالمشرق والمغرب والأندلس، تونس، 1918.
- شاهد عيان لفتح الأندلس، تونس، 1932.
- منعرج في تاريخ الأغالبة: ثورة منصور الطنبذي، تونس، 1937.
- بحث في دينارَيْن نورمانيّين بالمهديّة، تونس، 1930.

[نُقِلت هذه البحوث إلى اللغة العربيّة ونُشِرت في الجزء الثالث من الورقات].

---

(1) صدر جزء ثالث من الورقات بتونس، 1972، جمع وتحقيق م. ع. المطوي. كما صدر عن بيت الحكمة بتونس، 1990، المجلّدان الأوّل والثاني من "كتاب العمر في المصنفات والمؤلّفين التونسيين"، تأليف حسن حسني عبد الوهاب، مراجعة وإكمال: م. ع. المطوي والبشير البكّوش. (م)

(2) صدرت له طبعة ثانية بتونس، 1972، بمراجعة م. ع. المطوي. (م)

جـدول ملـخص الـحوادث

الـدور القرطـاجني (مـن سـنة 900 إلى سـنة 146 قبـل الميـلاد)

أسماء القواد المشاهير	تاريخ الوقائع	أهم الحوادث
الأميرة عليسة الفنيقية	880 ق.م	تأسيس مدينة قرطاجنة - انتشار القرطاجنيين في البحر المتوسط.
القائد عملقار القرطاجني	من 264 - 241 ق.م	الحرب الفنيقية الأولى - انهزام الجيش الروماني بإفريقية - نكبة القرطاجنيين بصقلية - ثورة جند قرطاجنة.
القائد حنبعل	من 218 - 202 ق.م	الحرب الفنيقية الثانية - انتصار حنبعل بإيطاليا - واقعة كانة: سنة 216 - انهزام القرطاجنيين بجامة: سنة 202 - التجاء حنبعل إلى الشام وموته بأنطاكية.
القائد صدر بعل	من 149 - 146 ق.م	الحرب الفنيقية الثالثة - هياج أمراء البربر - حملة رومة على قرطاجنة - تفاني القرطاجنيين في الدفاع عن عاصمتهم - تخريب الرومان لمدينة قرطاجنة.

الـدور الرومـاني (مـن سـنة 146 قبـل الميـلاد إلى سـنة 439 بعـده)

تاريخ الوقائع	أهم الحوادث
146 ق.م	انتصاب الرومان بإفريقية الشمالية - إعادة بناء قرطاجنة
120 إلى 106 ق.م	ثورة يوغرطة البربري على الحكومة الرومانية وموته سجيناً بروما
سنة 22 بعد الميلاد	استيلاء الأمير يوبا الثاني البربري على ولاية نوميديا - انتشار العمران بإفريقية - تشبه البربر بالرومان
سنة 100	ظهور الديانة المسيحية بإفريقيا - اعتناق البربر للنصرانية - تمسك البربر بالمذاهب الخلافية
سنة 125	زيارة القيصر الروماني "هدريان" لإفريقية - إنشاء معالم جليلة
من 193 إلى 211	اعتلاء سبتيم سيفاروس البربري على تخت القياصرة
من 420 إلى 439	اضطراب أحوال الرومان - استقلال الوالي (بونيفاس) بأمر إفريقية - استنجاده بالوندال - سقوط السلطة الرومانية.

مدة الوندال والروم (من سنة 439 إلى سنة 647 من الميلاد)

أسماء الأمراء والولاة	تاريخ الوقائع	أهم الحوادث
جنسريق ملك الوندال	من 439 - 477 م	استيلاء الوندال على إفريقية وانتصابهم بقرطاجنة - هجوم الوندال على رومة
ابنه هنريق	483	نزول الوندال بجزر البحر المتوسط - محو آثار الاستعمار الروماني
هدريق وجينمار	من 523 إلى 534 م	تنازل ملوك الوندال - تراجع أمر الوندال - تدخل الروم البيزنطيين في شؤون إفريقية
بليشار القائد البيزنطي	534	قدوم الجيوش البيزنطية واستيلاؤها على إفريقية
الوالي يوحنا تروغليطا	546	تنظيم الولاية البيزنطية بإفريقية - إنشاء المعالم والكنائس
البطريق غريغوريوس	646	استقلال ولاة الروم بأعمال إفريقية

الفتح العربي (من سنة 27 إلى سنة 150 هجرية)

أسماء الولاة	تاريخ الولاية	أهم الحوادث
عبيد الله بن أبي سرح	27 - 29	الغزوة الأولى لإفريقية وتعرف بغزوة العبادلة السبعة - النزول على سبيطلة
معاوية بن حديج	34 - 45	فتح سوسة وبنزرت - واقعة قمونية قرب القيروان
عقبة بن نافع الفهري	50 - 64	تأسيس القيروان سنة 50 - فتح الجريد وغزو المغرب الأقصى - استشهاد عقبة بالزاب.
حسان بن النعمان	78 - 88	فتح قرطاجنة وتخريب حصونها - قتل الكاهنة وتشريد عصابتها - إنشاء دار صناعة بتونس.
موسى بن نصير	88 - 95	فتح الأندلس على يد طارق بن زياد: سنة 92.
عبيد الله بن الحبحاب	116 - 123	غزو السوس والصحراء والسودان - تأسيس جامع الزيتونة.
محمد بن الأشعث	144 - 146	مقاومة خوارج البربر القائمين بإفريقية - انتقال الخلافة من بني أمية إلى العباسيين : سنة 132.

الأمـراء المهالبـة (مـن سـنة 151 إلى سـنة 184 هـ)

أسماء الولاة	تاريخ الولاية	أهم الحوادث
عمرو بن قبيصة المهلبي	151 - 154	حرب البربر الخوارج - استشهاد الوالي عمرو
يزيد بن حاتم	155 - 171	مقاومة الأحزاب المخالفين من الخوارج وغيرهم - تجديد بناء جامع عقبة بالقيروان
روح بن حاتم	172 - 174	خضوع البربر للسلطة العربية
الفضل بن روح	177 - 178	ثورة الجند العربي لسوء سيرة العمال
هرثمة بن أعين	179 - 181	بناء قصر المنستير وسور طرابلس
محمد بن مقاتل العكي	181 - 184	اختلال أمور إفريقية لسوء الإدارة - هياج العمال بالجهات - العهد من الرشيد لإبراهيم بن الأغلب بإمارة إفريقية

الدولـة الأغلبيـة (مـن سـنة 184 إلى سـنة 296 هـ)

أسماء الأمراء	تاريخ الولاية	أهم الحوادث
ابراهيم بن الأغلب الأكبر	184 -196	استقلال إفريقية الداخلي - إنشاء قصور العباسية - اتخاذ حرس من الزنوج - المواصلات مع الخارج.
زيادة الله الأول	201 - 223	فتح صقلية على يد أسد بن الفرات: سنة 212 - إنشاء معالم نافعة.
أبو إبراهيم احمد	242 - 249	انتشار العمران - بناء صهاريج كبيرة للماء - إتمام فتح حصون صقلية.
أبو الغرانيق محمد	250 - 261	فتح جزيرة مالطة : سنة 255.
ابراهيم الثاني	261 - 289	إنشاء مدينة رقادة - حرب ابن طولون ورده - غزوة بلاد الروم - موت ابراهيم بكستنه من إيطاليا.
أبو العباس عبد الله	289 - 290	ظهور دعوة الفاطميين في كتامة بالمغرب الأوسط.
زيادة الله الثالث	290 - 296	انتشار الدعوة الفاطمية وانضمام البربر إليها - انهزام الجيش الأغلبي بالاربس - انقراض دولة الأغالبة.

الدولة العبيدية (من سنة 297 إلى سنة 362 هـ)

أسماء الخلفاء	تاريخ الولاية	أهم الحوادث
عبيد الله المهدي	322 - 296	تأسيس خلافة فاطمية بإفريقية - قتل أبي عبد الله الداعي - بناء مدينة المهدية سنة 305 - محاولة الاستيلاء على مصر.
القائم بأمر الله	334 - 322	الاعتناء بالأسطول - غزوات البحر والاستيلاء على جزيرتي كرسكا وسردانية - ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد الخارجي.
اسماعيل المنصور	341 - 334	مقاومة أبي يزيد الثائر والانتصار عليه - إنشاء مدينة صبرة أو المنصورية قرب القيروان.
المعز لدين الله	362 - 341	الاستيلاء على المغرب الأقصى - امتلاك جوهر القائد الفاطمي لمصر وتأسيس مدينة القاهرة : سنة 358 - انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر.

الدولة الصنهاجية (من سنة 362 إلى سنة 543 هـ)

أسماء الأمراء	تاريخ الولاية	أهم الحوادث
بُلكّين بن زيري	373 - 362	عود السلطة إلى البربر - امتداد ملك صنهاجة إلى المغرب الأقصى.
باديس بن المنصور	406 - 376	حرب قبيلة زناتة - استقلال حماد الصنهاجي بالمغرب الأوسط.
المعز بن باديس	453 - 406	استبحار التمدن الإفريقي وانتشاره - استقلال إفريقية عن الفاطميين: سنة 440 -زحفة بني هلال وبني سليم - خراب القيروان: سنة 449 - انتقال تخت صنهاجة إلى المهدية.
تميم بن المعز	501 - 454	هجوم أسطول جنوة وروما على المهدية ووقوع الصلح - خروج صقلية عن حوزة المسلمين: سنة 484.
الحسن بن علي	543 - 515	الوحشة مع ملوك صقلية - استيلاء النرمانيين على الساحل التونسي: سنة 543 - انقراض دولة صنهاجة.

الدولة الموحدية (من سنة 554 إلى سنة 626 هـ)

أسماء الأمراء	تاريخ الولاية	أهم الحوادث
عبد المؤمن بن علي الكومي	528 - 558	تأسيس الدولة الموحدية بالمغرب - فتح جيش الموحدين لإفريقية - افتكاك المهدية من يد النرمان - نقل مقر الحكومة إلى تونس.
يوسف بن عبد المؤمن	575 - 580	إخضاع بني الرَّند المستقلين بقفصة.
المنصور بن يوسف	580 - 595	ثورة يحي الميورقي من بني غانية وامتلاكه لإفريقية.
الناصر بن المنصور	595 - 603	تقهقر أمر الميورقي الثائر - استخلاف بني حفص بإفريقية.
عبد الواحد بن أبي حفص	603 - 618	تسكين الثائرة - ترتيب ولاية إفريقية.
أبو زكرياء يحي	626	خلع أمراء بني حفص لطاعة الموحّدين - امتداد سلطة الحفصيين خارج إفريقية.

الدولة الحفصية (من سنة 626 إلى سنة 932 هـ)

أسماء الأمراء	تاريخ الولاية	أهم الحوادث
أبو زكرياء يحي	626 - 647	استقلال بني حفص بإفريقية - نجدة ملوك الأندلس.
المنتصر بالله الأول	647 - 675	بيعة الحرمين لسلطان تونس: سنة 657 - تلقب بني حفص بأمراء المؤمنين - زحفة الفرنسيس على تونس: سنة 668.
المنتصر بالله الثاني	683 - 694	انقسام المملكة الحفصية إلى شرقية وغربية.
المتوكل على الله	718 - 747	تدخّل بني عبد الواد في شؤون إفريقية وتقدم الحضارة بتونس.
أبو حفص الثاني	748	وثوب أبي الحسن السلطان المريني على تونس باستدعاء الوزير ابن تافراجين.
أبو العباس أحمد	772 - 796	استرجاع الولايات الخارجة عن السلطة الحفصية.
أبو فارس عزوز	796 - 837	الإيقاع بالأعراب الثائرين - الاستيلاء على المغرب الأوسط والأقصى - إنشاء عدة معالم.

أبو عمر عثمان	839 - 893	امتداد السلطة الحفصية إلى الصحراء.
أبو عبد الله محمد	899 - 932	تراجع أمر الحفصيين - ظهور السلطة العثمانية بآسيا وأروبا
الحسن بن محمد الحفصي	932 - 942	امتلاك خير الدين لتونس برهة من الزمان - استنجاد الحسن الحفصي بملك اسبانيا - دخول الاسبان لتونس: سنة 942.
أبو العباس الثاني	942 - 980	استيلاء الاسبان على الساحل التونسي - امتلاك درغوث باشا للقيروان: سنة 958 - انتصاب علي باشا بتونس: سنة 977.
محمد بن الحسن الحفصي	981	تجديد الحماية الاسبانية - إنشاء قلعتي الباستيون وشكلي - تدخل الأتراك - قدوم سنان باشا إلى حلق الوادي - الفتح العثماني: سنة 981 - انقراض الدولة الحفصية.

الدور التركي (من سنة 981 إلى سنة 1117 هـ)

أسماء الولاة	تاريخ الولاية	أهم الحوادث
الوزير سنان باشا	981	تنظيم الحكومة التركية بالقطر التونسي.
عثمان داي	1007	وفود مهاجري الأندلس إلى تونس: سنة 1016 - انتشار العمران.
يوسف داي	1019	إنشاء بناءات نافعة بالحاضرة - تقدم الأسطول التونسي.
مراد باي	1041	تقدم أمر البايات - تأسيس العائلة المرادية.
حمودة باي	1068	ترتيب الأوجاق - إنشاء عدة معالم دينية.
محمد باي بن مراد	1086	تنازع أمراء بني مراد للسلطة - تدخل الجزائريين في الشؤون التونسية - ثورة ابن شكر.
مراد بوبالة	1110	انهزام الجيش التونسي أمام الجزائريين - اضطراب الأحوال لسوء سيرة مراد بوبالة.
ابراهيم الشريف	1114	عود الجزائريين إلى تونس - تقديم حسين بن علي إلى الولاية.

الـدور الحسـيني الأول (مـن سـنة 1117 إلى سـنة 1250 هـ)

أسماء الأمـراء	تاريخ الولاية	أهـم الـحـوادث
حسين باي الأول	1117	تأسيس البيت الحسيني - إنشاء معالم ومدارس بتونس والقيروان - خروج علي باشا على عمه.
الباشا علي	1147	تشريد الجنويين من طبرقة - ثورة يونس باي على أبيه - مقتل علي باشا.
علي باي	1172	حصول خلاف مع فرنسا - إعانة الدولة العثمانية.
حمودة باشا	1186	الحرب مع البندقية - الاستيلاء على طرابلس - حرب الجزائريين - قمع ثورة الانكشارية - تحصين البلاد.
محمود باي	1230	قتل وزير ناصح: يوسف صاحب الطابع - وقوع الصلح نهاية مع الجزائر.
حسين باي الثاني	1239	مشاركة الأسطول التونسي بواقعة ناورين - استيلاء فرنسا على الجزائر: سنة 1246 - ابتداء الإصلاحات الداخلية.

ملاحظة

لقد اعتمد المؤلّف في هذه الجداول التقويم الهجري لتأريخ الحوادث. ويمكن الرجوع إلى أبواب الكتاب وفصوله، للمقابلة بين التاريخ الهجري والتاريخ الميلادي.

المصادر والمراجع

1- المصادر

- أحمد توفيق المدني، **حياة كفاح**، (ج 1)، الجزائر، بلا تاريخ.
- الطاهر الحدّاد، **العمّال التونسيون وظهور الحركة النقابية**، ط. 2، الدار التونسية للنشر، تونس، 1966.
- عبد العزيز الثعالبي، **تونس الشهيدة**، تعريب : حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985.
- علي البلهوان، **تونس الثائرة**، القاهرة، 1954.
- محمد بيرم الخامس، **القطر التونسي في صفوة الاعتبار**، تحقيق علي الشنوفي وعبد الحفيظ منصور ورياض المرزوقي، بيت الحكمة، قرطاج، 1989.
- محمد السنوسي، **خلاصة النازلة التونسية**، تحقيق محمد الصادق بسيس، الدار التونسية للنشر، تونس، 1976.

2- المراجع

- أحمد القصاب، **تاريخ تونس المعاصر**، تعريب حمادي الساحلي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1986.
- أحمد بن ميلاد ومسعود إدريس، **الشيخ عبد العزيز الثعالبي والحركة الوطنية**، (ج 1)، بيت الحكمة، قرطاج، 1991.
- الجيلاني بن الحاج يحيى ومحمد المرزوقي، **معركة الزلاّج**، تونس، 1961.
- حمادي الساحلي، **فصول في التاريخ والحضارة**، بيروت، 1992.
- شارل أندري جوليان، **المعمّرون الفرنسيون وحركة الشباب التونسي**، تعريب محمد المزالي والبشير بن سلامة، تونس، 1976.
- شارل أندري جوليان، **إفريقيا الشمالية تسير**، تعريب المنجي سليم والصادق المقدم، تونس، 1976.

- محمد الفاضل بن عاشور، **الحركة الأدبية والفكرية في تونس**، ط. 3، تونس، 1983.
- محمد المرزوقي، **صراع مع الحماية**، تونس، 1973.
- محمد الهادي الشريف، **تاريخ تونس**، دار سيراس، تونس، 1980.
- نقولا زيادة، **تونس في عهد الحماية (1881 – 1934)**، معهد الدراسات العربي العالية، 1963.

الفهرس

مقدمة الطبعة الجديدة 5
مقدّمة الطبعة الأولى 9

الباب الأول : العصور القديمة **13**
الفصل الأول : العهد القرطاجني 15
الفصل الثاني : الحروب البونيّة 19
الفصل الثالث : الاستيلاء الروماني 24
الفصل الرابع : استيلاء الوندال 29
الفصل الخامس : الاستيلاء البيزنطي 31

الباب الثاني : العهود الإسلامية الأولى **35**
الفصل السادس : الإسلام 37
الفصل السابع : الاستيلاء العربي 43
الفصل الثامن : إفريقية في عهد الولاة 52
الفصل التاسع : الدولة الأغلبية 58
الفصل العاشر : الدولة العبيدية 69
الفصل الحادي عشر : الدولة الصنهاجية 78
الفصل الثاني عشر : الدولة الموحّدية 87
الفصل الثالث عشر : الدولة الحفصية 90
الفصل الرابع عشر : التنافس التركي الإسباني 106

الباب الثالث : العصور الحديثة **111**
الفصل الخامس عشر : الإيالة التونسية في العهد التركي 113
الفصل السادس عشر : الدولة المرادية 118
الفصل السابع عشر : الدولة الحسينية (الفترة الأولى) 125
الفصل الثامن عشر : الدولة الحسينية (الفترة الثانية) 138

الباب الرابع : العهد المعاصر **149**
الفصل التاسع عشر : تونس في عهد الحماية الفرنسية 151
الفصل العشرون : تاريخ الحركة الوطنية 160
الفصل الحادي والعشرون : الحركة الاستقلالية والكفاح التحريري 171

ملحق 175
سيرة حسن حسني عبد الوهاب الذاتية 177
جدول ملخص الحوادث 185

المصادر والمراجع 193
الفهرس 195

إصـــدارت دار الـجـنـوب لـلـنـشـر

سلسلة "عيون المعاصرة"

محمود المسعدي
حدث أبو هريرة... قال
تقديم توفيق بكار

الطيب صالح
موسم الهجرة إلى الشمال
تقديم توفيق بكار

حنا مينه
الـيـاطـر
تقديم رشيد الغزّي

محمود المسعدي
الـســـــد
تقديم توفيق بكار

عبد الرحمان منيف
شرق الـمـتـوسّـط
تقديم حسين الواد

عز الدين المدنى
من حكايات هذا الزمان
تقديم سمير العيادي

إميل حبيبى
الـمـتـشـائـل
تقديم توفيق بكار

الفارسي/ زليلة
الـطـوفـــان
تقديم عبد الفتاح ابراهم

فرج الحوار
وقائع الغربة والأشجان
تقديم عبد العزيز شبيل

محمد المويلحى
حديث عيسى بن هشام
تقديم محمود طرشونة

فرج الحوار
الموت والبحر والجرذ
تقديم عبد الفتاح ابراهم

محمود درويش
مختارات شعرية
تقديم توفيق بكار

عبد القادر بن الشيخ
ونصيبى من الأفق
تقديم حسن الصادق الأسود

الطيب صالح
مـريـــود
تقديم رجاء النقاش

يوسف إدريس
مختارات قصصية
تقديم حسين الواد

جبران خليل جبران
النـبـى
تقديم ثروت عكاشة

فؤاد التكرلى
مـوعـد الـنـــار
تقديم توفيق بكار

علياء التابعى
زهـرة الـصبّـار
تقديم هشام الريفى

البشير خريّف
الدقلة في عراجينها
تقديم الطيب صالح

صنع الله إبراهيم
الـلـجـنـة
تقديم حسن الصادق الأسود

جمال الغيطانى
الـزينـى بـركـات
تقديم فيصل درّاج

حسن نصر
دار الـبـاشـــا
تقديم محمد القاضى

صلاح الدين بوجاه
الـنـخـــاس
تقديم المنصف الوهايبى

أدونيس
مختارات شعرية
تقديم عبد الله صولة

عروسية النالوتى
تـــمـــاس
تقديم يوسف الصديق

محمد على اليوسفى
شـمـس الـقـرامـيـــد
تقديم فؤاد التكرلي

محمد الباردي
على نـار هـادئـة
تقديم محى الدين حمدي

محمد البساطي
صخب البحيرة
تقديم توفيق بكار

محمود المسعدي
من أيّام عمران
جمع وتقديم محمود طرشونة
قراءة توفيق بكار

البشير خريف
برق الليل
تقديم فوزي الزمرلي

سلسلة "مفاتيح"

حسين الواد
مدخل إلى شعر المتنبي

عمر الشارني
المفهوم في موضعه

شكري المبخوت
سيرة الغائب سيرة الآتي

القاضي / صولة
الفكر الإصلاحي عند العرب

محمد الهادي الطرابلسي
تحاليل أسلوبية

محمد القاضي
تحليل النص السردي

عبد القادر المهيري
أعلام وآثار من التراث النحوي

جلال الدين سعيد
معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية

حسين الواد
البنية القصصية في رسالة الغفران

عبد السلام المسدي
في آليات النقد الأدبي

عبد الفتاح ابراهم
مدخل في الصوتيات

محمد الخبو
مدخل إلى الشعر العربي الحديث

محمد محجوب
هيدقر ومشكل الميتافيزيقا

مقداد عرفة منسية
علم الكلام والفلسفة

فتحي المسكيني
هيغل ونهاية الميتافيزيقا

حسين الواد
اللغة الشعر في ديوان أبي تمام

الصادق قسومة
النزعة الذهنية في رواية الشحاذ لنجيب محفوظ

الصادق قسومة
طرائق تحليل القصّة

سلسلة "معالم الحداثة"

حسين الواد
تدور على غير أسمائها

ط. البكوش/ص. الماجري
في الكلمة

على عبد الرازق
الإسلام وأصول الحكم

أحمد حسين أمين
دليل المسلم الحزين

محمد الناصر النفزاوي
محمد كرد على المثقف وقضية الولاء السياسي

ع. المزغني/س. اللغماني
مقالات في الحداثة والقانون

فتحي بن سلامة
تخييل الأصول

خالد الوغلاني
صورة الرحيل في شعر المتنبي

حياة عمامو
أصحاب محمد

رجاء بن سلامة
الموت وطقوسه

آمال قرامي
قضية الردّة

أنور لوقا
أبو حيان التوحيدي وشهرزاد

محمد الشرفي
الإسلام والحرية

عبد المجيد الشرفي
لبنات

عبد المجيد الشرفي
الإسلام والحداثة

سلسلة "لزوميّات المقال"

بارمينيدس
القصيد

سبينوزا
علم الأخلاق

سبينوزا
رسالة في إصلاح العقل

جاك ديريدا
صيدلية أفلاطون

فولتير
كنديد

سبينوزا
كتاب السياسة

سلسلة المسرح الحي"

توفيق الجبالى
كلام الليل

جليلة بكّار
جنـــون

محمد إدريس
إسماعيل باشا

Fadhel Jaïbi
Les Amoureux du Café Désert

جليلة بكّار
البحث عن عائدة

فاضل الجعايبى
فاميليا

أحمد حاذق العرف
المسرح التونسى وعوائق التجاوز

كتب في غير السلاسل

م. الشرفى/ع. المزغنى
أحكام الحقوق

شفيقة الشعبونى
من الموضوع إلى المقال الفلسفى

توفيق بكار
شعريات عربية

ادموند شارل رو
رحّالة كنت

محمود بيرم التونسى
مذكّراتى

عبد السلام المسدي
قضيّة البنيوية

وديع بن ابراهيم
في التعامل مع النص الأدبى

توفيق بكار
قصصيات عربية

محمود المستيري/صالح عطية
أفغانستان: السياسة الغائبة والسلام المسلح

حسين الغربى
مع أدباء البكالوريا (الأدب القديم)

مسرح على الدعاجى
تحقيق وتقديم توفيق بكار

محمد الناصر النفزاوي
فارس وبيزنطة والجزيرة العربية

فتحى انقزّو
هوسرل واستئناف الميتافيزيقا

توفيق بكار
مقدّمات

حياة عمامو
إسلام التأسيس ببلاد المغرب

حسين الغربى
مع أدباء البكالوريا (الأدب الحديث)

Jean Fontaine
Propos sur les littératures tunisiennes

Anastasia Manstein-Chirinsky
La Dernière Escale

Ali Mezghani
Lieux et non-lieu de l'identité

Houda Karim
Lézardes

Mongi Smida
Aux origines du commerce français en Tunisie

George Khaïat
Sfax ma jeunesse

Noureddine Kridis
Communication et Systémique

Achevé d'imprimer en Juin 2004
sur les presses de
FINZI USINES GRAPHIQUES
Registre des travaux N° 182

«لا جرم أن الإنسان مجبول بفطرته الغريزيّة على حبّ بلاده، والشغف بأخبارها، لا سيما إذا كان لوطنه مكانه في التاريخ ومجد مشاهد بين الأمم. فهذه العاطفة الطبيعيّة واحتياج ناشئتنا إلى مختصر في حوادث قطرهم، كانا الباعث القويّ على وضع هذه «الخلاصة» التي لم نقتصر فيها على سرد الوقائع وذكر السنين، بل بسطنا من القول ما أمكن في سير العلم والرقيّ ومظاهر الحضارة في كلّ عصر من العصور. كما عقدنا فصلا لتراجم النابغين في كلّ دور، سواء كانوا من المشتهرين في العلم والأدب، أو في السياسة والحرب، ممّا تكون الفائدة به أعمّ، والمنفعة أعظم.»

هذه نشرة جديدة منقّحة من خلاصة تاريخ تونس سعينا من خلالها إلى إعادة نشر مختصر يعتبر مرجعا لدراسة تاريخ تونس «من أقدم العصور إلى الزمان الحاضر».

وقد استطاع محقّق هذه الطبعة من الكتاب أن يحافظ على أصل هذا التأليف كما وضعه مؤلّفه مع إضافة ملاحق تربط تاريخ تونس بالحركة الوطنية والحركة الاستقلالية حتّى يكون سلسلة متواصلة تكشف للقارئ اليوم الأحداث التي عاشتها تونس على امتداد تاريخها الطويل.

ISBN : 9973 - 844 - 00 - 9

الثمن : 6,900 د.ت.